وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة القادسية – كلية التربية
قسم التاريخ

علي مبارك ودوره الفكري الاصلاحي في مصر
١٨٢٣ – ١٨٩٣م

رسالة تقدمت بها الطالبة

رنا جبوري موسى العيساوي

الى مجلس كلية التربية في جامعة القادسية
وهي جزء من متطلبات درجة ماجستير في التاريخ الحديث

إشراف الأستاذ المساعد

الدكتور عبد الكريم حسين الشباني

١٤٣٤ هـ ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ
ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ

صدق الله العلي العظيم

النساء : ١١٤

إقرار المشرف

أشهد أن إعداد هذه الرسالة الموسومة بـ (علي مبارك حياته ودوره الفكري من ١٨٢٣ – ١٨٩٣م) التي قدمتها الطالبة (رنا جبوري موسى العيساوي) ؛ قد جرى بإشرافي في قسم التاريخ /كلية التربية / جامعة القادسية ، وهي جزء من متطلبات شهادة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر .

التوقيع :
المشرف العلمي : د. عبد الكريم حسين الشباني
التاريخ : / / ٢٠١٣ م

بناءً على التوصيات المتوفرة ارشح هذه الرسالة للمناقشة

التوقيع :
رئيس قسم التاريخ : أ.م.د عاصم حاكم عباس الجبوري
التاريخ : / / ٢٠١٣ م

إقرار المقوم اللغويّ

أشهد أن هذه الرسالة الموسومة بـ (علي مبارك حياته ودوره الفكري من ١٨٢٣ – ١٨٩٣م)) التي قدمتها طالبة الماجستير (رنا جبوري موسى العيساوي) ؛ قد قُوّمت من قبلي ، وأصبحت سليمة من حيث اللغة والأسلوب .

التوقيع :

الاسم :

كلية التربية – جامعة القادسية

التاريخ : / / ٢٠١٣ م

الإهداء

إلى ....

أبـــــي

الباحثة

شكر وعرفان

يُلزمني الاعتراف بالفضل أن اسجل لاستاذي المشرف الاستاذ المساعد الدكتور عبد الكريم حسين الشباني الذي أحاطني برعايته ، كلمات الشكر والتقدير والثناء ، وهي كلمات – كما نعلم – لا تفي بحق تواضعه وعلمه ، فقد امدني بعلمه وتوجيهاته وبذل من جهده ووقته ما مكنني من ان انجز فصول هذه الرسالة ، مما جعلني مدينةً له ما حييت .

وكذلك اتقدم بالشكر الجزيل إلى أساتذتي في السنة التحضيرية وهم كل من الاستاذ الدكتور محمد هليل الجابري ، والاستاذ الدكتور حسن عبد الله السماك ، والاستاذ المساعد الدكتور محمد صالح حنيور ، والاستاذ المساعد الدكتور أحمد محمد طنش ، والاستاذ المساعد الدكتور عبد الرضا حسن جياد ، والاستاذ المساعد الدكتور رافد كاظم كريدي ، وأتقدم بالشكر إلى أساتذة العلوم التربوية الاستاذ المساعد الدكتور علي صكر الخزعلي ، والاستاذ المساعد الدكتور حسين هاشم هندول .

واقدم شكري الى الاستاذ الدكتور صباح مهدي رميض / كلية التربية ابن رشد / جامعة بغداد لتوجيهاته وآرائه التي ساعدتني بالشيء الكثير ، وأقدم شكري الى الاستاذ الدكتور أحمد ناجي / جامعة الكوفة / كلية الاداب الذي ساعدني بالحصول على بعض المصادر .

وكذلك أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل العاملين في المكتبة المركزية في الجامعة المستنصرية ولاسيما مديرة المكتبة الست هناء (أم شهدي) ، ومكتبة دار الكتب والوثائق ، وجميع المكتبات في كلية التربية أبن رشد ، وكلية العلوم السياسية في الجامعة المستنصرية ، وكلية الآداب / جامعة بغداد .

وأتقدم بالشكر الجزيل الى كل العاملين في المكتبة المركزية / جامعة القادسية ، ومكتبة كلية التربية ، ومكتبة الديوانية ، ومكتبة الروضة الحيدرية ، وأقدم شكري

الجزيل الى الاخ الاستاذ ثائر رحيم كاظم الذي جلب لي بعض المصادر النادرة من مصر / المكتبة الوطنية المصرية .

ولا يفوتني أن أسجل شكري وامتناني إلى جميع أفراد أسرتي وفي مقدمتهم والدتي العزيزة لما قدمته لي من عون ومؤازرة في بلوغ المنال فلها مني جلّ التقدير ووافر الاحترام .

وفي الختام أقف عاجزة عن تقديم شكري وتقديري واعتزازي الى زوجي (صباح) الذي شد أزري ويسر لي المصاعب ومنحني ثقته العالية فكان خير معين لي ، وأدعو الله سبحانه ان يحفظ لي عائلتي سندا وعونا ، والله أسال التوفيق للجميع .

الباحثة

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ–ب
الفصل الأول : علي مبارك حياته ونشأته (١٨٢٣–١٨٩٣)	١–٣٤
المبحث الأول : عصر علي مبارك	٢– ٢٤
اولا : التعليم	٩
ثانيا : البعثات	١٢
ثالثا : الطباعة والصحافة	١٤
رابعا : الترجمة	١٥
المبحث الثاني : علي مبارك مراحل النشأة الاولى وبناء الشخصية الاجتماعية	٢٥– ٣٤
دراسته	٢٥
علي مبارك وظروف البعثة الدراسية الى فرنسا	٢٩
الفصل الثاني : علي مبارك ومهام العمل الاداري وواجهات نشاطه الفكري	٣٥– ٨٦
المبحث الاول : مهام العمل الاداري والوظيفي	٣٦–٥٧
علي مبارك وموقفه من الثورة العرابية	٥٢
وفاته	٥٦
المبحث الثاني : واجهات نشاطه الفكري	٥٨–٨٦
علي مبارك وفاعلية النشاط الثقافي المشترك	٧٤

فكره الاصلاحي في الميدان التعليمي	٧٨
اولا : اصلاح المؤسسات التعليمية والتربوية	٧٨
ثانيا : فكره الاصلاحي في ميدان التنمية الاقتصادية	٨٤
الفصل الثالث : علي مبارك وتوظيف مفهوم الاصلاح في بناء مؤسسات الدولة الحديثة	٨٧-١٣٣
المبحث الاول : التعريف بمفهوم الاصلاح	٨٨-١١١
مفهوم الاصلاح عند علي مبارك	٨٩
المبحث الثاني : علي مبارك وواجهات الاصلاح الحديثة	١١٢-١٣٣
١. الترجمة	١١٢
٢. الصحافة	١٢١
٣. التاريخ	١٢٧
الفصل الرابع : علي مبارك والتحليل الموضوعي لكتابه الخطط التوفيقية	١٣٤-١٨٢
المبحث الاول : الهدف من كتابة الخطط	١٣٥-١٤١
المبحث الثاني : منهجيته في كتابة الخطط	١٤٢-١٧٤
المبحث الثالث : المصادر التي اعتمدها في كتابه الخطط التوفيقية	١٧٥-١٨٢
الخاتمة	١٨٣-١٨٥
قائمة المصادر	١٨٦-١٩٦
المختصر الانكليزي	A-B

المقدمة :

برز خلال القرن التاسع عشر مجموعة من المفكرين العرب الذي قُدر لبعضهم الدراسة في أوربا والاطلاع المباشر على الواقع العلمي والحضاري للتطور والتقدم الحاصل لتلك الدول فكان لذلك تأثير كبير على توجهاتهم الفكرية ، ولئن كثرة الدراسات التي عالجت الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري للولايات العربية في القرن التاسع عشر ، لكن بعضها افتقر إلى تناول رواد حركة النهضة العربية في تلك الحقبة ، ويقف في مقدمة هؤلاء الرواد المفكر العربي (علي مبارك) .

ونظرا لأهمية دراسة الفكر الذي يعطي تحليلاً علمياً للواقع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للحقبة التي عاشها هذا المفكر ، لاسيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار أن الفكر هو مجمل التحليلات للواقع المعاش ، من هنا تأتي اهمية دراسة المفكر العربي علي مبارك .

تألفت الرسالة من مقدمة واربعة فصول وخاتمة ، عالج الفصل الأول النشأة الاولى لعلي مبارك ، وقد تضمن المبحث الأول عصر علي مبارك الذي عاش فيه والظروف التي أحاطت به فأثرت في حياته وشخصيته ، وعرض المبحث الثاني حياة علي مبارك منذ ولادته ودراسته والمحطات الرئيسة التي عاشها .

وخصص الفصل الثاني لدراسة مناصب علي مبارك وجهوده الفكرية ، تضمن المبحث الأول مناصبه التي حصل عليها بعد رجوعه من البعثة الفرنسية ، أما المبحث الثاني فكان بعنوان جهوده الفكرية وماذا ترك من مؤلفات ، إذ صارت فيما بعد شاهدا على نبوغ هذا المفكر الكبير في الاتجاه الاصلاحي .

أما الفصل الثالث فقد تم فيه استعراض توجهاته الاصلاحية ، فأوضح المبحث الأول مفهوم الاصلاح عنده ، أما المبحث الثاني فقد تناول واجهات الاصلاح عند علي مبارك التي تتمثل في الترجمة والصحافة والتاريخ .

وكرس الفصل الرابع لدراسة مؤلفه الشهير (الخطط التوفيقية لمصر) ، فجاء المبحث الأول يسلط الضوء على كتابه (الخطط التوفيقية) ، وعالج المبحث الثاني منهجية علي مبارك في كتابه (الخطط التوفيقية) ، في حين عرض المبحث الثالث المصادر التي اعتمد عليها في كتابه (الخطط التوفيقية) وهذا المبحث ينقسم إلى عدة اقسام حسب المصادر التي اعتمدها .

وقد اعتمدت الرسالة على مجموعة من المصادر تاتي في مقدمتها المصادر الاصلية التي تعد من مؤلفاته ، وهي كالآتي : كتاب (الخطط التوقيفية) ، المتكون من عشرين جزءً ، وكتاب (علم الدين) ، المؤلف من أربعة أجزاء ، وكتاب (نخبة الفكر في تدبير نيل مصر) ، إذ تمثل مؤلفاته جوهر توجهاته الفكرية ، وكذلك مؤلفات المفكر العربي (محمد عمارة) صاحب الجهد الكبير في مؤلفه (الأعمال الكاملة لعلي مبارك) ، فضلا عن كتاب (تقويم النيل) تأليف (أمين سامي باشا) الذي يتكون من أجزاء عدة .

كذلك اعتمدت على مجموعة من الكتب المعرّبة التي أفادت الدراسة كثيرا ، منها كتاب (لمحة عامة عن مصر) لمؤلفه (كلوت بك) الذي يتكون من جزأين ، وكتاب (تاريخ الأقطار العربية الحديث) لمؤلفه (جورج لوتسكي) ، وكتاب (الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر) لمؤلفه (هيلين آن ريفلين) .

وكانت الصحافة مصدرا مهما ولاسيما الصحف التي صدرت في عهد (علي مبارك) ، كانت المصدر الرئيس بعد مؤلفاته في بروز توجهاته الإصلاحية ومهمته بالنهوض بالواقع التعليمي والصحي والهندسي لمصر في تلك الحقبة .

لعبت الصحافة دوراً مهماً ومؤثراً في عملية النهضة العربية الحديثة ، فقد ظهرت مع بوادرها وارتبطت بها ، واصبحت عاملا رئيسا من عوامل الازدهار باعتبارها ركنا رئيسا من أركان الثقافة العربية ، وما لها من تاثير في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في البلاد .

وقد واجهت الباحثة صعوبات كثيرة تكمن في اختيار الموضوع أولا ؛ لان عملية دراسة الفكر ليست بالأمر السهل ؛ لأنه يتطلب معرفة كل ما صدر عن هذا المفكر من مواقف ورؤى لكل ما يحصل للمجتمع والدولة آنذاك ، وقد تكون تلك الرؤى غير صريحة تستنتج من تحليل طروحاته ، فضلا عن ذلك صعوبة السفر إلى جمهورية مصر العربية ، إذ إن حواجز وقيود السفر على العراقيين كثيرة ، فضلا عن الظروف التي كانت تعيشها مصر بسبب تغيير نظام الحكم حالت دون السماح لي بالسفر ، وفي الختام أقدم شكري وتقديري إلى لجنة المناقشة .

الباحثة

الفصل الأول

علي مبارك حياته ونشأته

(١٨٢٣ – ١٨٩٣)

المبحث الأول : **عصر علي مبارك**

المبحث الثاني : **حياة علي مبارك**

المبحث الأول : **عصر علي مبارك** :

كل مفكر هو نتاج العصر الذي عاش فيه ، وترتبط حياته بالأحداث الكبرى التي جرت في عصره ، لذلك تتباين مكانته في التاريخ بحسب الدور الذي اضطلع به في توجيه تلك الأحداث بما يخدم وطنه وأمته .

وما المفكر علي مبارك إلا نتاج العصر الذي عاش فيه ، فاتسم عصره بسمات تمثلت بقيام دولة محمد علي عام (١٢٢٠هـ/١٨٠٥م) ، ولقد عُدّت توليته انتصارا لارادة الشعب ، إذ وجد الشعب في شخصيته صفات الحاكم الجيد الذي سعى الى بناء مصر ، فقد أعلن محمد علي أن العلة التي حلت بالبلاد راجعة إلى سوء سياسة العثمانيين وعدم سيطرتهم على مقاليد الأمور [١] .

وجعلت هذه الامور مجتمعة محمد علي يتخذ من الاصلاح طريقا لبناء دولته ، معتمدا خطا وسطا ، للسير عليه في طريق الاصلاح بين القديم والحديث ولم يتعصب للقديم ، وادرك أن الاصلاح لا يتم إلا عن طريق الاخذ من الغرب ، ولم يأخذ من الغرب كل شيء ، بل رأى أن الطريق الوسط هو الحل الأمثل في عملية الإصلاح [٢] ، بعد أن أدرك أن أول عمل قام به هو تثبيت دعائم الدولة وتقويمها داخليا وخارجيا ، لأن الاصلاح لا يمكن أن يتم إلا بوجود نظام قوي قادر على تنفيذ عملية الاصلاح ، وكانت الخطوة الاولى التي خطاها هي تقويض اركان النظام القديم الذي كان سائدا ، فهذه العملية لم تكن بالأمر اليسير ، بل على العكس لان العناصر التي يتكون منها ذلك النظام لم تزل تسيطر على الحلقات الأساسية فيه .

من جانب آخر لم يكن الوعي القومي في مصر بمستوى النضوج مما يجعله قادراً على القضاء على أركان النظام القديم ، من مماليك وأمراء وملتزمين ، فضلا عما تتطلبه هذه العملية من تهيئ نفوس وعقول الشعب المصري الذي عاش أوضاعاً صعبة مدة طويلة من الزمن [٣] ، فعلى سبيل المثال اتسم العلم في ذلك الوقت بالجمود والاقتصار على العلوم الشرعية والنقلية ، واستقراره في أروقة الأزهر الشريف وبعض المساجد ، لذلك فإن التحولات السياسية والاجتماعية

---

[١] عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، ج٢ ، دار المعارف بمصر ، ط٤ – ١٩٨١ ، ص٣٤٨ .

[٢] جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، دار الفكر العربي ، القاهرة – ١٩٥١ ، ص٦ .

[٣] أحمد عزت عبد الكريم ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت – ١٩٧٠ ، ص٢٢٧ .

والاقتصادية التي طرأت على المجتمع جعلت العلوم الشرعية والنقلية غير كافية للعصر الجديد ، حتى شيخ الازهر الشيخ (حسن العطار) [١] فَقَدَ ثقته بمثل هذه العلوم فقال : " إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها " [٢] .

وتلك الأوضاع مجتمعةً قادت إلى إدراك محمد علي لحقيقة مفادها أن لا قوة لمصر إلا بقوة نظامها ، وأن هذا النظام القوي لا يقوم بوجود العصبيات السائدة آنذاك من ألبانيين ومماليك ، مما ادى به إلى القضاء عليهم في مذبحة القلعة الشهيرة عام (١٢٢٦هـ / ١٨١١م) ، وبذلك أنهى النظام القديم الذي كان سائدا [٣] ، ثم أدرك أن النهضة الشاملة لا تتم إلا بدولة قوية ، وذلك يحتاج إلى جيش قوي ، وحماية النهضة لا تتم إلا ضمن كيان عربي ، فكانت الخطوة الأولى التي بدأها محمد علي في بناء دولته ، النظام الاداري الذي استحدثه ، إذ قسم مصر إلى مناطق إدارية جديدة أطلق عليها تسمية المديريات ، وهي سبع مديريات .

وجعل لكل مديرية رئيساً يسمى بالمدير ، يخضع مباشرة للحكومة المركزية في القاهرة ، وكانت مهمته إدارة المديرية من كافة الجوانب الإدارية والضرائب وادارة المصانع ، وكذلك التعمير والاصلاح ، وقسم تلك المديريات إلى مركز ، جعل على كل مركز مأموراً لإدارة شؤون المركز ، وبهذا النظام الإداري المنظم جعل الحكومة المركزية تسيطر سيطرة تامة على جميع مرافق الدولة [٤] ، أما إصلاحات محمد علي في الجانب السياسي فتتمثل بإنشائه العديد من الدواوين والمجالس ، وكان على قمة الجهاز الحكومي (الديوان العالي) وهو مجلس الوزراء ، وكان يجتمع في القلعة تحت رئاسة وكيل الباشا أو نائبه الذي يحمل لقب (كتخدا بك) أو (كتخدا باشا) ، وكان الديوان العالي أو مجلس الوزراء يسمى أيضا بـ (ديوان الخديوي) ، وفي مرحلة أخرى سُمّي بـ (ديوان المعاونة) ، الذي تفرع إلى جملة وزارات أو دواوين متخصصة هي :

---

[١] ولد في ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م بالقاهرة وكان اهله من المغرب وانتقلوا الى مصر ، كان ابوه عطارا ، ومن هنا جاء هذا اللقب بالعطار ، واسم والده الشيخ محمد كتن ، وكان لأبوه مشاركة في بعض العلوم فلما رأى الولد اقبال ابوه على العلم همّ في تحصيله اشتغل في تدريس اللغة العربية لبعض علماء الحملة الفرنسية ثم اشتغل بالتدريس بالأزهر الشريف وفي سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م تولى مشيخة الازهر، وتوفي سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٥م . ينظر : محمد عبد الغني حسن ، حسن العطار ، نوابغ الفكر العربي – ٤ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ ، ص٢٠-٢٢ .

[٢] محمد عبد الغني حسن ، حسن العطار ، سلسلة نوابغ الفكر العربي ٤٠ ، دار المعارف بمصر – ١٩٦٨ ، ص٧٤ .

[٣] محمد عزه دروزه ، نشأة الحركة العربية الحديثة ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط٢ – ١٩٧١ ، ص٦١ .

[٤] فلاديمير برفيست لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧١ ، ص٧٧ .

(ديوان الجهادية) ، و (ديوان الايرادات المالية) ، و (ديوان البحر – البحرية)، و (ديوان المدارس – التعليم والاشغال العمومية) ، و (ديوان التجارة) ، و (ديوان الفاوريقات – الصناعة) ، بذلك اصبح مجلس الوزراء يضم سبع وزارات هي : الحربية ، والبحرية ، والتجارة ، والخارجية ، والتعليم ، التشييد ، والأشغال ، وكانت هذه الوزارات تمثل السلطة التنفيذية في مصر [١] .

وقد وضع محمد علي قانونا أساسيا أي (دستور) لمصر عام (١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م) عرف باسم (سياستنامه) أي (كتاب السياسة) وليس في هذا الدستور ذكر للمبادئ العامة لنظام الحكم في مصر أو بيان لفلسفته وإنما هو مجرد تحديد لهيكل الحكومة وبيان اختصاصاتها [٢] ، أما (فلسفة محمد علي) في التطور فتتلخص في أنه كان يعي حقيقة مفادها أنه لابد من الاقتباس من الغرب ، اقتباس وسائل القوة في المحل الأول ثم اقتباس ما يمكن من طرائق وأساليب الحضارة الحديثة في شتى المجالات ، من هنا دخلت مصر في أوائل القرن التاسع عشر فترة من التحول السريع هزت دعائم بنيانها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ونظام الحكم في مدة قصيرة من الزمن [٣] ، في ذات الوقت كان يطمح إلى تكوين إمبراطورية قوية ، تكون لها قاعدة اقتصادية تستند عليها في عملية النهضة ، وقد أولى (الجانب الاقتصادي) أهمية فائقة كونه الأساس في النهضة ، فلقد طرأت تغييرات في بنية الاقتصاد المصري ، بعد أن كان هذا الاقتصاد قبل عهد محمد علي يسيطر عليه الركود والجمود ، وفقدان التوجيه والترشيد ، فالفلاح كان يستخدم كأجير للزراعة ، والأرض بيد البكوات والمماليك، ولا صناعة قائمة آنذاك [٤] .

فبدأ (بالخطوة الاولى) وهي الزراعة إذ نقلها من الاقطاع إلى نظام رأسمالية الدولة ، كذلك أدخل المعدات والادوات الحديثة في الزراعة ، وكذلك الطرق الحديثة ، مما يمكن الدولة من السيطرة على هذا القطاع الحيوي الهام في اقتصاد البلد وهو الزراعة ، فألغى نظام الالتزام الذي كان سائدا آنذاك ، وأعطى الملتزمين راتبا سنويا ، وجعل نفسه ملتزما كبيرا على جميع الأراضي ،

---

[١] هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة : أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ ، ص١١٥ ؛ لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري الحديث (من عصر اسماعيل إلى ثورة ١٩١٩) ، ج٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣ ، ص٧ .

[٢] أحمد زكريا الشلق ، معالم تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر ، الدوحة ، ١٩٩٦ ، ص٨٥ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٥٥ .

[٤] س . ف . فولتي ، ثلاثة أعوام في مصر وبلاد الشام ، نقلها إلى العربية : ادوارد البستاني ، وزارة التربية الوطنية في لبنان ، بيروت ، ١٩٤٩ ، ج١ ، ص١٢٤ .

الأمر الذي جعل الدولة تسيطر على هذا المورد الهام في البلاد [١] ، ولغرض استصلاح الاراضي الزراعية والحصول على كمية كبيرة من الانتاج ، فقد أولى محمد علي اهتماماً كبيراً بمشاريع الري ، اذ جدد الترع والقنوات القديمة وحفر ترع اخرى جديدة [٢] ، وزاد في عمقها بحيث تكفي مياهها لري الاراضي خلال فصل الصيف ، وأنشأ عليها القناطر لرفع منسوب المياه فيها حتى يسهل ري الأراضي الزراعية [٣] .

لقد افضى اهتمام محمد علي بمشاريع الري الى نتائج إيجابية ، فقد تم حفر ما مقداره ١٦٩كم من الترع في مصر الوسطى والصعيد ، كما تم بناء ١٨٣ متراً من الجسور ، وقد بلغ الحجم الكلي للأعمال الترابية للترع والجسور للفترة ما بين عام ١٨١٨ – ١٨٤٢ ما مقداره ٨١٢ ، ٤٠٣ ، ١٢ مليون متر مكعب ، كما وبلغ عدد السواقي ٥٢٨٣٦ ساقية في عام (١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م) [٤] .

وبدء محمد علي بالإعداد لبناء القناطر الخيرية أطلق عليها اسم (القناطر المجيدية الخيرية) نسبة الى السلطان عبد المجيد في عام (١٢٤٩هـ / ١٨٣٤م) للاستفادة منها في تنظيم مياه فيضان النيل والتحكم في توزيعها على أراضي الدلتا ، والاستفادة منها بعد الفيضان ، وأصدر أمرا بإرسال طلاب المهندسخانة إلى موقع العمل للتدريب العملي أثناء بناء القناطر ، ثم توقف العمل عام (١٢٥١هـ / ١٨٣٥م) ، لانتشار مرض الطاعون ، ثم استانف العمل (في ٢٣ ربيع الثاني ١٢٦٣هـ / ١٠ نيسان ١٨٤٧م) ولكنه لم يستطع انهاء هذا المشروع بسبب وفاته [٥] .

فساعد ذلك على النهوض بالجانب الزراعي ، وعملت على تحسين مستوى الانتاج ، الذي قاد إلى حصول فائض بالانتاج ، وبالتالي تمكنت الدولة القيام بعملية تصديره الى الخارج مثل

---

[١] علي بركات ، تطور الملكية الزراعية واثره على الحياة السياسية ، (١٨١٣ – ١٩١٤ م) ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص٢٠ .

[٢] وهذه الترع هي كالآتي : الجعفرية والمحمودية والخطابية والبوهية وبجيرم والخضروية والمنصورية والشرقاوية وغيرها ، للمزيد من المعلومات انظر : عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (عصر محمد علي) ، ج٣ (القاهرة – ط٥ ١٩٥٥) ، ص٥٤٤ .

[٣] سؤدد عبد الحسين سبتي الربيعي ، دور النخبة المثقفة في الحياة الفكرية والسياسية في مصر من ١٨٦٩ – ١٩١٨ ، اطروحة دكتوراه ، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية ، الجامعة المستنصرية ، (بغداد – ٢٠٠٧) ، ص١٩ .

[٤] المصدر نفسه ، ص٢٠ .

[٥] محمد حسام الدين اسماعيل ، مدينة القاهرة من ولاية محمد علي الى اسماعيل ١٨٠٥ – ١٨٧٩م ، دار افاق عربية ، (القاهرة – ط١ ١٩٩٧) ، ص٨٥ .

محصول القطن والنيلة والأرز ، وبالتالي استطاعت الدولة من توسيع المشاريع الزراعية والنهوض بها للمستوى المطلوب [١] .

إن هذه الاجراءات التي أحدثها محمد علي انعكست على الزراعة كماً ونوعاً ، ففي اقل من ثلث قرن زاد التطور في مساحة الرقعة المزروعة ، حيث وصلت الزيادة في النمو الأفقي للأراضي الزراعية الى اكثر من النصف ، بعد أن كانت المساحة المزروعة في عام ١٨٢٢م تقارب من مليوني فدان [٢] ، ارتفعت في عام (١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م) الى ٣,٨٥٦,٢٢٦ مليون فدان ، كما قفزت الى ٤,١٦٠,١٩٩ مليون فدان في عام ١٨٥٢م [٣] .

وقد أدخل محمد علي الى السوق محاصيل لها قيمتها في الاقتصاد العالمي ، منها القطن ، اذ زادت مساحة الاراضي المزروعة بالمحصول ، ونتيجة لذلك زاد انتاج القطن من ١٠٠٠٠ الاف قنطار عام ١٨٢٢م الى نحو ٣٥٠٠٠٠ الف قنطار عام ١٨٤٥م ، كما زادت رقعة الارض المستغلة قطنا من ٥٠٠٠٠ الف فدان في عام ١٨٢٤م الى ٣٢٠٠٠٠ الف فدان في عام (١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م) [٤] ، ولم يقتصر التوسع في الانتاج الزراعي على القطن ، بل شمل محاصيل اخرى كاشجار التوت التي تربى فيها دودة القز وهي المصدر الاساسي لانتاج الحرير ، فبلغت مساحة الاراضي المزروعة بها ٣٠٠٠٠٠ الف فدان في عام ١٨٢٣م ، ووصل عدد الاشجار الى ٣٠٠٠٠٠٠ ملايين شجرة ، كما بلغت كمية الحرير المنتج في السنة نفسها (٦٧٤٨ اقة) الاقة تساوي ١,٣٥ كغم ، مما ادى الى الزيادة في المبالغ المستثمرة في هذا المجال الى مليوني جنيه مصري [٥] .

وبالإضافة الى هذه المحاصيل يأتي محصول النيلة الذي جرى التوسع في زراعته الذي بلغ مجموع انتاجه للمدة من عام ١٨٣١م الى عام ١٨٣٤م ما يقرب من (٣٩٨,٨٥٠ الف كغم) إضافة الى زراعة الزيتون الذي وصلت عدد اشجاره في عهد محمد علي الى ٣١٠ الف شجرة ، كذلك خصص للسكر في عام ١٨٢١م مساحة بلغت ١٦ الف فدان ، كما شجع محمد علي زراعة

---

[١] أحمد عزت عبد الكريم ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، المصدر السابق ، ص٢٤٨ .

[٢] الفدان : وهو الوحدة المساحية المستخدمة لقياس الاراضي في مصر ويساوي (٤٢٠٠ ، ٨٣ متر مربع) : لمزيد من المعلومات ينظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ج٢ ، ص١٢٧٨ .

[٣] جورج كيرك ، موجز تاريخ الشرق الاوسط ، ترجمة : عمر اسكندري ، (القاهرة – ١٩٥٧) ، ص٤٣ .

[٤] القنطار : يساوي ٨١,٢٥ كغم . لمزيد من المعلومات ينظر : فالتر هنتس ، المكاييل والاوزان الاسلامية ، ترجمة : كمال العسلي ، (عمان – ط٢ ١٩٧٠) ، ص٤٢ .

[٥] هيلين ان ريفلين ، المصدر السابق ، ص٢٤٣ .

محصول الافيون ، حيث استعان بعدد من الارمن الذين جلبهم من ازمير ، وبلغ الانتاج في عام ١٨٣٢م ما يقارب ٢٥ الف قنطار ، كما تطورت زراعة محصول الكتان ووصل الانتاج السنوي منه الى ٩٠١,٤٤٥ الف قنطار ، ووصل انتاج التبغ عام ١٨٣٤م الى ١٠٠٠٠٠ الف قنطار ، وبلغ عدد اشجار النخيل عام ١٨٣٣م ما بين ٥ الى ٦ ملايين نخلة [١] .

أما الجانب الثاني من الاقتصاد الذي اهتمت به الدولة فهو الصناعة ، التي تعد عصب الدولة ومصدر قوة لها ، فقد اتجه محمد علي إلى الاهتمام بها وتوسيعها واكثر من اقامة المنشآت الصناعية الجديدة [٢] ، وقد اشار الجبرتي الى ذلك بالقول : " عمل الباشا بمصر اماكن ومصانع لنسيج القطان التي يتخذها الناس في ملابسهم من القطن والحرير وكذلك الجنفص والصندل واحتكر ذلك بأجمعه ، وأبطل دواليب الصناع ومعلميهم ، وأقامهم يشتغلون وينسجون من المناسج التي أحدثها " [٣] .

استفاد محمد علي من التطور الذي شهدته الزراعة ، فتوفرت له المواد الخام ورؤوس الأموال التي تحتاجها الصناعة والتي بلغ حجم المستثمر منها في الصناعة عام ١٨٣٨م ما يقرب من ١٢٠٠٠٠٠٠ مليون استرليني ، كما وفر محمد علي عامل الخبرة باستقدامه لأعداد كبيرة من الأجانب وخاصة من فرنسا ، وأنشأ ديوانا خاصا للاشراف على المصانع ، سماه (ديوان الفابريقات) [٤] ، وفي عام ١٨١٨م أقام عدة مصانع للنسيج ، وجهزها بأحدث الآلات وانفق عليها أموالاً طائلة ، ووصل عدد مصانع النسيج في عام ١٨٣٣م الى ثلاثين مصنعا ، ووصل مقدار ما صنعته هذه المعامل في عام ١٨٣٧م الى ما يقارب من ٦٧٤٥٢٦٩ مليون ثوبا .

كما اهتم محمد علي بصناعات اخرى ، كالحديد والمسابك ، وأقام عدة مصانع خاصة بهذه الصناعة [٥] ، كما وانشأ محمد علي المصانع العسكرية لسد جانب من احتياجات جيشه ، فاقام مجمعاً صناعياً في القاهرة ، ضم اقساماً مختصة بصناعة الورش والذخيرة ، انتجت ما مقداره ١٢٥٨٩ الف طن من البارود ، وبلغ عدد العمال في هذا المجمع ١٥٠٠ عامل .

---

[١] هيلين ان ريفلين ، المصدر السابق ، ص٢٤٦ – ٢٤٨ .

[٢] عمر طوسون ، الصنائع والمدارس الحربية في عهد محمد علي ، مطبعة صلاح الدين الكبرى ، الاسكندرية ، ط٢ ١٩٣٢ ، ص١٧٠٦ .

[٣] عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، ج٤ ، مطبعة بولاق ، القاهرة ، د.ت ، ص١١٩ .

[٤] سؤدد عبد الحسين سبتي الربيعي ، المصدر السابق ، ص٢٤ .

[٥] محمد عمارة ، العروبة في العصر الحديث ، دار الكاتب العربي ، (القاهرة – ١٩٦٧) ، ص٣٦ .

وأضاف مصنعين للأسلحة في القاهرة ، بلغ انتاجها السنوي ٣٦٠٠٠ الف بندقية [١] ، كما واقام مجموعة من المصانع في مدينة الاسكندرية تضم ورشا عدة لصناعة السفن ، وبلغ عدد العاملين فيها نحو ٨٠٠٠ الاف عامل ، كما شجع محمد علي الاستثمار الاجنبي ، وهذا بدوره ادى الى زيادة المنشاة الصناعية التي استثمر فيها الاجانب من ١٦ منشأة عام ١٨٢٢م الى ٤٤ منشأة عام ١٨٣٨م [٢] ، ولم يكتف بصناعة النسيج ، وانما تعدى ذلك لصناعة الاسلحة معتمدا على الايدي العاملة التي جلبها من خارج البلاد ، وبذلك حقق هذا النظام الذي اتبعه محمد علي قفزة نوعية ، إذ اصبحت الصناعة تحقق الاكتفاء الذاتي وتصدر الفائض إلى الخارج ، واخذت عدد المصانع في زيادة مستمرة بالوجهين القبلي والبحري [٣] .

اما الجانب الثالث من الاقتصاد فهو التجارة ، وقد احتلت التجارة النصيب الاكبر من اهتمام محمد علي ، إذ كانت للتنمية الاقتصادية في الزراعة والصناعة أن تكملها سياسة تجارية نشطة ، ترمي إلى (تتجير) الزراعة من ناحية وحماية الصناعة المصرية من ناحية أخرى ، بعد أن أدرك أنّ على الحكومة القيام بعمليات التبادل التجاري مع البلاد الاجنبية ، سواء في مصر أم في الاسواق الاجنبية ، وقد ساعده هذا على نجاح سياسته في ضبط الفلاح والهيمنة على المستغلين ، وكذلك احتكار الصناعات الصغيرة وانشاء صناعات كبيرة ، فاصبح لدى الحكومة كميات كبيرة من المنتجات الزراعية والصناعية قامت بتصريفها داخليا وخارجيا [٤] ، فشرعت قوانين منها إعفاء الصناعات المحلية التي تصدّر إلى الخارج من الرسوم الكمركية ، وذلك تشجيعا للتصدير ، ولم يكن همّ الدولة الاساس من السياسة التجارية الجديدة تحقيق الأرباح فقط ، وانما كان لها من الناحية (القومية) فقد كانت ملحوظة في هذه السياسة التجارية الجديدة ، فقد تجلت في مشروعه الكبير في تكوين الإمبراطورية وتجنب التغلغل الاجنبي [٥] .

وبالرغم من اعتماد محمد علي على العناصر الاجنبية في بعض الامور كالصناعة والتعليم وغيرهما فان هذا الأمر لم يستمر طويلا ، اذ استغنى عن كل هؤلاء بعد عودة طلبة

---

[١] حيدر صبري شاكر سلمان ، الاوضاع الاقتصادية في مصر (١٨٤٠ – ١٨٧٩م) ، دراسة تاريخية ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ، ٢٠٠٢ ، ص٣٥ .

[٢] علي الجرتيلي ، تاريخ الصناعة المصرية في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، دار المصارف ، (مصر – ١٩٥٢م) ، ص٨٢ .

[٣] عمر طوسون ، المصدر السابق ، ص ٦ – ١٧ .

[٤] هيلين آن يفلين ، المصدر السابق ، ص٢٥٤ .

[٥] أحمد عزت عبد الكريم ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، المصدر السابق ، ص٢٥٢ .

البعثات التي أرسلها إلى الخارج ، وهم يعدون النواة الاساسية لعملية النهضة الفكرية والاقتصادية والعسكرية [١] .

ولم تكن قوة المال وحدها دعامة النهضة المصرية في القرن التاسع عشر ، وانما قامت إلى جانبها قوى أخرى لا تقل عنها قوة وخطرا هي قوة العلم ، إذ ادرك محمد علي منذ البداية أن لا قوة للدولة من دون العلم متمثلا في التعليم ، والبعثات ، والصحافة ، والطباعة ، والترجمة ، وما لهذه الفروع من اهمية في النهضة في ذلك العصر [٢] .

أولا : التعليم :

أدى احتياج محمد علي لموظفين إلى انشاء أول نظام تعليمي مدني في دولة اسلامية حديثة ، فعندما تسلم زمام الامور في مصر لم يكن فيها اكثر من مائتين يعرفون القراءة والكتابة ، باستثناء الكتبة من الأقباط ، إذ لم يكن سوى الازهر الشريف وبعض المدارس الملحقة بالمساجد والكتاتيب بالقرى موئلا للعلم ، ولم تكن تتمتع بنظام يصل ما بينها ويجعل منها وحدة تعليمية ولم تخضع لسلطان الحكومة ورقابتها ، على أن الركود الذي ساد مصر في العهد العثماني قد اثّر على الازهر الشريف ، فاقتصرت الدراسة فيه على تلاوة القرآن الكريم وتعليم القراءة والكتابة إلى أن جاء محمد علي فاهتم بتطوير التعليم وتكوين طبقة من المتعلمين لسد احتياجات جيشه ونظامه الإداري الجديد [٣] .

ولعل السبب الاكبر في النجاح الذي حققه محمد علي في هذا المضمار احترامه للازهر الشريف كونه يمثل زعامة العالم الاسلامي في مصر والشرق ، ولكنه إلى جانب عنايته بالازهر للمحافظة على الدراسات الدينية والفقهية واحياء التراث الاسلامي ، كان معنيا بإنشاء المدارس والمؤسسات الحديثة التي تكفل اعداد الرجال التي تحتاج اليهم الحياة المدنية في شتى المجالات [٤] .

---

[١] نقولا زيادة ، الفكر العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الدار الشرقية ، (بيروت ١٩٦٧) ، ص ٨ – ٩ .

[٢] شبل بدران ، التعليم والتحديث – دراسة في تاريخ ونظم التعليم في مصر ، دار الكتب ، (القاهرة–١٩٨٤)، ص٢٢ .

[٣] عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر ١٥١٧ – ١٩٥٢ ، الاسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص٢٤١ .

[٤] محمد فؤاد شكري ، بناء دولة مصر محمد علي ، السياسة الداخلية ، ص ٩٤ .

وقد كان اعتماد محمد علي في تحقيق ما يرمي إليه في رفع المستوى العلمي والثقافي في البلاد على انشاء المدارس ، وايفاد البعثات العلمية والفنية والصناعية إلى اوربا ، وترجمة كتب العلوم والفنون وطبعها ونشرها ، واصدار جريدة الوقائع المصرية ، غير انه وجه الشطر الاكبر من عنايته إلى نشر التعليم بين ابناء العرب تحدوه الرغبة في التفوق بين اعداد ما يتطلبهم العمل في الحكومة ، أي تنوير اذهان المصريين ، وذلك حتى يفسح امامهم طريق الحضارة الحديثة فيسيروا بقدم ثابتة إلى جانب الحضارة الاوربية [١] ، فانشأ الكثير من المدارس الحربية والمدنية مثل : (مدرسة الطب البشري ، والطب البيطري ، والزراعة ، والمهندسخانة ، والالسن وغيرها) ، كما انشأ مدرسة عام ١٨١٦م بالقلعة معدة لتعليم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، واللغة التركية ، والرياضة البدنية ، وفن الحرب واستعمال السلاح وركوب الخيل للطلاب حديثي السن [٢] ، وصدر امر من محمد علي باشا في عام (١٢٣٦هـ /١٨٢٠م) إلى كتخدا بك بتعيين احد القسس لاعطاء دروس في اللغة الايطالية والهندسة لبعض تلاميذها ، وان يخصص له مكان للتدريس في القلعة ، وكان هذا اول امر صدر بتعليم لغات اجنبية بمدرسة تسمى (المهندسخانه) ، وينتخب لها خمسة أو ستة من التلاميذ المتفوقين في الرياضة والرسم من مدرسة القلعة ، ليقوموا بتدريس تلك المواد للذين لهم رغبة في تحصيل هذه الفنون الجميلة [٣] .

وتم انشاء مدرسة الهندسة التي اسسها في القلعة عام (١٢٣٢هـ / ١٨١٦م) لتعليم الطلبة مساحات الاراضي وقياسها ، ويدل هذا العمل على مبلغ ارتباط هذه المدرسة بسياسة محمد علي الخاصة باعادة تنظيم الاراضي الزراعية ، وفي عام (١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م) اسس محمد علي بناءً على اقتراح (كلوت بك) [٤] احد المستشارين في مجال الطب مدرسة الطب لتخريج الاطباء

---

[١] امين سامي باشا ، التعليم في مصر ، القاهرة ، ١٩١٧ ، ص ٧ – ٨ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ٨ .

[٣] عمر عبد العزيز عمر ، دارسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، المصدر السابق ، ص٢٤٢ .

[٤] كلوت بك : وهو انطوان برطلمي كلوت بك ولد في فرنسا في عام ١٧٩٣م من عائلة فقيرة ، اهتم منذ نعومة اظفاره بتشريح الحشرات ودراسة طبائعها ، عمل مساعداً لاحد الاطباء من اصدقاء والده ، فانكب يقرأ كتب الطب والجراحة فاتم دروسه عام ١٨١٧م وعين طبيبا صحيا ، نال شهادة الدكتوراه عام ١٨٢٠م جاء مصر عام ١٨٢٥م فاسس بمشورة محمد علي باشا مجلسا صحيا ، كما اسس المدرسة الطبية عام ١٨٢٨م ، انعم عليه محمد علي باشا برتبة (بك) لدوره في علاج الكوليرا عام ١٨٣٠م ، توفي عام ١٨٦٨م . لمزيد من المعلومات انظر : جورج يانج ، تاريخ مصر من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل ، ترجمة : علي أحمد شكري ، (القاهرة – بلا) ، ص٩٣ – ٩٦ .

المصريين للجيش ، كما لعب المترجمون دورا مهما في نظام التعليم بنقل المحاضرات التي كانت تلقى باللغة الفرنسية إلى العربية وتعريب الكتب الافرنجية في مجال العلوم والآداب .

ويرجع الفضل في انشاء مدرسة الألسن (اللغات) إلى الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (١٢١٦ – ١٢٩٠هـ / ١٨٠١ – ١٨٧٣م) مؤسس نهضة مصر الحديثة في القرن التاسع عشر ، فبعد عودته من فرنسا اقترح على محمد علي انشاء هذه المدرسة ، وتم تنفيذ هذا الاقتراح في عام (١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م) ، وعرفت المدرسة في بادئ الأمر باسم (مدرسة الترجمة) ، وفي العام التالي عهد محمد علي بنظارتها إلى رفاعة الطهطاوي [١] ، وقد درست مدرسة (الألسن) آداب اللغة العربية واللغات الاجنبية لاسيما الفرنسية ، والتركية ، والفارسية ، ثم الايطالية والانجليزية ، وعلوم التاريخ ، والجغرافيا ، والشريعة الإسلامية والشرائع السماوية الاخرى ، ويتضح مما ذكر أن المهمة الثقافية لهذه المدرسة كانت اهم واشمل مما يدل عليه الاسم الذي اختير لها ، لانها كانت اكبر مدرسة لنشر الثقافة في مصر ، وفي عام (١٢٥٧هـ / ١٨٤١م) عهد إلى رفاعة الطهطاوي الاشراف على قلم الترجمة الذي الحق بالمدرسة لتعريب الكثير من الكتب [٢] ، وكان انشاء هذه المدرسة مصحوبا بانشاء مطبعة وجريدة الوقائع المصرية ، وهي اول جريدة عربية صدرت في عام (١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م) ، وكانت المدة ما بين عام (١٨٣٦ – ١٨٤٠م) مدة ازدهار لحركة التعليم ، إذ قامت الحكومة بوضع أسس التعليم الابتدائي على وفق الاساليب الحديثة ، كما تم تحديث المناهج الدراسية ، في ذات الوقت تم تأسيس (ديوان المدارس) عام (١٢٥٢هـ/١٨٣٦م) الذي أصبح في عام (١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م) نظارة المعارف [٣] ، وكان الهيكل التعليمي الذي اقامه محمد علي يتكون من ثلاث اقسام هي :

١. التعليم العالي (الخصوصي) : وانشأ هذا النوع من التعليم عام (١٢٣٢هـ / ١٨١٦م) بفتح مدرسة الهندسة ومدرسة الطب ، وكذلك عام (١٢٤٧هـ / ١٨٣١م) افتتحت مدرسة الكيمياء .

---

[١] عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، المصدر السابق ، ص٢٤٢ .

[٢] هنري دوديل ، محمد علي مؤسس مصر الحديثة ، تعريب : علي شكري و أحمد محمد عبد الخالق بك ، القاهرة ، بلا ، ص ٢٧١ – ٢٧٢ .

[٣] عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، المصدر السابق ، ص٢٤٣ .

٢. التعليم التجهيزي (الثانوي) : كان هذا النوع من التعليم يهدف إلى اعداد التلاميذ وتهيئتهم للدراسة الخصوصي ، ومدة الدراسة اربع سنوات ، واول مدارسه هي : (مدرسة تجهيزية بالقصر العيني) عام (١٢٤٠هـ/١٨٢٥م)[١] .

٣. التعليم الابتدائي : أنشأت هذه المدارس لاول مرة في مصر عام (١٢٤٧هـ / ١٨٣٢م) ، ووصل عدها في مدة ثلاث سنوات إلى (٦٧) مدرسة ، وبذلك ازدادت المدارس ، وازداد عدد الطلبة المتعلمين ، إذ قدر عددهم في احدى السنوات نحو (٩٠٠,٠٠٠) طالب ، كانوا يتلقون العلم مجانا ، فضلا عن الغذاء والتجهيزات ، وقد وجههم محمد علي إلى خدمة الجيش وتطويره ، جاعلا كل الجهد التربوي ينصب على خدمة الاصلاحات العسكرية [٢] .

ثانيا : البعثات :

لقد وجه محمد علي فكره إلى ايفاد البعثات العلمية إلى اوربا ليكمل الشباب المصري دراستهم في معاهدها العلمية والاكاديمية ، وهذه الفكرة تدل على عبقرية محمد علي ، فهو لم يكتف بأن يؤسس المدارس والمعاهد العلمية في مصر لكي يتلقى فيها المصريين العلوم التي تنهض بالمجتمع المصري الذي كان يغط في سباته ، بل اعتزم أن ينقل المعارف الاوربية إلى مصر ، وكذلك ينقل خبرة علمائها ومهندسيها ، وكان يهدف من إرسال البعثات ((تكوين فئة من المصريين المثقفين لا يقلون اهمية عن مثقفي اوربا ، كذلك اراد أن تجد مصر من خريجي هذه البعثات كفايتها من المعلمين في مدارسها العالية ، والقادة والضباط بجيشها ، والقائمين على شؤون ادارة حكومتها ، حتى لا تكون مصر عالة على اوربا من هذه الناحية)) [٣] ، فسعى الى ارسال البعثات الطلابية في المجالات العلمية العسكرية منها والمدنية ، إذ ارسلت اول بعثة علمية عام (١٢٢٨هـ / ١٨١٣م) إلى ايطاليا ، وغلب على هذه البعثة الأولى طابع الفنيين التي كانت المؤسسة العسكرية بحاجة لهم لنقل الفنون الحربية وبناء السفن ، وقد بلغ عدد طلاب هذه البعثة (٢٨) طالبا ، كان من أشهرهم (عثمان نور الدين) الذي أصبح فيما بعد اميرا للأسطول المصري [٤] .

---

[١] جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامي إلى الان ، ج٢ ، (القاهرة – ط٣ ١٩٢٥)، ص١٩٤ .

[٢] اميل فهمي ، التعليم والتحديث–دراسة وثائقية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧، ص ٧٨–٨٢ .

[٣] شبل بدران ، المصدر السابق ، ص٣٩ .

[٤] عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة – ط٣ ١٩٥١) ، ص٤٠٧–٤٠٩ .

أما البعثة التي ارسلت عام (١٢٤١هـ / ١٨٢٦م) فقد ضمت (٤٤) طالبا كانوا متوجهين ليتخصصوا في الادارة ، والحقوق ، والعلوم السياسية ، والفنون الحربية ، والملاحة ، والهندسة ، والطب ، والزراعة ، والري ، والميكانيك وغيرها ، وكانت هذه البعثة تضم أفرادا لهم شأن كبير في نهضة مصر الفكرية ومنهم رفاعة رافع الطهطاوي [١] ، كذلك ارسلت بعثة ثالثة عام (١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م) ، بلغ عدد طلابها (٢٤) طالبا معظمهم تخصص في الهندسة بأنواعها ، اما بعثة عام (١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م) فقد تخصص معظم أفرادها في الصناعات الذين بلغ عددهم (٥٨) طالبا ، أُرسل بعض منهم إلى بريطانيا ، والبعض الآخر إلى فرنسا ، وقسم منهم إلى النمسا ، وبعثة أخرى ضمت (١٢) طبيبا من الطلبة الذين تخرجوا من مدرسة الطب في أبو زعبل ، أما اكبر البعثات في عهد محمد علي فهي بعثة عام (١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م) التي أطلق عليها اسم (بعثة الأنجال) ، إذ أرسل محمد علي باشا بعض أنجاله وأحفاده إلى جانب أكثر من (٧٠) طالبا ، وكانت تضم شخصيات مهمة منهم (علي مبارك) [٢] ، وتألفت هذه البعثة التي سافرت في أكتوبر عام (١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م) أربعة من أمراء بيت محمد علي وهم : ولداه حسين بك ، وحليم بك ، وحفيداه ولدا إبراهيم باشا (احمد بك) و (إسماعيل بك) (الخديوي اسماعيل فيما بعد) ، لذلك سميت (ببعثة الانجال) ، وهي البعثة الثالثة التي ارسلها محمد علي إلى فرنسا ورابع البعثات إلى القارة الاوربية ، وكان شيخ وامام هذه البعثة في الدين العالم اللغوي الشيخ (نصر أبو الوفا) المتوفى عام (١٢٩١هـ / ١٨٧٤م) ، ومدير البعثة اصطفان بك ، ومساعده خليل افندي وهما ارمينيا الاصل ، وقد تعلما تعليما عاليا [٣] .

وأوفد محمد علي بعثة صغيرة عام (١٢٦٤هـ / ١٨٤٧م) إلى فرنسا أيضا من طلبة الازهر الشريف لتلقي علوم الحقوق ، فتعلم هؤلاء جميعا بارشاد (المسيو جومار) وتحت رقابته وعنايته ، وارسل غير هؤلاء بعض التلاميذ إلى بريطانيا وباقي البلاد الاوربية ، ولكن بنسب اقل بكثير مما حازت عليه فرنسا ، وتشير الإحصائيات إلى أن عدد الطلبة الذين اوفدهم محمد علي في بعثات خارجية إلى اوربا من عام (١٢٢٩هـ / ١٨١٣م) إلى عام (١٢٦٤هـ / ١٨٤٧م) بلغ (٣١٩) طالبا منهم (٢٨) طالبا في البعثات الاولى ابتداءً من عام ١٨١٣م إلى عام

---

[١] ذوقان قرقوط ، تطور الفكرية العربية في مصر (١٨٠٥ – ١٩٣٦) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (بيروت – ١٩٧٢) ، ص١٤٢ .

[٢] شبل بدران ، المصدر السابق ، ص٤٢ .

[٣] عمر طوسون ، البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس وسعيد ، (القاهرة – ١٩٣٤) ، ص ٣٧٣ .

١٨٢٥م ، و (٢٨١) طالبا في البعثات الكبرى ابتداءً من عام (١٢٤٠هـ / ١٨٢٦م) ، فيكون بذلك مجموع الطلاب (٣١٩) طالبا وهو عدد كبير اذا ما قيس بدرجة الثقافة التي بلغتها مصر في ذلك الوقت [١] .

وكان محمد علي باشا مهتما بافراد البعثات ويكاتبهم ، وهذا ما يدل على عنايته بالموضوع ، والواقع أن جهوده لم تذهب سدى فقد كان لطلاب هذه البعثات اليد الطولى في نهضة مصر في كافة المجالات العلمية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والفكرية [٢] .

تأسيسا على ما تقدم فان محمد علي كان شديد العناية بكل طلاب البعثات ، وحريصاً على تحصيلهم للعلوم والمعارف الغربية ، لذلك كان يرى أن أول عمل يقومون به بعد عودتهم هو ترجمة ما درسوه من علوم الغرب لان نقل هذه العلوم إلى العربية أو التركية يمكّن الحكومة من السير في إصلاحاتها ، في الوقت الذي كانت الحكومة فيه تحرص على أن يكون لديها اكبر عدد من الكتب المترجمة ، فأوكل إلى هؤلاء الطلاب بعد عودتهم مهمة ترجمة عدد كبير من الكتب بعد ان منعت احد من زيارتهم لكي يتموا عملية الترجمة بسرعة [٣] .

ثالثا : الطباعة والصحافة :

برزت الحاجة للطباعة والصحافة لكي تعكس التطور الذي حدث في الدولة كونهما يعدان من مقتضيات الدولة الحديثة التي أراد بنائها محمد علي ، وهذا ما قاد به إلى انشاء مطبعة بولاق عام (١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م) وهي اول مطبعة في مصر ، إذ كانت الدولة تعتمد على نظام النسخ اليدوي لقوانين الدولة والاوامر الحكومية ، وكان هذا النظام بطيئاً ومتخلفاً فضلا عن عدم كفايته لمقتضيات الدولة الحديثة ، ثم انشأ محمد علي مطابع صغيرة ألحق معظمها بالمدارس ، فقامت بطباعة عشرات الكتب من علوم وفنون مختلفة أكثرها باللغة العربية [٤] .

ويبدو أن التوسع الذي حصل في مصر ومفاصلها الادارية ادى إلى إلحاق بعض المطابع بالدواوين ، وكذلك قامت الدولة باحياء الكثير من المخطوطات القديمة وأعادت طبعها من جديد ، وكذلك بالنسبة للصحافة فقد أنشأت ثلاثة صحف في عهد محمد علي كانت الأولى تسمى

---

[١] عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، المصدر السابق ، ص ٤٧٩ .

[٢] معن زيادة ، معالم على طريق تحديث الفكر العربي ، عالم المعرفة ، العدد ١١٥ ، (الكويت – ١٩٨٧) ، ص١٦٠ .

[٣] شبل بدران ، المصدر السابق ، ص٤٣ .

[٤] أحمد عزت عبد الكريم ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، المصدر السابق ، ص٢٦١ .

(جورنـال الخـديوي) ، والثانيـة (الوقـائع المصـرية) ، والثالثـة (صـحيفة الموتيتـور اجيبيـان) الفرنسية التي تصدر في الإسكندرية [١] .

اما صحيفة الوقائع المصرية فتصدر باللغتين العربية والتركية ، ولكن بعد ذلك صدرت باللغة العربية فقط ، وكان يرأس تحريرها (رفاعة رافع الطهطاوي) الذي ساهم في تطورها فاخذت تتناول موضوعات قوامها الثقافة السياسية ، وتحليل نظام الحكم ، إذ تحمل وجهة نظر محددة ، وهي بذلك تعد صحيفة رأي لا صحيفة خبر [٢] .

ان رفاعة رافع الطهطاوي يمثل تحولا كبيرا في تاريخ الصحافة المصرية ، حيث بجهوده اصبحت صحيفة الوقائع صحيفة عربية محضة ، بعد ان تولى تحريرها عام (١٢٥٧هـ / ١٨٤٢م) ، احدث فيها تغييرات كثيرة ، كان اولها جعل اللغة العربية في الناحية اليمنى لها والتركية في الناحية اليسرى ، ثم عمل على الاستغناء عن ارتين بك الذي كان مشرفا على اخبارها الداخلية ، كما استعان برجال الفكر العربي امثال احمد فارس الشدياق وغيره ، فضلا عن ذلك ان الاخبار المصرية اخذت مكان الصدارة في اخبارها [٣] ، وفي حقيقة الامر ان التطور الذي احدثه رفاعة الطهطاوي على الصحيفة لم يشمل شكلها وانما تطرق الى الموضوعات ذاتها ، حتى كان سببا في انتقال الجريدة من توافه الاخبار والحوادث والافتتاحيات المليئة بالمديح للوالي الى العناية بالشؤون السياسية الهامة للبلاد على الصعيدين الداخلي والخارجي ، حيث اصبحت الوقائع بهذه الخطوات التي خطاها رفاعة الطهطاوي وسيلة واداة رئيسة من ادوات التحديث ، وقادها الى نقلة نوعية جديدة من حيث الاخبار والمواضيع التي تخص الشعب ، ويرجع الفضل الكبير لرفاعة الطهطاوي في انشاء المقال في تاريخ الصحافة العربية للارتقاء بعملية النهوض بالامة [٤] .

رابعا : الترجمة :

لقد اتجهت مصر منذ بداية نهضتها إلى الوصول بأبنائها إلى علوم الغرب ومعارفهم ، وانشأت المدارس المدنية من طبية وعسكرية وهندسية وغيرها وجلبت لذلك الكثير من الاساتذة الاجانب ، وارسلت البعثات ليدرسوا مختلف العلوم في مختلف البلاد ، وكان لانجاح هذه العملية التعليمية من ترجمة الكثير من الكتب الاجنبية إلى اللغة العربية ، لذلك فقد اطلق على عصر

---

[١] جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية ، المصدر السابق ، ص٢٠١ .

[٢] شبل بدران ، المصدر السابق ، ص٣٥ .

[٣] عبد الكريم حسين الشباني ، اتجاهات التحديث عند المفكر العربي رفاعة الطهطاوي ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، ، معهد الدراسات السياسية والدولية ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٨٩م ، ص١٤٩ .

[٤] المصدر نفسه ، ص١٥٠ .

محمد علي بـ (عصر الترجمة والتعريب) ، لانه راى الحاجة إلى ترجمة واسعة لكي تستطيع من نقل التقدم الذي وصلت إليه اوربا [١] .

وقد انشأت مدرسة الالسن في بادئ الامر باسم مدرسة الترجمة ثم غير اسمها فاصبح (مدرسة الالسن) وجعل مقرها في السراي المعروف ببيت الدفتر دارلجي الازبكية ، وقد انشأت هذه المدرسة تحقيقا لاقتراح تقدم به رفاعة لمحمد علي باشا ، ويقول علي مبارك : " ثم عرض – اي رفاعة – للجناب العالي ان في امكانه ان يؤسس مدرسة الالسن يمكن ان ينتفع بها الوطن ويستغني عن الدخيل فاجابه الى ذلك ، ووجه به الى مكاتب الاقاليم لينتخب منها التلاميذ ما يتم به المشروع فاسس المدرسة " [٢] .

اما الاصلاح العسكري فبالرغم من وجود الدواوين والمجالس وتعددها والتي كانت تسمو إلى بلوغ النظام الاداري وتنفيذ السياسة الاصلاحية التي كان محمد علي يرغب بتنفيذها كان موقعه هو القائد الاعلى ومصدر السلطة المركزية للبلاد ، الا انه كان يدرك اهمية الجيش ، وايقن البديهية القائلة أن قيام دولة قوية لا يتم إلا بالجيش القوي المدرب والمسلح باحدث الاسلحة وهو احد عوامل نهضة مصر ، لذا فقد وجه كل قوته وتعزيزاته لتكوين وبناء المؤسسة العسكرية لانها احد وسائل الإصلاح [٣] .

وقد اخطأ محمد علي في بادئ الأمر بالاعتماد على العناصر الاجنبية في بناء الجيش مثل الالبانيين إذ اصيب بخيبة امل ، فقد اظهر هؤلاء عدم قدرتهم على حماية البلاد فضلا عن عدم قدرتهم على القتال مما اضطره في النهاية إلى إخلاء سبيلهم وتسريحهم [٤] ، والاعتماد على ابناء مصر من الفلاحين الذين تسميهم وثائق محمد علي (اولاد العرب) تمييزا لهم عن المصريين أي العناصر الالبانية في البلاد ، إذ أصبح هؤلاء القوة العسكرية الرئيسة في البلاد ، وقد قام محمد علي بإنشاء المدارس العسكرية لكي تخرج الضباط في الجيش ، كذلك إرسال البعثات الحربية إلى خارج البلد ، في ذات الوقت عمل على انشاء مصانع للسلاح لكي تلبي حاجة الجيش [٥] .

---

[١] محمد خلف الله أحمد ، معالم التطور الحديث في اللغة العربية وادابها ، دار احياء الكتب العربية ، (مصر – ١٩٦١) ، ص١١ .

[٢] جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، المصدر السابق ، ص٣٩ .

[٣] عبد العزيز نوار ، تاريخ العرب المعاصر ، دار النهضة العربية ، ج١ ، (بيروت – ١٩٧١) ، ص٨٢ .

[٤] جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ص١٨٢ .

[٥] الياس الايوبي ، محمد علي سيرته واعماله واثاره ، ادارة الهلال بمصر ، ١٩٢٣ ، ص١١٩ .

هكذا تمكن محمد علي من تكوين جيش مدرب على الطريقة الغربية وذلك بالاستعانة بالخبراء الفرنسيين أمثال الكولونيل (سيف) المعروف باسم (سليمان باشا الفرنساوي) لتنظيم الجيش المصري ، اضافة الى المسيو (دي كريزي) في اعادة بناء البحرية المصرية ، وكذلك استقدم محمد علي امهر المهندسين والملاحين لتدريب المصريين على الملاحة وبناء السفن ، وانشأ داراً لبناء السفن في الاسكندرية وهي من اشهر دور بناء السفن بالعالم [١] .

ادرك محمد علي أن هذه النهضة لا يمكن حمايتها الا ضمن النطاق العربي فضم السودان وبلاد الشام والجزيرة العربية ، وكانت اولى نشاطاته الخارجية حين طلب إليه السلطان العثماني بحق التبعية بإخماد الحركة الوهابية في شبة الجزيرة عام (١٢٥٣هـ / ١٨١١م) وتأمين الحجاز ، فعهد بذلك لابنه طوسون ، واناط به قيادة الحملة ، ثم ما لبث أن تولاها بنفسه ، وتم له ما اراد ، ثم زاد بأن ارسل ابنه إبراهيم بحملة أخرى للاستيلاء على نجد ، وقد نجح في دخول عاصمة الوهابيين (الدرعية) ، وقد ادى ذلك بمحمد علي إلى أن يحتك بالمناطق ذات الحساسية بالنسبة لبريطانيا ، الأمر الذي جعلها تضع حدا لتوسع مصر في شبة الجزيرة ، ثم قام بحملة على السودان ، وكانت المكان الاخير للمماليك الفارين إذ راى في وجودهم على حدوده الجنوبية خطرا [٢] ، وكانت الحملة عام (١٢٣٥هـ / ١٨١٩م) ، وكان الدافع الرئيس له هو ضم السودان إلى الدولة الجديدة ، وذلك لانها تمثل العمق السوقي لمصر في افريقيا [٣] .

فكان يطمع في اعادة بناء اسطوله ، ففكر في وضع يده على الشام لانها مصدر الاخشاب التي كان اهلها متذمرين من الحكم العثماني ، وارسلوا إليه يزينون له امر التوسع في بلادهم ، فتعذر محمد علي بحجة ايواء والي عكا للفلاحين الهاربين من مصر ، فبعث ابنه إبراهيم على رأس حملة قوية إلى الشام احرزت عدة انتصارات على القوات العثمانية [٤] .

ادت هذه النهضة التي قادها محمد علي إلى تحالف الغرب لضربها ، ففي عام (١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م) عزم محمد علي على ان يضع حدا لمركزه وكان قد انتهى في ذلك الوقت من اخضاع نجد ودانت شبه جزيرة العرب سياسيا وتجاريا فاعلن عن عزمه على اعلان الاستقلال عن الدولة العثمانية وقال : " لا يمكنني ان ارضى بترك ما شيدته من المنافع والمناطق الحيوية في مصر طوال هذه السنين مما كلفني اموالا طائلة في مجالات عديدة كالصناعة والتعليم والزراعة وغيرها ،

---

[١] لوتسكي ، المصدر السابق ، ص٦٩ .

[٢] أحمد زكريا الشلق ، معالم تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر ، المصدر السابق ، ص٧٠ .

[٣] عبد الرحمن زكي ، التاريخ الحربي لعصر محمد علي ، المصدر السابق ، ص٩٥ .

[٤] أحمد زكريا الشلق ، معالم تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر ، المصدر السابق ، ص٧٢ .

لا يمكنني ترك كل هذا للفناء في يد الباب العالي بعد موتي ، ويصيبني الهلع كلما ذكرت ان ثمرة اتعابي تضيع ومصيرها للفناء وان اولادي واسرتي ستترك بعد موتي تحت رحمة الباب العالي " [١] .

لقي محمد علي في بادئ الامر تشجيعا من الدول الاوربية ولاسيما من بريطانيا وفرنسا ، فقد كانت بريطانيا تطمح الى السيطرة على الشرق الاوسط من اجل اقامة طريق لمواصلاتها الى الهند والشرق الاقصى ، اما فرنسا فكانت المنافس الرئيس لبريطانيا ، تعمل على استمالة محمد علي وتشجيعه عن طريق المساعدات الفنية والعسكرية كتزويده بالسلاح واعارته الضباط لتدريب الجيش والفنيين لتشغيل صناعته ... الخ " [٢] ، وللوقوف بوجه مطامع بريطانيا للسيطرة على طريق الهند وبهذا بينت له المكاسب التي يمكن ان يجنيها عن طريق الاستيلاء على سوريا ودول افريقية (المغرب والجزائر وتونس وليبيا) ، فكانت فرنسا تريد من ذلك ان تستخدم محمد علي للقيام بهذه المهمة نيابة عنها بحيث تستطيع فيما بعد من سلبه اياها ، فلم يقع محمد علي في فخ المغامرة الافريقية ، ولكنه خاض المغامرة السورية التي كانت ضمن حلمه في احتلال عرش آل عثمان في استانبول [٣] .

يتبين لنا مما سبق ان الدول الاوربية كانت تستخدم محمد علي في اضعاف الامبراطورية العثمانية ، فتصبح خاضعة لها وترغمها على التخلي لها عن ممتلكاتها وتمنحها الامتيازات في اراضيها ، ونتيجة لذلك كله اصبح السلطان العثماني مرغما على طلب الحماية من هذه الدول لانقاذه من جيش محمد علي وعقد معاهدة تكرس هذه الحماية ، وفي تلك الاثناء وضعت الدول الاوربية لاسيما بريطانيا وفرنسا بذور سيطرتها على الشرق الاوسط والشمال الافريقي العربي ، ولعبت الارساليات الدينية وقناصل الدول الاوربية في لبنان الذين كانوا يتمتعون بسلطات مطلقة منحها لهم الباب العالي مجبرا دورا كبيرا في تقويض حكم محمد علي وتحريض الاهالي ضده .

وكان الغرض من ذلك منع محمد علي من اعتبار الاراضي التي افتتحها ملكا خاصا به ، لذا وجب حمل الباب العالي مباشرة على منح بريطانيا امتيازات في سوريا تتعلق بالمواصلات عبر

---

[١] محمد رفعت ، تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة ، ج٢ ، المطبعة الاميرية ببولاق ، (القاهرة –ط١ ١٩٣٤) ، ص١٧٤–١٧٥ .

[٢] جوزيف حجار ، اوربا ومصير الشرق العربي (حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية) ، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة ، مراجعة حسن فخر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (بيروت – ١٩٧٦) ، ص٩٦–٩٨ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٣٩ .

القارات والتجارة ، هذا ما يؤكد حقوق السلطان في البلاد ويسهل مشروع استعادة هذه الولاية التي تشكل محورا بين اوربا واسيا [١] .

وفي اواخر عام ١٨٣٨م حاول محمد علي استمالة بريطانيا بان عرض على قنصلها (كامبلي) الفوائد التي تجنيها بريطانيا من وجود مصر في سوريا حيث دخل نقل القنصل حديث الباشا وتلميحاته الى حكومته في ٢٠ كانون الاول " ان حكومتك هذه تقف تجاهي بالرغم من رغبتي ومن جهودي المستمرة لكسب ودها ... لا يسعني الا ان اعتقد ان من مصلحة بريطانيا ان تكون مصر قوية لا تزعجها الاضطرابات لكي تستطيع بريطانيا ان تحافظ على خط اتصال مضمون مع الهند بالنسبة لمشحوناتها ومسافريها ... " [٢] ، ولكن كل هذا الذي عمله محمد علي لم يأتِ نفعا بالنسبة لاوربا ، وهكذا فرضت معاهدة لندن التي عرفت عندئذ بالتحالف ارباعي الموقع في ١٥ تموز في الساعة السادسة بعد الظهر لعام ١٨٤٠م وبهذا فرضت هذه المعاهدة حدودا لسلطة محمد علي في اطار الامبراطورية العثمانية [٣] .

وكانت من نتائج الازمة الدولية التي اثارها النزاع بين محمد علي والسلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩ – ١٩٦١ م) [٤] ، أن فرضت اوربا نفسها على طرفي النزاع وتوصلت إلى تسوية طبقا لمعاهدة لندن في ١٥ تموز عام (١٢٥٦هـ/١٨٤٠م) ، وكانت فحوى هذه المعاهدة تتلخص بجعل حكم مصر وراثيا في اسرة محمد علي أي استقلال مصر الداخلي التام ، وتقضي بارجاع مصر إلى حدودها الاصلية قبل حروبها الاخيرة [٥] .

وبذلك حرمت مصر من حكم جزيرة العرب ، وسوريا ، وكريت ، واقليم ادرنه ، وتخويل محمد علي حكم سوريا الجنوبية مدى حياته ، وفي الوقت نفسه توجب المعاهدة اغراضها باتخاذ العنف والقوة لتنفيذ شروطها في حالة رفض محمد علي لها ، وتقضي أيضا بحماية عرش الدولة العثمانية والدفاع عنها في حالة مهاجمة قوات محمد علي لها [٦] .

---

[١] جوزيف حجار ، المصدر السابق ، ص٩٩ .

[٢] المصدر نفسه ، ص١٠٧ .

[٣] المصدر نفسه ، ص١٩٦ .

[٤] كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص٥٦٣ .

[٥] السيد فرج ، حروب محمد علي ، مطبعة التوكل بالجماميز ، ١٩٩٩ ، ص١٥١ – ١٥٦ .

[٦] محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، الصحوة المصرية في عهد محمد علي ، (القاهرة – ١٩٩٩) ، ص٢٠٥ .

وبحكم المعاهدة اصبح على حكم مصر نجله ابراهيم باشا ، فقد تولى حكم مصر رسميا عام ١٨٤٨م ، لم يستمر في حكمها سوى (احد عشر شهرا) توفي بعدها في (٢ اب ١٨٤٩م) [١] ، فقد قام بمهمات ابيه فاهتم اهتماما كبيرا لتطوير مصر الاقتصادي ، وحاول تحسين عمل جهاز الدولة التي نخرها الفساد ، كما اصلح ميزانية مصر بعد أن ارتبكت من جراء هزيمة عام(١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م) ، وادخل ميزانية منتظمة للدولة ، وفي عام (١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م) وسعت حقوق أصحاب الاراضي واصبح الفلاح قادراً على بيع ارضه .

ويبدو ان جولته الى اوربا عام (١٢٦٢-١٢٦٣هـ / ١٨٤٥ – ١٨٤٦) قد اثرت على توجهاته في بناء مصر ، ففي مجال التعليم كان مختلفاً عن ابيه محمد علي إذ أن سفره إلى اوربا ومشاهداته ادت إلى أن يدخل كل ما رآه من مظاهر الحضارة إلى بلاده فشجع التعليم ولم يكن يرى في التعليم انه مجرد تخريج لزعماء وقادة ، بل كان يراه مختلفا تماما إذ يراه اداة لترقية المجتمع والسير به إلى الأمام ، وان ذلك كله لا يتم إلا بالتفاعل بين المدرسة والمجتمع حتى يأتي عمل المدرسة في انعاش المجتمع وترقيته وتطويره [٢] .

وبعد وفاة إبراهيم باشا تولى السلطة بعده حفيده عباس باشا (١٨٤٩– ١٨٥٤) الذي كان على النقيض من جده [٣] ، وقد عاصر علي مبارك هذه المدة التي تميزت بالجمود ، إذ كان حاكما مستبدا عدواً لكل حركة اصلاح ، ويستند في حكمه على قوتين هما الرهبة والجمود ، فاما الرهبة فهي بث العيون والارصاد لكل الرجال الذين عاونوا جده في اصلاحاته [٤] ، اما الجمود فكانت اولى مظاهره تصفية الكثير من المدارس ، وتسريح تلاميذها ، واغلاق صحيفة (الوقائع المصرية) ، كما طرد الكثير من المثقفين والعلماء إلى الاستانة ، واغلق مدرسة الالسن ، كما نفى رفاعة رافع الطهطاوي إلى السودان ، وعد نفيه كجزءاً من تصفية تجربة محمد علي ، وفي هذا الوقت الذي فعل فيه عباس باشا ما فعل كان علي مبارك مقرباً منه ، فهو صاحب المشروع الذي خفض ميزانية التعليم ، وتقليص المدراس حتى بلغت حد الضمور والذبول [٥] ، كذلك أمر بإيقاف العمل بالقناطر الخيرية ، وتهديم المنجز منها ، وعمل على انشاء (مجالس الاقاليم) وهي أربعة مجالس

---

[١] جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ص٢٠٠ ؛ لوتسكي ، المصدر السابق ، ص١٨٤ .

[٢] أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، المصدر السابق ، ص٤٨ .

[٣] عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ مصر الحديث ١٧٩٨ – ١٩١٤م ، دار الثغر بالاسكندرية ، ١٩٧٢ ، ص١٧١ .

[٤] شبل بدران ، المصدر السابق ، ص٦٥ .

[٥] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، دار المستقبل العربي، (مصر– ط١ ١٩٨٤) ،ص٤٨ .

في مصر وواحدة في الخرطوم هدفها الفصل في الدعاوى تحت ادارة المديرين ، وكذلك تم مد سكة حديد بين الإسكندرية والقاهرة والسويس ١٨٥٣ – ١٨٥٧م [١] .

وقد تولى الحكم بعده سعيد باشا (١٢٧١–١٢٨٠هـ / ١٨٥٤ – ١٨٦٣م) وهو أحد اولاد محمد علي الصغار ، وكان سعيد باشا متميزاً بتفكير حر وميول غربية ، إذ ادرك سعيد باشا متطلبات مصر من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، لذلك قام بحملة من الاصلاحات إذ منع تجارة الرقيق في مصر ، واصدر قانوناً في عام ١٨٥٨م منح فيه الفلاحين الاراضي الخراجية ، كذلك الغيت اعمال السخرة في عهده ، كما حلت الضرائب النقدية بدلا من التسليم العيني ، اضافة الى الغاء نظام الاحتكارات واعطاء حرية تامة للتجارة ، وفي ذات الوقت عمل على إلغاء جملة من القيود التي كانت مفروضة على الجيش عام (١٢٥٧هـ / ١٨٤١م) ، وكذلك حصل على موافقة الباب العالي عام ١٨٥٦م لزيادة عدد الجيش من (١٨ إلى ٣٠ الف شخص) ، كما اضفى على الجيش طابع وطني ، وصار الفلاحون المصريون في عهده يرقون إلى رتبة ضباط [٢] .

ونتيجة اهتمام سعيد باشا بالجيش فقد عهد إلى سليمان باشا الفرنساوي بإنشاء مدرسة لاعداد الضباط في الجيش وهي (المدرسة الحربية) ، وكان رفاعة رافع الطهطاوي ناظرا فيها [٣] ، غير ان ما سجل عليه عداؤه لعلي مبارك ، فأراد التخلص منه فأرسله مع الجيش المصري الذي ذهب يعاون العثمانيين في حرب القرم (١٨٥٣ – ١٨٥٦) ضد القياصرة الروس [٤] .

غير ان اوضاع مصر قد شهدت تغيراً في عهد خلفه اسماعيل باشا (١٨٦٣ – ١٨٧٣م) الذي عاصر علي مبارك حكمه بعد ان شهدت فيها مصر نشاطا واسعا وتطورا ملحوظا في جميع

---

[١] عبد السميع الهراوي ، لغة الادارة العامة في مصر في القرن التاسع عشر ، المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص٣٥٣ .

[٢] لوتسكي ، المصدر السابق ، ص١٩٦ – ١٩٧ .

[٣] جمال الدين الشيال ، رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٣) ، سلسلة نوابغ الفكر ٢٤، دار المعارف بمصر ، (ط–بلا ١٩٥٨) ، ص٤٣ .

[٤] حرب القرم : اندلعت الحرب في ٢٣ تشرين الاول ١٨٥٣ بين كل من روسيا والدولة العثمانية حيث ان روسيا حاولت فرض سيطرتها على الممتلكات العثمانية ، فوقفت الى جانب الدولة العثمانية بريطانيا وفرنسا ودول البلقان ، واجبرت روسيا في نهاية الحرب على اعادة ممتلكات الدولة العثمانية ، وانتهت الحرب في ١٦ كانون الثاني ١٨٥٦ بتوقيع معاهدة باريس ، لمزيد من المعلومات ينظر : عبد العزيز سليمان نوار وعبد المجيد النعنعي ، التاريخ المعاصر اوربا من الثورة الفرنسية الى الحرب العالمية الثانية ، دار النهضة العربية ، (بيروت ٢٠٠٩) ، ص٢٣١ – ٢٤٢ .

جوانب الحياة ، وذلك نتيجة لتأثر اسماعيل باشا بنمط الحياة الغربية ، إذ انه اراد منذ بداية عهده أن يتخذ فرنسا مثلا يقتدى به ، وان يجعل من نفسه نابليونا ثالثا في الشرق العربي [١] .

فبدأت خطواته عام (١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م) بتاليف مجلس نيابي اطلق عليه اسم (مجلس شورى النواب) ، ويتكون من (٧٥) مندوبا ، وكانت مهمته النظر في ميزانية الدولة ، وفي عام (١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م) حصلت مصر على الاستقلال الذاتي المالي فصار من حقها الاقتراض من البنوك الاجنبية ، ثم توجه لاصلاح الجانب القضائي ، فقد امر الخديوي اسماعيل باضفاء صفة الازدواجية على القضاء ، وانشأ المحاكم المختلطة مؤلفة من اجانب ومصريين والذي ساعد مصر من التخلص من الارتباكات المالية والحوادث السياسية ، واما اصلاحاته في الحياة الثقافية فقد اهتم اهتماما كبيرا بالتعليم ، إذ زاد عدد المدارس في عهده من (١٨٥) مدرسة عام ١٨٦٣م إلى (٤٦٨٥) مدرسة في عام ١٨٧٥م [٢] .

وأعاد ديوان المدارس من جديد ، إذ استعان بكبار رجال العلم في ذلك الوقت من امثال رفاعة رافع الطهطاوي ، وعلي مبارك ، الذين كان لهم الاثر المهم في تنظيم التعليم آنذاك ، وكذلك فتح المدارس الاجنبية وتوسع فيها [٣] .

ونتيجة التطور الذي شهدته مصر خلال مدة حكم اسماعيل باشا فقد سجل بروز الصحافة الوطنية منها على سبيل المثال (صحيفة وادي النيل) [٤] ، وكذلك مجلة (روضة المدارس) التي أنشأها على مبارك عام (١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م) ، وأعطى رئاسة تحريرها إلى (رفاعة الطهطاوي) فكان لها أثرها الفكري والتربوي في المجتمع المصري .

بيد ان الذي سجل على عهده هو نظام الامتيازات [٥] الممنوحة للاجانب ، وكانت لهذا النظام جذور قديمة ، إذ كانت الامتيازات غير مقتصرة على الدولة العثمانية وولاياتها فحسب بل

---

[١] شبل بدران ، المصدر السابق ، ص٦٨ .

[٢] الياس الايوبي ، تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل ، المجلد الاول ، دار الكتب المصرية ، (القاهرة – ١٩٢٣) ، ص ١٨٧ – ٢١٢ .

[٣] لوتسكي ، المصدر السابق ، ص ١٩٦ – ١٩٩ .

[٤] فيليب دي طرازي ، تاريخ الصحافة العربية ، ج١ ، المطبعة الادبية ، بيروت ، ١٩١٣ ، ص ٦٩ – ٧٠ .

[٥] الامتيازات Capitulations معاهدات تجارية نظم السلاطين العثمانيين بمقتضاها شؤون التجارة مع الدول العربية ، ولكن عندما ضعفت الدولة العثمانية اصبحت تلك الامتيازات الممنوحة للاجانب بمثابة حقوق مكتسبة ، اما مصر اصبحت عدوانا على السيادة الاهلية ومشاركة للحكومة في سلطتها ، للمزيد ينظر : عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، دار النهضة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٢٥٣ – ٢٥٤ .

بلاد المشرق العربي ، إذ إن المدن التجارية البحرية الواقعة على البحر المتوسط ، كجنوه والبندقية وفلورنسا ومرسيليا وبرشلونة قد حصلت لرعاياها في البلدان الاخرى على بعض الحقوق ، ومن بينها أن يحاكم مواطنوها طبقا لقوانين بلدانهم .

ولمّا كانت مصر من البلدان التجارية بحكم الموقع فقد هاجرت اليها مجاميع من الايطاليين كونوا فيها جالية كبيرة حصلت لها حكومتها على بعض الامتيازات على شكل المنحة (الهبة) من الحاكم أو الوالي ، كان يستردها حين يشاء ، وتجدد عند تولية حاكم جديد ، وقد اكثر محمد علي من استخدام الاجانب بعد أن وفّر لهم الرعاية الامنية ، وضمن لهم حق ممارسة شعائرهم الدينية ، فاخذ عددهم يزداد ، كما سمح لهم بامتلاك العقارات والسكن اينما شاءوا ، إلا أن الوالي احتفظ لنفسه بالسلطات كافة (القضائية ، والتشريعية ، والتنفيذية) ، إذ ادارها بحزم وعناية ، إذ كان الاجانب في عهده لا يجرؤون على التلفظ بالاعفاءات والامتيازات ، ولا التشكي بالقنصليات ومخالفة النظام ، ولم تسبب تلك الجالية أي مشكلة للحكومة المصرية حتى في عهد عباس باشا الذي وضع حداً لنزوح الاجانب إلى مصر [١] .

وعندما تولى سعيد باشا الحكم نشطت الامتيازات بشكل كبير جدا ، وذلك لسياسته المتساهلة مع القناصل الاوربيين ، وبقيت الامتيازات طيلة مدة حكمه ، مما خلف لوريث عرشه تركة غير قليلة من الحقوق والامتيازات التي تمتع بها الاجانب في مصر [٢] ، خاصة في عهد الخديوي اسماعيل التي شكلت منها الامتيازات عبئا ثقيلا عليه ، واثرت فيما بعد بشكل كبير في سياسته الداخلية ، فكانت خطواته الاولى باتجاه وضع حد لتلك الامتيازات منذ عام ١٨٦١م .

واثناء نيابة الخديوي اسماعيل لعمه سعيد باشا في ادارة البلاد حرر منشورا ضم مسودة لائحة تعطيه الحق في القاء القبض على المخالفين من الرعايا الاجانب واستجوابهم ، ولكن مشروعه هذا لم ينفذ بسبب عدم مساندة حكومته له اولا ، ومن ثم قوة نفوذ القناصل الاجانب وتاثيرهم على الحكومة آنذاك ثانيا ، وكونه نائبا على الحكم وليس واليا أصيلا ثالثا [٣] .

---

[١] هادي جبار حسون ، الخديوي اسماعيل ودوره الاداري والسياسي (١٨٦٣ – ١٨٧٩م) ، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة ديالى – كلية التربية ، ٢٠٠٦ ، ص٨٦ .

[٢] أحمد الشناوي واخرون ، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الثامن ، وزارة المعارف ، القاهرة ، بلا ، ص٢٥٥ .

[٣] صالح رمضان محمود ، تاريخ التمثيل القنصلي في مصر (١٨٤٩ – ١٨٧٩م) ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ١١ ، بغداد ، ١٩٧٩ ، ص٢٨٤ .

ويبدو ان الامتيازات حصلت مع ضعف الدولة التي اتسمت بالطابع الهجومي بعد أن كانت دفاعية صرفة ، وبات الجانب الاوربي لا تخيفه سلطة المحاكم القنصلية التي اصبحت تمثل جميع الرعايا الاجانب في مصر ، فكانوا يمثلون سبعة عشر دولة اجنبية، شكلت سبع عشرة محكمة قنصلية مثلت بذلك ضربا من الفوضى القضائية[١] ، ولم تكن مهمة اسماعيل باشا سهلة ، في الوقت الذي اتضحت نوايا الدول الكبرى تجاه الدولة العثمانية عامة ، وتجاه مصر خاصة لاسيما بعد فشل جهود العثمانيين في الغاء نظام الامتيازات أو تخفيفه ، لكن هذا كله لم يثن من همة اسماعيل باشا لوضع حد لهذه التجاوزات العلنية على البلاد ، وفكر في وضع تنظيم شامل للقضاء يشمل المصريين والاجانب على حد سواء [٢] ، فطلب من وزيره الأول نوبار باشا دراسة الامتيازات والمحاكم القنصلية من جوانبها كافة ، وبيان مضارها على سيادة البلاد ، ومنحه اسماعيل باشا الصلاحيات وخوله مفاوضة الدول صاحبة الشأن في التمثيل القنصلي في مصر ، لوضع مشروع انشاء المحاكم المختلطة التي تضمن حقوق السكان المحليين إلى جانب حقوق الرعايا الاجانب [٣] .

واهتم اسماعيل باشا بمعالجة الفوضى القضائية التي حلت في البلاد نتيجة لفقدان الحكومة للسلطة القضائية ، بسبب تنوع جهات القضاء ، فأنشأ اسماعيل باشا مدرسة الحقوق ثم كلية الحقوق لتخريج الكوادر القضائية الكفوءة في مصر [٤] ، بعدها توجه لاصلاح القضاء في البلاد بالغاء المحاكم القنصلية واحلال المحاكم المختلطة محلها ، مما اثار احتجاجا واسعا من الاجانب في مصر [٥] ، ووفقاً لما تقدم فإن العصر الذي عاش فيه علي مبارك قد شهد اوضاعا سياسية واقتصادية واجتماعية القت بضلالها على الحالة الفكرية لمصر انذاك مما خلقت مؤشرا كبيرا على توجهات المفكر علي مبارك ، اذ إن قسماً منها اصبح جزءً مؤثرا من ذلك الوضع وقسما كان اقل تاثيرا حسب توجهات الحاكم السياسي الذي كان بعد محمد علي باشا قد خضع للمؤثر الاجنبي ولتحكمه في بعض الامور بسياسة البلد .

---

[١] جميل خانكي ، المحاكم المختلطة ، مجلة الكتاب ، مج٢ ، ج١ ، دار المعارف للطباعة والنشر ، (القاهرة – ١٩٤٩) ، ص٣٤٢ .

[٢] أحمد عزت عبد الكريم ، مجمل تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية حكم اسماعيل (١٧٩٨ – ١٨٧٩) ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، ص٣٦٧ .

[٣] مجلة المقتطف ، العدد الثالث والعشرون ، الجزء الثاني ، القاهرة ، شباط ١٨٩٩ ، ص١٠٢ .

[٤] رمزي سيف رزق الله ، اثر اسماعيل باشا في الاصلاح القضائي ، اسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص٢٧٤ .

[٥] لوتسكي ، المصدر السابق ، ص١٩٩ .

المبحث الثاني : **علي مبارك مراحل النشأة الاولى وبناء الشخصية الاجتماعية** :

نشأ علي مبارك متأثرا ببيئته وعصره إلى حد كبير ، وقد قدر له أن يلتقي في حياته بأكثر الاتجاهات الفكرية قوة ، وعاش في أكثر من بيئة اجتماعية وثقافية ، وتعرف على أفكار حديثة ، في حين انه كان يعيش في مجتمع محافظ لذا لم يكن غريبا أن يساهم ذلك التأثر في خلق شخصيته المثقفة المتفاعلة مع أحداث عصره وتياراته .

ولد علي مبارك في عام (١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م) في بلدة برنبال – مركز دكرنس – محافظة الدقهلية من أسرة معروفة ، إذ كان إبراهيم الروجي جد علي مبارك الذي استقر في برنبال فقيها من فقهاء الريف المصري ، وحافظاً للقرآن الكريم ، وملما بأمور الدين وأحكامه ، فتولى منصب الإمام والخطيب بمسجد القرية [١] ، كذلك تولى منصب القاضي الذي يوثق عقود الزواج والطلاق ، ويفصل بين الناس بالمنازعات ، وسار على نهجه ابنه سليمان وحفيده مبارك حتى سميت الأسرة بـ (عائلة المشايخ) [٢] ، وعند ولادة علي مبارك كانت عائلة المشايخ هذه في برنبال تضم نحو (مائتي فرد) ، إلى جانب المناصب السابقة الموكلة إليهم يمارسون حرفة الكيل والميزان ، وكان الشيخ مبارك والد مفكرنا الكبير رجلا مهيبا تزين هيبته الجليلة ولونه الأبيض فصاحة لسانه ، وأدب جم ، وآثار ظاهرة للتقوى والصلاح [٣] .

كان لعلي إخوة كثيرون ذكور غير أشقاء وسبع بنات شقيقات ، وقد تعرضت أسرته لظلم النظام السياسي والاجتماعي آنذاك حيث أثقلت كاهلهم الضرائب التي كانت تفرض على الفلاحين مما أدى بهم إلى الهجرة وترك برنبال كي يقيموا في (قرية حمادين) من قرى محافظة الشرقية ، وكان عمره آنذاك ست سنوات [٤] .

دراسته :

كان أبوه الشيخ مبارك عازما على أن يعد ولده (علياً) ليكون فقيها ، فأرسله قبل أن يهاجروا بلدة برنبال إلى شيخ ضرير اسمه (أبو عسر) كي يحفظ القران ، وبعد أن هاجروا من برنبال إلى قرية حمادين ثم بعدها إلى (السماعنه) من المديرية نفسها ، شرع الشيخ مبارك بتعليم ابنه بنفسه إذ لم يجد فقيها سواه ، ثم أرسله إلى فقيه في بلدة (الكردي) قرب برنبال اسمه الشيخ

---

[١] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص ١٦ .

[٢] علي إبراهيم البحراوي ، علي باشا مبارك ، ص٨ .

[٣] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، دار الكتاب العربي ، (القاهرة – ١٩٦٧) ، ص ١٦ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٩ ، المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق ، (مصر – ط١ ١٣٠٥هـ) ، ص٣٨ .

(احمد أبو خضر) كي يحفظ القرآن على يديه ، فكان يقيم عنده طوال أيام الأسبوع ثم يزور أهله في السماعنه يوم الجمعة [١] .

ومكث علي مبارك عامين في مكتب الشيخ أبو خضر حفظ فيهما القرآن (القراءة الأولى والحفظ الأول) ، ويظهر لنا أن العلاقة بين الشيخ أبو خضر وبين علي مبارك لم تكن حسنة إذ كان الشيخ أبو خضر يضربه ويؤذيه فكان علي مبارك يمنع عن نفسه الضرب فيقدم له الهدايا ، ويقول علي مبارك في هذا الصدد : " ومن خوفي منه كنت لا أعود إليه فارغ اليد " [٢] ، وأدت هذه المعاملة الخشنة من قبل الشيخ أبو خضر إلى نفور علي مبارك الذي عزم على عدم العودة إليه ، فكان أبوه يحاول أن يثنيه عن هذا العزم فلم يقدر ، وهنا يقول علي مبارك : " فهمّ بإجباري على الذهاب إلى هذا المعلم فتعاصيت ، ونويت الهروب إن لم يرجع عني " ، ورأى الشيخ مبارك أن يشرف هو بنفسه على تعليم ابنه ، ولكن انصراف الشيخ للعمل والسعي صرف الفتى إلى اللعب والعبث حتى كاد ينسى ما حفظ وتعلم ، فأراد الشيخ مبارك أن يعيد الفتى إلى ذلك الشيخ فأبى وعصى [٣] .

وكان علي مبارك لا يريد أن يكون فقيها إذ كان يرغب في مهنة الكتابة لما رأى ما للكاتب من مكانة في الدولة إذ يعد أحد موظفيها الكبار ، فأعجبه هذا العمل فمارس الكتابة في دوائر الزراعة بجهاز الدولة ، ومنذ ذلك الوقت اخذ يتطلع إلى جهاز الدولة ورجالاته ، وقال عن ذلك : " فقد رغبت أن أكون كاتبا لما للكاتب من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام " [٤] .

أمام إصرار علي مبارك فقد تنازل الشيخ مبارك وأرسله إلى صديق له كان يشغل منصب (كاتب قسم) في بلدة (الاخيوة) [٥] ، ولكن هذا الكاتب لم يكن افضل من سابقيه إذ كان لهذا الكاتب زوجات كثيرة وعيال كثر ، فكان ما يرسله الشيخ مبارك لابنه من نفقات يصرف على تلك العائلة التي تعيش في فقر مدقع ، فكان الفتى يبيت جائعا ، وزاد الوضع سوءاً أن علي مبارك

---

[١] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط١،(بيروت–١٩٧٩)،ص٢١ .

[٢] محمد أحمد خلف الله ، علي مبارك وآثاره ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٧ ، ص ٨ .

[٣] محمود الشرقاوي وعبد الله المشد ، علي مبارك حياته ودعوته وآثاره ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط١ ، ١٩٦٢ ، ص٢٠ .

[٤] صلاح زكي أحمد ، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث ، مطبعة الحضارة العربية ، (ط – بلا) ، ص٤٦–٤٧ .

[٥] الاخيوه : قرية من قرى مركز قاقوس شرقية ، كانت من توابع الصالحية ، ثم اصبحت ناحية قائمة بذاتها عام ٩٣٣هـ / ١٥٢٧م . للمزيد من المعلومات انظر : محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، ص٢٣ .

كان يفتقر إلى التعليم فكان الكاتب يعلمه بالمنزل أمام النساء إذ كان دوره مقتصرا على خدمة الكاتب [١] .

وتسبب هذا الوضع بهروب علي مبارك من هذا الكاتب ، فضاقت على أهله السبل وعرضوا عليه أسماء الفقهاء والكتّاب لكنه رفضهم جميعا ، وبعد جهد بذله أبوه اقتنع بالالتحاق بأحد أصدقائه من (كتبة المساحة) كي يتعلم حرفته ، لكن لم يدم عمله عنده سوى ثلاثة أشهر إذ طرده كاتب المساحة ، لأنه أفشى أسراره [٢] ، وبعدها لم يجد الوالد سبيلا غير أن يتولى تعليم ابنه بنفسه فأخذ يراعي قراءته ، وكذلك استعان به في انجاز المهام الكتابية والحسابية التي كان عليه أن ينهض بها في تحصيل الاموال الاميرية من المزارعين ، ومضى عام على ذلك حتى أخذه أبوه ليعمل مساعدا لكاتب الزراعة في مامورية (أبي كبير [٣]) [٤] .

وهناك راح يزاول عمله الجديد في (تبييض الدفاتر) لقاء وعد براتب شهري ، ولكن لم يحصل على راتبه واقتطع راتبه بنفسه عندما ناب عن الكاتب ، لكن الكاتب أراد الانتقام منه فتآمر عليه وزجه في السجن ، وقضى في السجن عشرين يوما قضاها يبكي حتى رق قلب احد السجانين فناداه وأعطاه بعض النقود ، فأوصل خبر سجنه إلى ابيه ، وكان محمد علي باشا يزور (منية القمح) [٥] فذهب الشيخ مبارك وتقدم بعريضة شرح فيها حال ابنه وما كيد له من مكيدة من قبل الكاتب والمأمور في أبي كبير ، فأمر الوالي بإطلاق سبيله [٦] .

وحدث انه افرج عنه قبل حضور والده ، وذلك لحاجة مامور زراعة القطن بنواحي أبي كبير إلى كاتب يصاحبه ، ويسمى هذا المامور (عنبر افندي) ، وكان لهذا اللقاء بين علي مبارك وعنبر افندي الاثر العظيم في حياة علي مبارك ، فكان فكره يدور حول كيفية وصول هذا

---

[١] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، ص ٢٣ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٢٤ .

[٣] أبي كبير : قرية من قرى مركز كفر صقر ، وهي قرية قديمة كانت قاعدة مركز يحمل اسمها من ١٨٢٨ حتى ١٨٧٥م . للمزيد من المعلومات انظر : محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، ص٢٤ .

[٤] ناجي نجيب ، رحلة علم الدين للشيخ علي مبارك ، مطبعة دار الكلمة العربية ، (بيروت – ط٢ ١٩٨٣) ، ص ١٨ .

[٥] قرية قديمة وهي الان عاصمة مركز منية القمح ، اصبحت مركزا من عام ١٨٧٥م وهي في محافظة الشرقية . انظر : محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .

[٦] محمد عمارة ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(الحبشي) إلى هذا المنصب وان يصبح من حكام البلاد ، وتواصل علي مبارك في معرفة قصته وأسباب صعوده عن طريق خادمه [١] .

وقد اخبره الخادم بأن احد النساء الكبار اشترته وادخلته مدرسة القصر العيني لمّا فتحت من قبل محمد علي باشا ، وكانت هذه المدارس يتعلم فيها الاولاد الخط والحساب واللغة العثمانية وغير ذلك ، وحينها تولدت الرغبة عند علي مبارك في دخول تلك المدارس ليتخلص من التبعية ويؤمّن على حياته ، وما لبث أن هجر عمله الجديد ليبحث عن هذه المدارس ، والتقى بمجموعة من التلاميذ في مكتب (منية العز) وهو (مدرسة تحضيرية) إذ اخبروه أن نجباء المكاتب يدخلون المدارس دون وساطة ، وذلك غاية امله ، وذهب معهم فوجد أن ناظر المدرسة من معارف والده فطلب مرضاة والده ، وبقي في المكتبة خمسة عشر يوما ، وحاول الشيخ مبارك أن يثنيه فلم يرضى وفرّ مرة أخرى وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر سنة ، وهنا يحس على مبارك في مدرسة القصر العيني ويصاب بخيبة امل ، إذ كان نظامها عسكريا قاسيا وطعامها رديئاً ، وقد مرض وأتيحت له فرصة الهرب ولكن لم يهرب لأنه فكر في عقوبة الهروب ، إذ إنهم سيقبضون على أهله فتراجع عن فكرة الهروب [٢] .

وأخذت حياته تأخذ مجرى آخر في مدارس محمد علي ، إذ صادف احد الرعايا وانقذه من تعثره الأول في الدراسة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق وأمضى فيها خمس سنوات [٣] ، درس فيها على يد كل من : طائل افندي ، ومحمد بك أبو سن ، إذ درس الميكانيك والديناميك ، وتركيب الآلات على يد طائل افندي ، ودرس الحساب التفاضل والفلك على يد محمود باشا الفلكي ، وكذلك درس علم الادروليك ، والطبوغرافية ، والثرورزية ، والكيمياء والطبيعة ، والمعادن ، والجيولوجيا ، وحساب الآلات والهندسة الوصفية ، كذلك قطع الأحجار ، وقطع الاخشاب ، والقوسموغرافية (علم هيئة الدنيا) ، ودرس الظل والنظر على يد إبراهيم افندي رمضان ، وسلامة باشا ، وتخرج علي مبارك من مدرسة المهندسخانة عام (١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م) [٤] .

---

[١] ناجي نجيب ، المصدر السابق ، ص ١٩ – ٢٠ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٩ ، ص ٤٠ .

[٣] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص ٣٢ – ٣٣ .

[٤] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، ج١ ، ص ٢٨ – ٢٩ .

علي مبارك وظروف البعثة الدراسية الى فرنسا :

إن التغييرات الكبرى التي أحدثها محمد علي باشا في بناء الدولة عامة ، وفي مؤسسات التعليم الكبرى خاصة نابعة من اطار الاخذ عن الغرب ، وهي قضية طرحت نفسها منذ الحملة الفرنسية وتجلت في المدة التالية بانشاء الكثير من المدارس الحديثة ، وارسال البعثات إلى جانب الاستعانة بالخبرات الاجنبية في عملية التحديث المختلفة في مصر ، ونتيجة لذلك فان علي مبارك هو نتاج تلك التغييرات الكبرى التي شهدتها البلاد تحت حكم محمد علي باشا ، إذ رفض علي مبارك الاستسلام للواقع الذي عاشته أسرته [١] .

واختار محمد علي باشا في عام (١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م) عدداً من التلاميذ المتقدمين في مدرسة المهندسخانة ليتم إرسالهم في بعثة إلى فرنسا ، وهي البعثة التي عرفت باسم (بعثة الأنجال) كما اطلق عليها علي مبارك نفسه ، فقد كانت تضم عدد من أفراد اسرة محمد علي باشا من بينهم اسماعيل باشا (الخديوي إسماعيل) [٢] ، وتعد البعثة التعليمية التي ذهب فيها علي مبارك إلى فرنسا عام ١٨٤٤م صورة من صور المقاومة هذه ، فهي بعثة عسكرية ذهبت لدراسة فنون الحرب في فرنسا التي كانت لها علاقات حسنة مع نظام محمد علي باشا ، وكانت فرنسا فيها بالنسبة لمحمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا بلاد الحرية ومنبع الانوار [٣] .

ويذكر في ذلك علي مبارك : " ورأيت أن سفري مع الانجال مما يزيدني شرفا ورفعة واكتسابا للمعارف ، فصممت على السفر مع اني اعلم أن اهلي فقراء ، ويعود عليهم النفع من راتبي ، وهم منتظرون لذلك ، ولكن رأيتُ الكثير الآجل خيرا من هذا القليل العاجل ... " ، وعاش علي مبارك في فرنسا عامين في ذلك البيت الذي أنشأه محمد علي باشا لأعضاء البعثات ، إذ قام محمد علي باشا بتوفير الكادر التدريسي من المعلمين والضباط والنظار واختارهم من رجال الجهادية الفرنسية لتدريس البعثات التي كانت بعثات عسكرية [٤] .

---

[١] ملف خدمة علي مبارك رقم ٢٩٢١٥ محفظة ١٥٨١ عين ١ دولاب ٦٩ ، نقلا عن علي بركات ، رؤية علي مبارك لتاريخ مصر الاجتماعي ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية في الاهرام ، ١٩٨٢ ، ص ١٠ .

[٢] جمال الدين الشيال ، التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر ، مكتبة النهضة المصرية ، ط١ ، ١٩٥٨ ، ص ١٠٤ .

[٣] عمر طوسون ، البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهد عباس الأول وسعيد ، (الإسكندرية – ١٩٣٤) ، ص ٣٧٢ – ٣٧٣ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص ٤٢ – ٤٣ .

وقد ميز ناظر هذه المدرسة بين اعضاء البعثة وعرف انهم يختلفون في ثقافتهم ، فبعضهم من الطوبجية (المدفعية) ، والسواري (الخيالة) ، والبيادة (المشاة) ، وهؤلاء لا يعرفون إلا التعليم العسكري ، والبعض الآخر من مدرسة المهندسخانة ، وهؤلاء يمتلكون خبرة في العلوم الرياضية ، والبعض الآخر من معلمي الفرنسية بالمدارس المصرية ، وهؤلاء يتقنون اللغة الفرنسية جيدا ، ونتيجة معرفة الناظر لهذه الاختلافات بين اعضاء البعثة فقد فكر في أن يقسمهم إلى قسمين ، يضع العسكريين في قسم ، والمهندسين والمعلمين في قسم آخر [١] .

ومما تجدر الاشارة اليه ان علي مبارك لاقى في ايامه الاولى في باريس محنة كادت أن تقوّض ما بناه كله ، فقد كان فريقٌ من اعضاء البعثة ومن بينهم علي مبارك لا يتقنون شيئا من اللغة الفرنسية ، وكان مدرسوهم يلقون دروسهم كلها بهذه اللغة ، وأمروا من يتقنونها أن يوضح ما يلقى من دروس على من لا يتقنها ، ولكن هؤلاء امتنعوا أن يعلموا ويشرحوا لزملائهم حتى ينفردوا بالتفوق ، وبقي هؤلاء يعانون حتى اضربوا عن الدرس اياما فحبسهم المشرفون وكتبوا الى محمد علي يخبرونه ، فأمر بأن من لم يظهر الطاعة ويمتثل للأوامر توضع بيده القيود ويعود إلى مصر [٢] .

ومما تجدر الاشارة اليه انه قرر أن يتعلم اللغة الفرنسية بنفسه فجاء بكتاب باللغة الفرنسية مخصص للأطفال ، واخذ يحفظ كلمات الفرنسية ويعلم نفسه مفرداته ومعانيه حتى داوم على السهر والمطالعة والحفظ حتى أصبح السهر عادة لازمته بقية حياته [٣] ، كذلك حفظ جزءاً من كتاب التاريخ ، وأسماء الاشكال الهندسية والاصطلاحات كل ذلك بثلاثة شهور ، وكانت العادة أن الامتحان في رأس كل ثلاث شهور ، فكان علي مبارك يتصدر المركز الأول بالامتحان ثم صار بعد ذلك يتبادل هذه الاولية مع زميله حماد بك ، وعلي باشا إبراهيم [٤] .

وحصل علي مبارك على جائزة التفوق الثانية ، التي قدمها له إبراهيم بن محمد علي الذي قدم لباريس لكي يحضر امتحان البعثة هو وقائد الجيش الفرنسي وولي عهد فرنسا ، فنال اعضاء البعثة ثناء الجميع ، ثم دعاهم إبراهيم باشا إلى الطعام ونقل كل ما شاهده وسمعه إلى ابيه في القاهرة ، وكان ذلك في الحادي عشر من مايس عام ١٨٤٦م ، وكانت الجائزة التي قدمها إبراهيم باشا لعلي مبارك عبارة عن كتاب الجغرافية (تقويم البلدان) الذي الفه (مالبطرون) في طبعته

---

[١] محمد أحمد خلف الله ، علي مبارك واثاره ، المصدر السابق ، ص٣١ .

[٢] محمود الشرقاوي و عبد الله المشد ، علي مبارك حياته ودعوته واثاره ، المصدر السابق ، ص ٣٦ – ٣٧ .

[٣] حسين فوزي النجار ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

[٤] محمد أحمد خلف الله ، المصدر السابق ، ص ٣٣ .

الاخيرة مع الاطلس الخاص به ، وكانت الجوائز بحسب أوامر محمد علي مزخرفة وجميلة [١] .

وأخيرا اجتاز علي مبارك الامتحان الذي كان مقرراً لطلاب البعثة بتفوق وكان ترتيبه الثالث ، ونال جائزة في الحفل الذي اقيم لهذه المناسبة في ٣٠ كانون الاول عام (١٢٦٣هـ / ١٨٤٦م) ، واختتم بذلك دراسته في المدرسة المصرية الحربية بباريس [٢] ، وفي الأول من كانون الثاني عام (١٢٦٤هـ / ١٨٤٧م) التحق علي مبارك وزميلاه حماد افندي عبد العاطي ، وعلي إبراهيم بمدرسة الطوبجية والهندسة الحربية في متز ، إذ مُنح كَل واحد منهم رتبة ملازم ثاني فأقاموا في هذه المدرسة سنتين إذ درسوا فيها فن الاستحكامات الثقيلة والخفيفة (وتسمى اليوم بالعلم العسكري (التحصين) ، والعمارات المائية والهوائية عسكرية ومدنية ، والالغام (ويسمى الهندسة العسكرية) ، وفن الحرب (ويسمى عام التعبئة) مع استعادة ما درسه في المدرسة الحربية في باريس [٣] .

وبعد اكمال سنتين في هذه المدرسة التي تسميها بعض المصادر (كلية متز) ادى الجميع الامتحان ونجح علي مبارك وكان ترتيبه في هذه الدفعة الخامس عشر إذ إن عدد الناجحين نحو خمسة وسبعين تلميذاً ، ثلاثة من مصر واثنين وسبعين فرنسياً ، وفي اول عام ١٨٤٩م الحق علي مبارك مع زميليه بآليات الجيش الفرنسي للتدريب والتطبيق ، وذلك لان خطة القائد إبراهيم باشا كما يقول علي مبارك [٤] : " أن تستمر إقامتنا في العسكرية حتى نستوفي فوائدها ثم نسيح في الديار الأورباوية لنشاهد الاعمال ، ونطبق العلم على العمل مع كشف حقائق احوال تلك البلاد وأوضاعها وعاداتها وكان ذلك نعم المقصد " ، ولم يتم هذا المقصد مثل ما اراد له إبراهيم باشا ، إذ توفي إبراهيم باشا في العاشر من تشرين الثاني عام ١٨٤٨م (١٣ ذي الحجة عام ١٢٦٤هـ) ، وتولى حكم مصر عباس باشا الأول في ٢٤ نوفمبر عام ١٨٤٨م (٢٧ ذي الحجة عام ١٢٦٤هـ) ، وأغلقت (المدرسة الحربية المصرية بباريس) ثم صدرت الأوامر باستدعاء علي مبارك وزميليه من مكانهم بآليات الجيش الفرنسي إلى مصر قبل أن يكملوا عام على التحاقهم بهذه الآليات ، فقد عاد إلى ارض الوطن بعد ست سنوات [٥] .

---

[١] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص ٤٤ – ٤٥ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٤٦ .

[٣] محمد أحمد خلف الله ، علي مبارك وآثاره ، المصدر السابق ، ص٣٣ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٤٣ .

[٥] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، ج٩ ، المصدر السابق ، ص ٤٧ .

وقع علي مبارك قبل عودته إلى مصر في مأزق شديد ، فقد أمروا بان يدفع كل منهم ما قد يكون عليه من دين قبل سفره ، ومن عاد إلى مصر وعليه دَين فسيوضع في السجن ، وكان علي مبارك مدينا لبعض أصدقائه من الفرنسيين بستمائة فرنك لا يستطيع وفاءها قبل هذا السفر المفاجئ فطلب من زملائه الميسورين أن يساعدوه ويخرجوه من هذا المأزق فلم يستجيبوا له ، وبقي حائرا إلى أن جاءه في يوم ما صديق فرنسي يدعوه للطعام فرأى حيرته وتغير حالة فلما علم بأمره اخذ يعاينه ويضحك ثم ذهب وعاد له بكيس من المال ، وأخذ عهداً منه بإرجاع المال عندما تتحسن الظروف [١] ، وعاد علي مبارك وزميلاه حماد افندي ، وعلي باشا إبراهيم إلى مصر بعد تولي عباس باشا الحكم ، الذي أمر بعودة طلبة البعثات وإغلاق المدرسة الحربية بباريس ، وبعد عودته من باريس انعم عليه برتبة (اليوزباشي الأول) [٢]، وأسندت إليه مهمة التدريس بمدرسة طرا التي كانت تختلف عن المدارس الموجودة آنذاك ، لقدم إنشائها وكثرة رسوبها حتى جاء وقت لم يكن في الفرقة التي يدرسها علي مبارك سوى تلميذ واحد ، وكان ناظر المدرسة برنستو بك يحث المدرسين على الصبر وبذل الجهد مع التلاميذ الموجودين فيها [٣] ، ويحدثنا علي مبارك عن زواجه فقد تزوج بكريمة معلمه في الرسم بمدرسة أبي زعبل بعد أن مات أبوها وصارت فقيرة فتزوجها لما كان لأبيها من حق التربية والمعروف عليه [٤] ، ثم فكر علي مبارك بزيارة أهله فطلب من الناظر السماح له بذلك فاخبره بان الذي يسافر يقطع نصف راتبه ، واقترح عليه الناظر أن يكلم سليمان باشا الفرنساوي ليأخذه معه في مأمورية لاستكشاف البحيرة والسواحل فحصل على موافقته وسافر في تلك المأمورية [٥] ، وتمكن بعد ذلك من زيارة أهله الذي فارقهم منذ أربعة عشر عاماً فلم يروه ولم يسمعوا أو يعرفوا عنه الخبر اليقين ، فلما فتحت أمه الباب لم تعرفه وكلمها وقال لها : " انا ابنكم علي مبارك " ، فكانت مندهشة لذلك فعانقته ووقعت مغشية عليها من شدة المفاجأة ، ولبث عندهم لمدة يومين ثم سافر إلى دمياط لينظمّ إلى المأمورية التي كُلف بها ، ثم بعد ذلك تفاجأ من خبر أن الخديوي يطلبه في الحال ، فغضب (جاليس بك) لانه سيفقد مهندسا كفوءاً ، وقد كان علي مبارك في حيرة وخوف من طلب الخديوي له إذ يقول علي مبارك : " وداخلني ما لا مزيد عليه من الخوف لما كنت اعلم مما كان يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من

---

[١] محمود الشرقاوي و عبد الله المشد ، علي مبارك حياته ودعوته واثاره ، المصدر السابق ، ص٣٨ .

[٢] وهي رتبة عسكرية بمعنى نقيب ثم اصبحت رائد التي هي رئيس . لمزيد من المعلومات ينظر : عبد الرحمن زكي ، تاريخ جيش مصر ، الانجلو المصرية القاهرة ، ١٩٤٠ ، ص٣٦ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٣٨ – ٣٩ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص ٤٣ .

[٥] علي إبراهيم البحراوي ، علي باشا مبارك ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .

الإيذاء " [١] ، وسافر علي مبارك للقاء الخديوي عباس من دون أن يخبر احداً من إخوته وزوجته ، فكان لقاء الخديوي له لقاءً جميلاً إذ أثنى عليه وأكرمه ، فكان عباس باشا قد اختاره مع زميليه حماد افندي ، وعلي باشا إبراهيم ليكونوا من رجال حاشيته [٢] ، كذلك كلفهم بمهمة امتحان المهندسين الذين كانوا في الريف لان الكثير منهم ليسوا على شيء ، وأمرهم أن يكونوا صادقين معه ، كذلك أراد عباس أن يضع قانونا يقلص فيه عدد المدارس فعهد إلى زميليه فلم يستطيعا أن يجدا قانوناً يحقق رغبة عباس باشا فوضع علي مبارك هذا القانون فأعجب به الخديوي وانعم عليه برتبة (الاميرالاي) [٣] ، فكان علي مبارك من المقربين في عهد الخديوي عباس [٤] .

ويمكن القول أن الخديوي عباس قام بتصفية كل الانجازات التي حققها محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا في الحقل الثقافي والتعليمي ، واما في عهد الخديوي سعيد باشا (١٨٥٤ – ١٨٦٣) فقد شهدت مصر انقلابا ، فالخديوي سعيد يختلف عن الخديوي عباس ، اذ امر سعيد باشا بإعادة رفاعة الطهطاوي ورفاقه من المنفى ، وصار يعتمد عليهم في جميع الأمور ، كما عزل علي مبارك واضطهده بل وأراد التخلص منه فأرسله مع الجيش المصري الذي ذهب يعاون العثمانيين في حرب (القرم) ضد القياصرة الروس [٥] ، ويتضح مما تقدم أن هناك حزبين ، حزب متقدم يتزعمه الطهطاوي اضطهده عباس وقرّبه سعيد ، وآخر محافظ استخدمه عباس وغضب عليه سعيد ، وخلال عصر عباس الأول وسعيد وإسماعيل تولى علي مبارك الكثير من المناصب والأعمال الإدارية والفنية والتربوية ويرتقي في المناصب والرتب العسكرية ، وهو في كل الأحوال يؤمن بالعلوم الوضعية ذلك الإيمان الذي يشكل الخبرة الأساسية في حياة علي مبارك ويقتفي بوجهتها العقلانية [٦] .

ويضع علي مبارك على سبيل المثال اقتراحاته لتقليص مصروفات التعليم وإعادة تنظيمه واختصاره وفقا لرغبة عباس باشا ويدافع عن مشروعه بالقول [٧] : " قلت هذا رأيي فان أحسن مدبره إدارته وأجراه على فهم منه وبصيرة نجح والا فلا ، فان الساعة المضبوطة الدقيقة الصنعة يفسدها

---

[١] الياس الايوبي ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٣ .

[٢] محمود الشرقاوي و عبد الله المشد ، علي مبارك ، المصدر السابق ، ص ٤٢ – ٤٣ .

[٣] وهي رتبة عسكرية وتعني قائد فيلق ومير مختصر أمير الاي (فيلق) . لمزيد من المعلومات ينظر : عبد الرحمن زكي ، تاريخ جيش مصر ، الانجلو المصرية القاهرة ، ١٩٤٠ ، ص٣٥ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ص ٤٣ – ٤٤ .

[٥] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص ٤٢ .

[٦] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص ٤٨ .

[٧] ناجي نجيب ، رحلة علم الدين للشيخ علي مبارك ، المصدر السابق ، ص ٢٣ .

من لا يحسن إدارتها من جاهل أو مفرط ، وتدوم على حالها اذا كانت بيد من يحسن إدارتها فعجب من جرأتي " [١] ، وكذلك موقف عملي آخر يتعلق بقناطر محمد علي وما يهددها من ضرر فيقول هنا : " لا يترك نفع متحقق لضرر متوهم يمكن تداركه " [٢] ، فكان علي مبارك يؤدي كل ما يوكل إليه من أعمال بجهد وإخلاص دون النظر إلى أبعادها السياسية ، فعلى سبيل المثال نيابته عن مصر في تسوية النزاع مع شركة قناة السويس ، وفي تنفيذ ما صدر في هذا الشأن من فتاوى جائرة .

وعاش علي مبارك أوقاتاً من حياته لاسيما في عهد سعيد باشا دون عمل ودون دخل ، وكاد أن يتجه إلى ميدان العمل الحر ، إذ راودته في ذلك الوقت فكرة التحرر من التبعية للعمل الوظيفي إذ يقول : " وصرفت النظر عن الخدمة الأميرية وقام بخاطري أن اعقد شركة مع بعض المهندسين المتقاعدين مثلي على أن نبني بيوتا للبيع والتجارة ، ونستعمل فيها أفكار الهندسة فلم أرَ من يوافقني ، فهممت بالقيام بذلك بنفسي وشرعت في العمل ، وبينما انا في حوالك هذه الأحوال أروم التخلص من تلك الأوحال طرق المرحوم سعيد باشا طارق المنون " [٣] ، وشغل علي مبارك في عهد إسماعيل باشا الكثير من المناصب الإدارية والفنية ، فقد تولى نظارة القناطر الخيرية ، والسكك الحديدية ، وكذلك قام بالإشراف على أعمال الري والصرف ومشروعات التنظيم والإنشاء في العاصمة والإسكندرية ، لكن أشهر انجازاته كما هو معروف كان في مجال التعليم ، وهو في ذلك يعبر عن تجربته الذاتية ، كما يعبر عن مطلب قومي أساسي من مطالب العصر وهو ضرورة تعميم التعليم وإصلاحه ، وتوجهه نحو المنفعة والمصلحة العملية ، وتخليصه من الدائرة المفرغة ، إذ إن ثقافة علي مبارك هي التي جعلته يحدد الغاية على هذا النحو في التعليم [٤] .

وباستقراء حياة علي مبارك نجد انه عاش اكثر من مرحلة سياسية اثرت في حياته في الوقت الذي اهلته بعض تلك المراحل للدراسة في فرنسا واكسبته معرفة علمية اهلته لكي يأخذ دوره الفكري في تاريخ مصر الحديث .

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص ٤٤ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٤٩ .

[٤] محمد أحمد خلف الله ، علي مبارك ، المصدر السابق ، ص ٨٣ .

الفصل الثاني

علي مبارك ومهام العمل الاداري
وواجهات نشاطه الفكري

المبحث الأول : مهام العمل الاداري والوظيفي

المبحث الثاني : واجهات نشاطه الفكري

المبحث الأول : مهام العمل الاداري والوظيفي

في اعقاب عودة علي مبارك في عهد (عباس الأول) بقى بضعة ايام لا يدري هو وزملاؤه ماذا يعملون ، فقد شهد ذلك العهد مرحلة الانكماش في التعليم ، اذ لم ينظر إلى علي مبارك وامثاله نظرة تقدير واستغلال لمواهبهم وكفاءاتهم في النهوض بأعمال يكون من شأنها تقدم التعليم والسير به نحو التطور [١] ، وقد عمل بعد عودته من فرنسا مدرسا في مدرسة (طرا) التي كان برنستو بك ناظرا لها ، وبعد حصول سليمان باشا الفرنساوي على امر من عباس باشا بالتحاق علي مبارك بـ (جاليس بك)، إذ حصل هذا الأمر اثناء زيارة علي مبارك لاهله ، فعرف بالخبر وشكر سليمان باشا الفرنساوي واستأذن للسفر إلى عمله الجديد في استحكامات مدينة الاسكندرية[٢] ، وسافر علي مبارك بالمركب وكان معه زوجته واخ واخت كان يقوم بتربيتهم ، وعندما وصل الاسكندرية توجه إلى جاليس بك وترك اهله في المركب ، فكان من غير الممكن أن تعود هذه المركب بالاسرة إلى القاهرة ثانيا من غير عائلها علي مبارك ، فقد كان علي مبارك يشعر بالخوف من نزوات هذه الاسرة الحاكمة ، فيقص علينا سفرته قائلا [٣] : " سافرت إلى الاسكندرية بعيالي واخ واخت لي صغيرين كنت اربيهما ، فلما وصلت إلى هناك تركتهم في المركب وذهبت إلى جاليس بك فوجدت عنده سليمان باشا الفرنساوي قد سبقني ، وكذا غيره من الامراء والضباط ، فجلست بعد اداء الواجب ، فوردت الاشارة بمكتوب من المرحوم عباس باشا بطلبي حالا ، فادخلني جاليس بك ، وكنت خائفاً من ذلك اللقاء ، فهون عليّ سليمان باشا ، وقال : لعله يريد أن يجعلك معلما لابنه فلا تخف ، وكذلك اخبرني سليمان باشا بأنه سيرسل اهلي إلى مصر ورائي " [٤] .

ويرى الدكتور محمد احمد خلف الله أن سبب استدعاء علي مبارك لا ليجعله معلما لابنه كما كان يعتقد سليمان باشا الفرنساوي ، بل كان يريد أن يزجه في معيته مع زميليه في الدراسة في فرنسا (حماد عبد العاطي ، وعلي باشا إبراهيم) ، وكان اول عمل كلف به هؤلاء الثلاثة هو امتحان مهندسي مصر ، فقد كان عباس باشا معترضاً على النظام الذي اعتمده جده محمد علي باشا في الحكم ، فهو غير مطمئن للقائمين بالاعمال من الموظفين وبحاجة إلى مهندسين ومدرسين [٥] .

---

[١] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، المصدر السابق ، ص٢٥ .

[٢] الياس الايوبي ، من تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٣ .

[٣] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص٤٦ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٤٣ .

[٥] محمد احمد خلف الله ، المصدر السابق ، ص٤١ .

وكان عباس باشا قد سمع كلاما طيبا عن هؤلاء الثلاثة فأحضرهم والحقهم بمعيته وكلفهم بالقيام بما يعهد اليهم من اعمال ، وبدأ بهذا العمل ، ووجه اليهم عباس باشا خطابا قال فيه : " قد جعلتكم في معيتي ، وقد امرت بامتحان مهندسي الأرياف ومعلمي المدارس لان الكثير منهم ليسوا على شيء ، وجعلتكم من ارباب الامتحان " [١] .

ويقول علي مبارك في خططه التوقيفية : " شرط علينا أن لا نتكلم إلا بالصدق ولو على انفسنا ، واذا عثر على أن احد منا كذب في شيء فجزاؤه سلب نعمته والباسه لباس الفلاحين وسلكه في سلكهم ، فحلّفنا على ذلك واحدا واحدا ، فحلفنا وحينئذ انعم علينا برتبة (الصاغفول اغاسي) واعطانا نيشانات الرتبة " [٢] ، ثم سافروا إلى صعيد مصر لينفذوا ما امرهم به عباس باشا من امتحان مهندسي الارياف ومعلمي المدارس ، فبعد أن اتموا مهمتهم على اكمل وجه عادوا إلى مدينة المحروسة ، إذ صدر امر من عباس باشا بان يتوجهوا لاتمام العمل بالقناطر الخيرية [٣] .

مما تجدر الاشارة إليه أن علياً كان اكثر ميلا وابداعا في حقل التعليم من الهندسة ، إذ وجد في التعليم الاداة الرئيسة في اصلاح المجتمع والامة وتقدمها إلى مصاف الدول المتقدمة [٤] ، ورأى عباس باشا في أواخر عام (١٢٦٦هـ / تشرين الاول عام ١٨٥٠م) ضرورة تقليص حجم التعليم وميزانيته ، فطلب من لامبير بك اعداد مشروع يحقق رغبات الخديوي ، فعرض عليه مشروع لترتيب المدارس الملكية ، (المدنية – غير الجهادية [العسكرية]) [٥] ، والرصدخانة وتعني الميزانية بلغت ما يقارب (٢٠٠٠٠) كيس أي ما يعادل (١٠٠٠٠٠) جنية .

واستكثر الخديوي اسماعيل هذا المبلغ وأحال المشروع سرا إلى علي مبارك ، وحماد عبد العاطي ، وعلي إبراهيم ، فلم تتفق آراء هؤلاء الثلاثة على مشروع موحد يحقق رغبات الخديوي ، وقد خشي علي مبارك فوات الاوان وغضب الخديوي عليهم ، فاعد مشروعا عرضه على زميليه فرفضاه ، فاتفق معهم على الاحتفاظ به اذا لم يصلوا إلى مشروع آخر ، وبعد ذلك لم يستطيعوا التوصل إلى مشروع آخر فتقدموا إلى الخديوي بالمشروع الذي اقترحه علي مبارك ، وكان هذا

---

[١] محمود الشرقاوي وعبد الله المشد ، المصدر السابق ، ص٤٣ .

[٢] وهي عبارة عن نصف هلال من الفضة ، ونجمة من الذهب فيها ثلاثة احجار من الماس . وتعني هذه الرتبة ضابط يسار بالجيش المصري . انظر : علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٤٤ .

[٣] محمد احمد خلف الله ، علي مبارك واثاره ، المصدر السابق ، ص٤٣ .

[٤] المصدر نفسه ، ص٤٤ .

[٥] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٧ .

المشروع قد نال استحسان الخديوي ، لان حجم الميزانية في هذا المشروع جاءت محققة لرغبات عباس باشا ، إذ بلغ حجم ميزانيته (١٠٠٠) كيس فقط أي (٥٠٠٠) جنية [١] .

وامر عباس باشا بعقد مجلس من رؤساء الدواوين ، حضره علي مبارك ولامبير بك لبحث المشروع ، واستمرت دراسته ثمانية ايام بعدها نال المشروع استحسان ورضا الجميع ، وأوصوا بمنح واضعه رتبة (اميرالاي) [٢] ، وتكمن اهمية هذا المشروع كما يذكر علي مبارك بانه يمثل ((اساس ذلك احتياجات البلد لا غير ، وان جميع المدارس الملكية تكون في محل واحد ، تحت إدارة ناظر واحد ، وأسقطت الميزانية بالمرة من الترتيب ، لعدم وجود من يقوم بها حق القيام آنذاك من ابناء الوطن – كانت تدار من قبل مهندسين فرنسيين – مع احتياجها إلى كثرة المصروف ، وابديت في الترتيب انه يلزم توجيه جماعة إلى بلاد الفرنج ليتعلموا فنون الرصدخانة ، وبعد قدومهم يصير فتحها وادارتها)) [٣] .

مما قاده الى الدعوة الى ارسال بعثة الى اوربا لدراسة علم الفلك ونظم المراصد اصبح ثلاثة منهم من نوابغ الرجال وهم كل من محمود باشا حمدي الفلكي ، واسماعيل باشا الفلكي ، وحسين بك إبراهيم ، واختار عباس باشا علي مبارك ليكون ناظرا للمدارس (وزيرا للمعارف) ، وقد كان علي مبارك يضع بنفسه وبمعونة المعلمين في المدارس الكتب التي يدرسها التلاميذ ، وكذلك اقام مطبعة كان يشرف بنفسه على طبع هذه الكتب فيها [٤] ، فضلا عن ذلك انه يشرف على التلاميذ وعلى مأكلهم ومشربهم وراحتهم وتعليمهم ، ويقول في هذا الصدد في خططه التوفيقية : " وكنت اباشر ذلك بنفسي حتى اعلم التلميذ كيف يلبس ، وكيف يقرأ ، وكيف يكتب ، وألاحظ المعلم كيف يلقي الدرس ، وكيف يؤدب التلاميذ ، ولا يمضي يوم إلا وادخل عند كل فرقة واتفقد احوالها ، مع التشديد على الضباط والخدمة ، حتى الفراشين في القيام بأعمالهم " [٥] .

تأسيسا على ما تقدم فان علي مبارك استطاع التقرب من الخديوي عباس وذلك من خلال النظام الاقتصادي الذي كان يسعى إليه عباس باشا ، لانه كان يحب الاقتصاد في كل شيء ، إذ وجد ضالته في شخص علي مبارك وزميليه ، وتجلى له ذلك في التقرير الذي قدمه علي مبارك وزميليه في مشروع القناطر الخيرية ، وفي التقرير الذي انفرد به علي مبارك عن التعليم ، وبذلك

---

[١] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، ص٤٨ .

[٢] يعقوب صروف ، أعلام المقتطف ، القسم الأول ، د.ت ، ص١٥٠ – ١٥١ .

[٣] امين سامي ، تقويم النيل ، المجلد الأول ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩١٦ – ١٩٣٦ ، ص٢٩ .

[٤] محمود الشرقاي وعبد الله المشد ، علي مبارك ، المصدر السابق ، ص٤٣ .

[٥] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٤٥ .

ظل علي مبارك ناظرا للهندسة ، وما لحق بها من مدارس إلى أن توفي عباس وتولى امور مصر بعده سعيد [١] ، أما في مدة حكم سعيد باشا ، فلم تكن العلاقة بين علي مبارك وسعيد باشا على وفاق كما كانت في عهد عباس باشا ، فلقد كانت علاقة فاترة احيانا وسيئة أحيانا أخرى ، ووصل حد الفتور بينهما إلى أن أهمل سعيد باشا علي مبارك إهمالا تاما ، وسيئا إلى الحد الذي دفعه إلى أن يفصله من جميع وظائفه بالدولة [٢] .

وكان عهد سعيد باشا بالنسبة لعلي مبارك عهدا بُخس فيه حقه ، وقُلل فيه من شأنه وقدره ، ونُظر إليه على انه من غير المخلصين للحاكم ، ولذا أقصي عن المراكز التي استحق أن يشغلها ، وعن المناصب التي اعد نفسه للانتاج فيها ، ولم يبدأ علي مبارك عمله الكبير الذي يتلخص في اصلاحاته في ميادين التعليم والعمران الهندسي إلا في عهد (اسماعيل) [٣] ، وتم فصل علي مبارك من جميع مناصبه ، وأُلحق بالقوات المسلحة في القرم عام (١٢٧١هـ / ١٨٥٤م) التي كان يقودها احمد باشا المنكلي ، وامر سعيد باشا بالغاء مدرسة (المهندسخانة) ، بعد أن رماها عنده " بعض المفسدين بلسان الحسد والفتنة ، ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة واختلقوا لها معايب لم تكن فيها " [٤] .

ومن هنا نراه يتمثل بهذا البيت من الشعر فيقول :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغضا انه لذميم

ولمّا خرج علي مبارك مع فرقة من الجيش في عام ١٢٧٠هـ (١٨٥٣ – ١٨٥٤م) خرج تلاميذه – قهرا عن ضباطهم – ليودعوه في شخصه الأستاذ القدير ، والوالد الرحيم ، والراعي الذي كان يرعى شؤونهم ، ويشرف على تربيتهم بدقة وإحكام [٥] .

وكانت هذه الرحلة من وجهة نظر علي مبارك ومشاركته في (حرب القرم) رحلة مفيدة له ولها فوائد كثيرة ، وانها بذلك ردت كيد الحاسدين في نحورهم ، إذ انها عصمته من الفصل من الوظائف ، وذلك لان سعيد باشا قد فصل كثيرا من زملائه في الدراسة وفي العمل ، ولاسيما رفيقيه حماد عبد العاطي ، وعلي باشا إبراهيم ، ويقول علي مبارك لو بقيت للحقت بهم ، واكد علي

---

[١] محمد احمد خلف الله ، علي مبارك ، المصدر السابق ، ص٤٥ – ٤٨ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٤٩ .

[٣] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، المصدر السابق ، ص٢٥ .

[٤] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص٤١ – ٤٢ .

[٥] الياس زخوره ، مرآة العصر في تاريخ ورسوم اكابر الرجال بمصر ، الجزء الأول ، (القاهرة – ١٨٩٧) ، ص٩٠ – ٩١ ؛ محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المجلد الأول ، المصدر السابق ، ص٥٦ .

مبارك أن هذه الرحلة قد مكنته من سداد ما عليه من دين لحق به ايام عمله في نظارة المدارس بسبب استصلاح ثلاثمائة من الافدنة التي وهبها له الخديوي عباس ، وبسبب تنظيم بيت له على حسب ما تقتضيه وظيفته ، ويقول علي مبارك : " فلما سافرت تركت راتبي واقتصرت على ما كان يصرف لي من التعيين ، وقد كفاني وقام بجميع لوازمي ، وزاد منه ثلاثمائة جنية مصري حضرت بها إلى مصر " [١] ، فضلا عن ذلك انها اكسبته تعلم اللغة العثمانية وطبيعة المجتمع واستمرت الرحلة سنتين ونصف اقام منها في استانبول أربعة اشهر ، تعلم فيها اللغة ، وكانت كسبا مفيدا له ، ثم ذهب إلى شبه جزيرة القرم فبقى فيها عشرة اشهر ، مارس فيها فنه الحربي ، وكفاءته السياسية إذ كلف بتمثيل الدولة العثمانية في مفاوضة الروس [٢] .

وقد نهض علي مبارك بشؤون المحاورة بين المس كوب والدولة العثمانية ، ثم ذهب بعد ذلك إلى بلاد الاناضول ، إذ اقام هناك ثمانية اشهر ، امضى معظمها في المدينة الجبلية (كموشخانة) [٣] ، إذ اوكل إليه مهمة تحريك القوات من مدينة (حرابزن) على البحر الأسود إلى مدينة ارض روم ، وقد امضى في مهمته هذه مدة طويلة يمارس عمله الشاق في ظروف طبيعية قاسية ، إذ كان وقت الشتاء وشدة البرد والثلج الكثير ، مما سبب ذلك الى مرض بعض الجنود ، فبرزت الحاجة إلى انشاء مستشفى عسكري بجهود الاهالي الذاتية ، ثم بحث عن طبيب فلم يجد فاستعان برجل نشأ في مكة وكانت له خبرة في التمريض ، جعله يجمع خبرات المجتمع في علاج مثل هذه الامراض ، حتى استطاعوا أن يوفروا لمستشفاهم امكانيات النهوض به ، الأمر الذي صار موضع اعجاب وتقدير الكثير من كبار القادة العسكريين والاهالي على السواء [٤] .

وحصل علي مبارك على وثيقة من اهالي المدينة وعلمائها وأمرائها وقعوا عليها مع قاضي المدينة يشهدون بالجهد غير العادي الذي بذله علي مبارك في هذا الميدان ، ومهر هذه الوثيقة بخاتم خالد باشا مامور سوق غريك (العساكر العثمانية) [٥] .

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٤٥ .

[٢] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص٥٧ .

[٣] وتعني (بيت الفضة) لوجود معدن الفضة هناك وهي مدينة عامرة على رأس جبل .

[٤] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص٧٤ .

[٥] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، المصدر السابق ، ص٣٠ – ٣١ ؛ الامير عمر طوسون ، الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم ١٨٥٣ – ١٨٥٦م، (القاهرة–ط١ ١٩٩٣) ، ص١١٤ .

وفي الثالث والعشرين من رجب عام ١٢٧٢هـ الموافق الثلاثين من اذار عام ١٨٥٦م انعقد (مؤتمر باريس) [١] الذي انهى حرب القرم ، فعاد علي مبارك مع القوات المصرية ، فوجد بعد عودته قصصا تحكي عدم الوفاء له ، فهو قد ترك بالقاهرة اخاه وابن اخيه ، كان قد الحقهم بالمدرسة فطردوا منها ، ولم يفِ معه إلا سليمان باشا الفرنساوي الذي ادخلهم مكتبا خاصا كان قد افتتحه في مصر القديمة ، وذلك قبل أن يغرق ابن الاخ في النيل وعمه في الغربة ، ووجد أن الخديوي قد فصل زملاءه فحمد ربه انه سافر إلى ميدان القتال ، فمقاساة الشدائد اخف من رؤية التنكيل وعدم الوفاء ، ومن معاناة البطالة والفصل من الوظائف والمسؤوليات ، لكن الفصل لم يتمهل ، فقد سرح الخديوي الجنود العائدين من الميدان ، وفصل الكثير من الضباط من ضمنهم علي مبارك [٢] .

وقد قاد هذا الأمر علي مبارك للعودة إلى مسقط راسه ، وبينما كان يستعد للسفر واذا بامر يصدر للضباط المفصولين بالحضور إلى القلعة ، وبعد الفرز اعيد إلى الخدمة مع من اعيدوا ، ثم عين معاونا بديوان الجهادية (وزارة الحربية) ، ثم احيل عليه العمل في التحقيقات الخاصة بالمصانع الحربية والجبخانات (مصانع البارود) [٣] ، وشرع وزير الحربية (الفريق اسماعيل باشا) في وضع رسم لبعض المناورات العسكرية فلم يستطع ذلك ، فاستدعى علي مبارك وعهد إليه بعمل الرسم المطلوب ، فقام بالمطلوب خير قيام ، فاخبره الوزير بأنه سيذكره بالخير عند سعيد باشا ، وطلب منه التوقيع تحت الرسم فلم يوافق إلا بعد الحاح ، فلقد عافت نفس علي مبارك من أن يذكر اسمه عند سعيد باشا الذي رأى منه الظلم والغبن ، فاوفى الوزير بوعده عند سعيد باشا فامر بإلحاقه بمستودعي الداخلية [٤] .

واحيلت إلى علي مبارك مهمة وكالة مجلس التجار (المحكمة التجارية) فظل فيها شهرين كان مثالا للنزاهة والامانة ، وكان سلفه في هذا المجلس رجلا من الارمن ، سعى عند سعيد باشا ووشى به ففضله سعيد عليه ، وعاد إلى حياة البطالة مرة أخرى [٥] ، واعتكف بعد فصله من

---

[١] مؤتمر باريس : انعقد هذا المؤتمر في باريس من (٢٥ شباط إلى ٣٠ اذار عام ١٨٥٦م) بين كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا ، والدولة العثمانية ، وفيه اعترفت الدول الاوربية للدولة العثمانية بحقها في السيادة على المضايق واستقلال الدولة العثمانية . للمزيد من المعلومات ينظر : محمد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، (القاهرة – ١٩٧٦) ، ص٢٠٠ .

[٢] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص٥٨ .

[٣] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص٤٩ .

[٤] علي إبراهيم البحراوي ، علي باشا مبارك ، المصدر السابق ، ص٦٦ .

[٥] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٤٧ .

الوظيفة قرابة ثلاثة اشهر ، قضاها في منزله ثم عين مفتشا لهندسة نصف الوجه القبلي ، ثم بعد ذلك استدعاه سعيد باشا ، وعهد اليه بوضع مشروع استحكامات ابي حماد ، وكان الغرض منها تحصين موقع ابي حماد بين فرع رشيد وعيبره اوكو ، لمنع العدو من مهاجمة مصر من هذه الناحية ، ووضع علي مبارك الرسم المطلوب ، وذهب لمقابلة سعيد باشا والامل يملئ نفسه في ان يرتب له امرا بعد ان قضى (٢ – ٣ شهر) بدون راتب [١] ، وحاول علي مبارك تقديم الرسم اليه فلم يستطيع الا بعد ثلاثة اشهر قضاها بلا مرتب ، وقد حاول مقابلته في اكثر من مكان فلم يستطيع ، حتى وقعت عليه عين سعيد باشا في قصره بالجيزة ، فتذكر انه كلفه بعمل شيء ما ، فناداه وسأله عن الرسم فقدمه له ، فنظر اليه الخديوي نظره سريعة وقال له : ((ابقيه حتى نجد وقتا لامعان النظر فيه)) ، وبالفعل لم يجد الخديوي وقتا فائضا عن اهوائه وملذاته الشخصية ولكنه امر براتب لعلي مبارك [٢] .

واصدر الخديوي بعد مدة من الزمن امرا الى (ادهم باشا) [٣] باختيار بعض المعلمين لتعليم الضباط وضباط الصف القراءة والكتابة والحساب الذي استشاره فيه علي مبارك في هذا الأمر ، فعرض نفسه للقيام بهذا العمل فاندهش (ادهم باشا) وعجب وظن انه يهزل وسأله باستنكار قائلا : " أترضى أن تكون معلما لهؤلاء " فرد عليه قائلا : " كيف لا ارغب في انتهاز فرصة تعليم ابناء الوطن وبث فوائد العلوم ، فقد كنا مبتدئين نتعلم الهجاء ، ثم وصلنا إلى ما وصلنا إليه " ، وساعده في ذلك العمل اثنان من المدرسين [٤] .

وتعرض علي مبارك بعد هذه الاحداث إلى الفصل من الوظيفة مرة أخرى الأمر الذي اوقعه في مازق شديد من الناحية المالية ، إذ كان قد تزوج للمرة الثالثة واشترى بيتا وشرع في بناءه وتعميره ، فلما فصل لم يستطع مواجهة هذه الاعباء واثقلته الديون ، فضاق ذرعا بالحياة [٥] ، في ذات الوقت امر سعيد باشا ببيع مهمات مدرسة (المهندسخانة) وادواتها وكتبها ضمن كثير من املاك الدولة التي عدت زائدة عن الحاجة ، فاصيب علي مبارك بالدهشة عندما راى هذه النفائس

---

[١] مجلة المقتطف ، علي باشا مبارك ، الجزء الثالث ، السنة الثامنة عشرة ، (القاهرة – ١٨٩٣) ، ص١٩ .

[٢] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص٥٠ .

[٣] ادهم باشا : هو احد اعضاء اولى البعثات العلمية التي اوفدها محمد علي الى باريس في السنوات بين ١٨٣٤ الى ١٨٤٠ لاعداد كادر وطني محلي يتولى قيادة الحركة العلمية في البلاد . انظر : الياس الايوبي ، تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل باشا ، ج١ ، دار الكتب المصرية ، (القاهرة – ١٩٢٣م) ، ص١٧١ – ١٧٣ .

[٤] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، المصدر السابق ، ص٣٤ .

[٥] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٤٨ .

تباع بالمزاد بابخس الاثمان ، وعز عليه أن يرى كتب (المهندسخانة) التي طبعت اثناء نظارته لها تعرض في السوق ، فدخل إلى المزاد واشترى من هذه الاشياء على قدر ما سمحت له بذلك امواله القليلة ، ولمّا اشتد به الحال فكر بالاشتغال بالتجارة ، واتجر بما اشتراه فربح واستعان بالربح على الانفاق واداء بعض الحقوق ، وظل يتاجر لمدة شهرين [١] .

فكر علي مبارك بعدم قبول أي منصب حكومي يعرض عليه ، فطلب من بعض المتقاعدين من زملائه بتكوين شركة لبناء المنازل ، ولكنه لم يجد من يستجيب لهذا المشروع ، فعزم على القيام به بمفرده ، وبينما هو يتأهب للخروج بمشروعه إلى حيز الوجود اراد عز وجل أن يكون بناؤه في مجال آخر غير بناء المنازل ، اراد له أن يبني النفوس ويربيها ويكوّن النشئ ويقومه ، ويساهم بالاعمال الاصلاحية التي تبني الوطن ، فاستعان به زميلا له كان في (بعثة الانجال) معه لاتمام مشروعاته في ذات الوقت توفي سعيد باشا في عام (١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م) [٢] .

عندما تولى إسماعيل باشا الحكم في مصر بعد سعيد باشا ، عادت لعلي مبارك مكانته كمهندس من كبار مهندسي مصر الذي وثق به واحاطه بالرعاية ، وتجدد بذلك نشاطه وقوي عزمه في خدمة وطنه ، وفي الاسهام بقدر كبير جدا مما اقيم في القرن التاسع عشر من مشاريع ، وما رات مصر من عمران ، وفي كل ذلك اثبت علي مبارك نبوغه ومقدرته وتفوقه واخلاصه العظيم ، ففي ولاية اسماعيل باشا قام علي مبارك بأعظم مشاريعه الهندسية ، وتولى اعظم ما تولى من مناصب الدولة ، ونال اعز مكانه [٣] حيث ان الخديوي اسماعيل كان زميلا لعي مبارك في بعثة الانجال في باريس ، إذ كان الامراء في تلك البعثة معجبين بالنبوغ والخُلق الذي امتاز به علي مبارك ، ومن هذا كله فان اسماعيل مثل علي مبارك تفتح على الحضارة الاوربية ، وتحلى بعقل مستنير ، وهو يتطلع لوصل ما انقطع من تجربة محمد علي وابراهيم باشا في الاستنارة والتقدم والاصلاح ، إذ انه يريد كما قال : " أن يجعل مصر قطعة من اوربا " [٤] .

وتطلبت تحقيق رغبة اسماعيل باشا الاعتماد على الرجال الذين بعث بهم محمد علي ليتعلموا في اوربا ، ويصنعوا بالعلم والعقل مصر الحديثة ويقظة الشرق الجديد ، فضلا إلى ذلك أن اسماعيل باشا قد جرب العيش مضطهدا ، إذ وقع عليه الغبن في عهد عباس الأول ، بعد عودته

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ص٤٨ .

[٢] محمد احمد خلف الله ، علي مبارك واثاره ، المصدر السابق ، ص٦٤ .

[٣] امين سامي ، تقويم النيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، ١٩١٦ – ١٩٣٦ ، ص٤٤٢ .

[٤] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص٦٣ .

من البعثة فسافر إلى الاستانة ، وعمل هناك ونال من السلطان رتبة الباشوية ، ولم يعود إلى مصر إلا في عهد سعيد [١] .

وغني عن البيان أن نهضة كهذه تقتضي بالضرورة أن يستدعي اسماعيل باشا علي مبارك ويلحقه بحاشيته فور توليه الخديوية ، فقد اختاره لوظيفة (مهندس في حاشيته) ، وعهد إليه قيادة مشروعه المعماري العمراني الذي اعاد فيه تنظيم القاهرة على نمط حديث ، بشق الشوارع الواسعة ، وانشاء الميادين ، وادخال الشروط الصحية من حيث النور والتهوية إلى الكثير من الحارات والدروب التي قامت في العصور الوسطى لدرء خطر اللصوص ولدواعي امنية ضد اللصوص والمماليك [٢] ، واصدر الخديوي في (٢٣ محرم عام ١٢٨٠هـ / ١٠ تموز عام ١٨٦٣م) أمرا إلى ناظر الجهادية بتعيين علي مبارك ناظرا للقناطر الخيرية مع بقاء الاشغال الموجودة بيده والمتعلقة ببعض التنظيمات للعاصمة في عهدته لتسويتها واتمامها ، اما القناطر الخيرية فقد كانت تعاني مشاكل فنية وعملية ادت إلى احتجاب المياه اللازمة لري الاراضي الواقعة على الفرع الشرقي من فرعي النيل [٣] .

وأعطيت لعلي مبارك في هذا الأمر صلاحيات مطلقة يمارسها مع فريق العمل الذي كونه لانجاز هذا العمل ، فقد فرز عهده القناطر ، وفصل من يرى فصله من العاملين بها ، وتعيين وانتخاب رجال امناء بدل عنهم ، وكذلك انزل المدافع الموجودة هناك من على قواعدها ، واجراء الترميمات اللازمة لها [٤] ، فضلا عن ذلك عهد اليه امر المهندسين المستخدمين الموجودين في هذه القناطر ، واستخدام اللازم منهم وفصل الذين يتحقق عدم لزومهم ، فكان اول مهندس مصري يتولى نظارة هذا المرفق الحيوي الذي ظل بيد المهندسين الفرنسيين منذ انشائه حتى ذلك التاريخ [٥] ، في ذات الوقت عمل على تقديم دراسة لمعالجة مشاكل القناطر وقدم لها الحلول ، فوافق الخديوي عليها ، وبذلك تدفقت المياه إلى فرع النيل الشرقي لتحيي ارضه وزراعته ولاسيما في زمن الصيف ، فحصل من ذلك على مكافئة من الخديوي ، إذ انعم عليه في (٩ ذي القعدة عام ١٢٨٠هـ / ١٦ نيسان ١٨٦٤م) بثلاثمائة فدان بوصفه ناظر القناطر الخيرية ، وكذلك انشات الحكومة قلم للهندسة واوكلت نظارته إلى علي مبارك ثم بعد ذلك صدر امر من الخديوي إلى ديوان

---

[١] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، ص٦٣ .

[٢] محمود الشرقاوي وعبد الله المشد ، علي مبارك حياته ودعوته واثاره ، المصدر السابق ، ص ٥٧ – ٥٨ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٥٨ .

[٤] امين سامي ، تقويم النيل ، المصدر السابق ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، ص٥٠٢ .

[٥] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص٦٨ .

الاشغال العمومية في (رجب عام ١٢٨١هـ / ٢٦ كانون الاول عام ١٨٦٤م) [١] بتاليف هيئة هذا الديوان من سبعة كان ثانيهم علي مبارك ، اما ناظر الديوان فهو (نوبار باشا) ووكيله (مظهر باشا) ، إذ قام هذا الديوان بمفاوضة الشركة الاوربية التي ادخلت الانارة إلى القاهرة (انشاء معمل التنوير بالغاز) ، وكان ممثل الحكومة في هذه المفاوضات علي مبارك فتم توقيع العقد مع الشركة في (٢ رمضان عام ١٢٨١هـ / ١٥ شباط عام ١٨٦٥م) [٢] .

اما فيما يخص النزاع الذي حدث بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس عن الاراضي التي طلبت الحكومة من المساحة الممنوحة للشركة في عقد الامتياز باسترجاعها اتفق بناءً على مقترحات امبراطور فرنسا على تكوين هيئة (قومسيون) لبحث موضوع النزاع ووضع صيغة للاتفاق ، وتألف القومسيون من ممثلين عن مصر وفرنسا والدولة العثمانية وشركة قناة السويس ، وكان علي مبارك ممثل مصر في هذا القومسيون ، فانجز مهمته وعقد الاتفاق عن موضوع النزاع في (١٢ رمضان عام ١٢٨٢هـ / ٣٠ كانون الثاني عام ١٨٦٦م) ، إذ منح الخديوي علي مبارك رتبة المتمايز ، والنيشان المجيدي من الدرجة الثالثة ، كما منحه الامبراطور الفرنسي نيشان (اوفسيه ليجيون دونور) [٣] .

واصبحت اعمال علي مبارك في القومسيون كثيرة بحيث شغلت معظم وقته وابعدته عن مكان القناطر الخيرية ، فقد اصدر الخديوي امرا إلى ناظر الجهادية باعفاءه من نظارة القناطر وذلك في (٢٤ شعبان عام ١٢٨٢هـ / ١٢ تشرين الثاني عام ١٨٦٦م) مع احتفاظه بوظيفته (مهندس في حاشيته) ، وتم اختيار المهندس (اسماعيل افندي) لنظارة القناطر ، ولكن الأمر لم يستمر طويلا ، إذ رد الخديوي نظارة القناطر إلى علي مبارك في (٢٠ صفر عام ١٢٨٣هـ / ٤ تموز عام ١٨٦٦م) ، إذ صدر امر الخديوي (بإقالة اسماعيل افندي مهندس القناطر الخيرية ، واحالة هذه المأمورية إلى علي مبارك بك علاوة على مأموريته) في معية الخديوي [٤] .

وفي عام (١٣ جمادي الآخر عام ١٢٨٤هـ / ١٢ تشرين الاول عام ١٨٦٧م) أضيف إلى مناصب علي مبارك منصب آخر ، إذ اوكل إليه منصب وكيل ديوان المدارس الذي كان برئاسة (شريف باشا) ، وقد حدد الخديوي ملاحظة المكاتب الاميرية والاهلية في القطر واصلاح امرها مجالا لعلي مبارك في هذا الديوان ، وبذلك فقد عاد المعلم مرة أخرى إلى مجال التعليم ،

---

[١] مجلة المقتطف ، علي باشا مبارك ، الجزء الرابع ، السنة الثامنة عشرة ، (القاهرة – ١٨٩٣) ، ص٣٠ – ٣١.

[٢] امين سامي ، تقويم النيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، ملحق عام ١٢٨١هـ ، عقب ص ٦٠٧ .

[٣] المصدر نفسه ، ص (أ) ملحق عام ١٢٨١هـ ، (عقب ص٦٠٧) .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٩ ، المصدر السابق ، ص٤٩ – ٥١ .

كذلك وضع لائحة المدارس التي اقرها القومسيون الذي الفه الخديوي لذلك ، ثم بعد ذلك أصبح رئيسا لديوان المدارس أي (وزير للمعارف) في (١٠ رجب عام ١٢٨٤هـ / ٧ تشرين الثاني عام ١٨٦٧م) [١] ، بعدها انتدبه الخديوي إسماعيل للسفر إلى باريس في مسألة (تخص المالية) ، وكانت سفرة مفيدة له إذ يقول عنها : " اغتنمت فيها فرصة الاطلاع على ما بهذه المدينة وقتئذ من المدارس والمكاتب الجمة ، واستحوذت على فهارس تعليماتهم والاطلاع على كتبهم المطبوعة هناك ، وتفرجت على مجاريها العمومية " [٢] ، ثم اوكل اليه منصب ديوان الاشغال في (٢٢ ذي الحجة عام ١٢٨٤هـ / ١٥ نيسان عام ١٨٦٨م) ، وفي الرابع عشر من نيسان عام ١٨٦٨م اعفي من ادارة المدارس الحربية ثم من نظارة الجهادية ، وتفرغ لادارة المدارس الملكية (المدنية) بعد فصلها عن المدارس الحربية [٣] ، وأضيفت لعلي مبارك في (٢٤ جماد الآخر عام ١٢٨٥هـ / ١٢ تشرين الاول عام ١٨٦٨م) مسؤولية جديدة هي مأمورية إدارة (مصلحة المرور) (السكك الحديدية) ، ونظرا لثقل المسؤوليات الموكلة إليه، فقد عين له الخديوي وكلاء لمعاونته ، إذ عين وكيلا للأشغال العمومية ، وآخر للمدارس ، وثالثا للسكك الحديد .

تلك الاعمال قادت الخديوي الى منحه برتبة (الميرميران) الرفيعة ، في ١٢ تشرين الاول عام ١٨٦٨م ، كما أضيفت إليه مسؤولية نظارة عموم الاوقات في (١١ شوال عام ١٢٨٥هـ / ١٢ تشرين الاول عام ١٨٦٨م) ، ولقد استعان على إدارة هذه المسؤوليات الكثيرة ، بالنظام والتنظيم ، كذلك جمع مقار الدواوين المتفرقة في مبنى واحد (سراي درب الجماميز) ، إذ قام بتوزيع وقته ، من الصباح إلى الظهر بين هذه الدواوين ، ومن بعد الظهر إلى الغروب في إدارة السكة الحديد [٤] ، أما فيما يخص التعليم فقد عنى علي مبارك به عناية بالغة ، نتيجة لما عاناه من تخلف التعليم بالريف وفساده وندرته ، فالتفت إلى هذا المرفق الحيوي ، فوضع لائحة لتنظيم المكاتب الأهلية وتطويرها ، حتى تصبح على نسق المدارس المنتظمة ، ولنجاح مشروعه هذا فقد أشرك فيه جماعة من أعلام (العلماء والاعيان والنبهاء) ، فنظروا فيه واستحسنوه وصدر بذلك الأمر الخديوي بالعمل به ، وبذلك انشأت لهذه اللائحة المكاتب الجديدة في العاصمة والاسكندرية والمدن الكبرى ، فانشأ اول مكتب لتعليم البنات في حي (الغربية) عام ١٨٧٢م ، واخر في (السيوفية) ، كما انشات لديوان المدارس مطبعة حروف ، واخرى حجر ، لطبع الكتب المدرسية

---

[١] امين سامي ، تقويم النيل ، المصدر السابق ، ص ٧٢٢ – ٧٢٦ .

[٢] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص٦٢ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص ٥٠ – ٥١ .

[٤] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص٦٧ .

والخرائط والخطوط والرسوم [١] ، مما تجدر الاشارة اليه هو أن علي مبارك استطاع اكتشاف مؤامرة لقتل الخديوي اسماعيل ، إذ اكتشف قنبلة تحت المقعد الخاص بالخديوي اسماعيل في دار (التياترو) المصري (المسرح) ، فاتجهت الشبهات إلى بعض الرعايا الاجانب ولاسيما اليونانيين ، فانعقد لذلك (قوميسون مخصوص) من ممثلي الدول التي حامت حولها الشبهات ، وكان يرأس هذا القومسيون علي مبارك ، وبعد التدقيق قرر القومسيون الذي اجتمع من (١ حتى ٨ ايار عام ١٨٦٩م) نفي (ميناس) ناظر التياترو ، واثنين من الايطاليين هما : (زوزوف فاريوتي) و (واريتوز اناس) [٢] .

واعتمد الخديوي اسماعيل على علي مبارك في مسألة العقد المبرم بين علي مبارك ممثل الحكومة (الاشغال) ، وبين المسيو (جانجيه) وكيل شركة فيواليل لبناء كوبري قصر النيل بمبلغ (٢,٧٥٠,٠٠٠) فرنك ، وذلك في تاريخ (٢٧ محرم عام ١٢٨٦هـ / ٩ ايار عام ١٨٦٩م) وبعدها تم نقل مسؤولية نظارة الاشغال العمومية منه إلى (لينان بك) ، لكن الأمر لم يستمر طويلا ، ففي (١٩ ربيع الثاني عام ١٢٨٦هـ / ٢٩ تموز عام ١٨٦٩م) [٣] ، قرر الخديوي احالة النظارة المذكورة إلى علي مبارك كما كانت قبلا وادارتها بواسطته ، ثم اصدر الخديوي أمرا له بـ (ناظر الاشغال العمومية والاوقاف والمدارس) اكد فيه : " اننا قد استحسنا احالة مامورية الاشغال العمومية إلى عهدتكم كما كانت من قبل ... فيجب أن تظهروا الهمة والغيرة في رؤية وتسوية امور المامورية المذكورة وحسن ادارتها بمقتضى اهليتكم ودرايتكم المعلومة والمجربة " [٤] ، بعدها قرر الخديوي فصل ادارة السكك الحديد عن مسؤوليات علي مبارك ، واسنادها إلى عمر لطفي باشا ، اعقبها صدور امر في (٢٠ جمادي الاولى عام ١٢٨٦هـ / ٢٨ اب عام ١٨٦٩م) باعتماد المبالغ اللازمة لتنفيذ مشروع علي مبارك الخاص بطبع خريطة السودان في باريس [٥] ، اما فيما يخص نظارة الاشغال فكانت بين مد وجزر ، إذ كانت تعطى نظارتها إليه تارة ، وتؤخذ منه في تارة اخرى ، فعقب التاريخ السابق الذكر قد اخذت نظارة الاشغال منه ، وفي (٦ شوال

---

[١] احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في مصر (عصر اسماعيل) ، مطبعة مصر ، ١٩٤٥ ، ص٤٣ .

[٢] مجلة الوقائع المصرية ، العدد ٢٩٤ ، في ١٣ ايار ١٨٦٩م ، جاء في المقال : " أن اجتماع القومسيون كان في المدة من ٨ إلى ١١ ايلول ، ونعتقد انه خطأ ، لان الحادث وقع في نيسان فلا يعقل أن يكون الاجتماع في ايلول ! " ، نقلا عن امين سامي ، تقويم النيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، المصدر السابق ، ص ٨١٣ – ٨١٥ .

[٣] مجلة الوقائع المصرية ، المصدر السابق ، ص ٨١٣ – ٨١٥ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص ٥٠ – ٥١ .

[٥] المصدر نفسه ، ص٥٢ .

عام ١٢٨٦هـ / ٩ تشرين الثاني عام ١٨٧٠م) عادت اليه منظمة إلى الاوقاف والمدارس إلى علي مبارك [١] ، وتكمن أسباب تخلي علي مبارك في ذلك الوقت عن الاشغال ، لكثرة مهامه الرسمية ولاسيما بالإعداد للاحتفال العالمي الذي اقامته مصر في (شعبان عام ١٢٨٦هـ / تشرين الثاني عام ١٨٦٩م) بمناسبة افتتاح قناة السويس [٢] ، إذ اسند إليه الخديوي هذه المهمة ، وقد انجزها بنجاح كبير حتى انعم عليه الخديوي بالنيشان المجيدي من الطبقة الاولى ، كما منحه امبراطور النمسا نيشان (غرانقوردون) ، وامبراطور فرنسا فقد منحه نيشان (كماندور) ، والدولة الروسية فاهدت إليه نيشان (غرانقوردون) ، وذلك اكراما له لما قام به من جعل مصر وجه مشرق ومشرف امام ضيوفها في هذا المهرجان [٣] .

وقد ظهرت الادارة الحسنة من قبل علي مبارك بالنسبة لمصلحة السكك الحديدية ، فزادت ايراداتها ، مما ادى بالخديوي إلى اصدار امر بمكافأته في (٢٠ محرم عام ١٢٨٧هـ / ٢٢ نيسان عام ١٨٧٠م) قائلا له : " حيث صرنا ممنونين من مساعدتكم الجميلة ، خصوصا في اصلاح ادارة السكك الحديد ، حتى ظهرت مزايا ذلك الاصلاح بتكثير الايرادات والارباح ، فقد احسنا اليكم بمبلغ ثلاثة الاف جنية تأخذونه من ايرادات السكك الحديد " [٤] .

ويبدو أن هذه الزيادة في ايرادات السكك الحديدية قد اغرت ناظر المالية (اسماعيل صديق باشا) [٥] الذي كان الرجل الثاني في الدولة بعد الخديوي من حيث نفوذه ، بان يضم ايراداتها إلى ديوان المالية على أن تظل ادارتها بيد علي مبارك ، إلا أن علي مبارك رفض ذلك وطلب أن تكون الايرادات تابعة لمن تتبعه الادارة ، ونتيجة لذلك استخدم اسماعيل صديق نفوذه لدى الخديوي ضد علي مبارك ، فبدات حركة عزل علي مبارك من مناصبه بالتدريج ، حتى جرد منها وعاد إلى بيته عاطلا [٦] .

ويمكن أن يعزى عزل وتجريد علي مبارك من مناصبه إلى سببين هما :

---

[١] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص٦٢ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٦٣ .

[٣] محمود الشرقاوي وعبد الله المشد ، علي مبارك حياه ودعوته واثاره ، المصدر السابق ، ص٦٠ .

[٤] امين سامي ، تقويم النيل ، المصدر السابق ، ص٨٦٠ .

[٥] محمد احمد خلف الله ، علي مبارك واثاره ، المصدر السابق ، ص٧١ .

[٦] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٧١ – ٧٢ .

اولا : أن تصاعد الغضب الذي ادى إلى عزل علي مبارك من مناصبه حدث في وقت كان الخديوي اسماعيل مسافرا للسياحة في الاستانة ، وكانت زمام الامور بيد ولي العهد الامير محمد توفيق (الخديوي توفيق فيما بعد) تحت الهيمنة المطلقة لاسماعيل صديق .

ثانيا : لقد ظل لعلي مبارك منصب واحد ، وهو عضوية المجلس الخصوصي ، إذ لم يكن يمارس من خلاله أي نشاط ، مما حدا بعلي مبارك إلى الاعتكاف في منزله لمدة شهرين بعيدا عن السلطة [١] .

ويبدو أن موجه الغضب والعزل ضد علي مبارك قد شهدت انحسارا في (١٠ ذي الحجة عام ١٢٨٧هـ / ٣ اذار عام ١٨٧١م) ، إذ اصدر الخديوي إلى ناظر المالية بتعيين علي مبارك مديرا لعموم المكاتب الاهلية [٢] ، وفي (١٣ ايار من السنة ذاتها) عادت إليه نظارة المدارس ، وفي (١٥ ايار أيضا) اعيدت إليه نظارة الاوقاف ، وكذلك اعيدت إليه نظارة الاشغال بتاريخ (١١ ربيع الثاني عام ١٢٨٨هـ / ٣٠ حزيران ١٨٧١م) ، وبعد ما يقارب عام من هذا التاريخ أي في (١٤ ربيع الأول عام ١٢٨٩هـ / ٢٢ ايار عام ١٨٧٢م) اعيدت إليه الاوقاف ، فاصبح ناظرا لها ، علاوة على نظارته لديوان المدارس [٣] .

وفيما يخص المجلس الخصوصي فتشير معظم المصادر إلى أن مناصب علي مبارك قد وقفت عند عضويته للمجلس الخصوصي ، وذلك عام ١٨٧٥م الذي كان بمثابة الحكومة الاستشارية للخديوي ، والهيئة المتضامنة ، والمسؤول كل عضو فيها ، على حدة امام الخديوي ، إذ نجد احيانا اوامر خديوية تنبه على ضرورة حضور علي مبارك اجتماعات المجلس للمداولة حول تقارير وخطط كان قد سبق وضعها لتوفير مياه الري لبعض المديريات [٤] ، بعدها اصبح عضوا في مجلس القومسيون (١٥ حزيران عام ١٨٧٧م) الذي رأسه راغب باشا ناظر التجارة والزراعة ، لمفاوضة شركة قناة السويس عن الاموال المطلوبة من الحكومة نظير الاشغال التي قامت بها الشركة ، بواسطة احد المقاولين هو (موسيو فلكس بابوتوه) في ترعة الاسماعيلية ، إذ يمكن ملاحظة أن اعضاء القومسيون باستثناء علي مبارك هم من غير المصريين ، فعلي مبارك

---

[١] امين سامي ، تقويم النيل ، المجلد الثالث ، الجزء الثالث ، ص ١٤٥٢ .

[٢] المصدر نفسه ، ص١٤٥٢ .

[٣] المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، ص ٩٠٥ – ٩٠٨ .

[٤] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٧٥ – ٧٦ .

كان في مثل هذه الامور اهم رجالات مصر الوطنيين ، وهو رجل الحكومة في مثل هذه المفاوضات [١] .

ويمكن القول أن مصر دخلت عصر الوزارة المسؤولة بمعناها الحديث في آب عام ١٨٧٨م ، وصدرت اوامر الخديوي إلى نوبار باشا في (٢٩ شعبان ١٢٩٥هـ / ٢٨ آب عام ١٨٧٨م) بتشكيل هيئة (النظارة) الجديدة ، وبذلك استبدلت مصر المجلس الخصوصي ذي الطابع الاستشاري ، وبالنظارات التي لا تؤلف بين نظارها المسؤولية التضامنية المتحدة ، النظارة (الوزارة) المتضامنة والمسؤولة مسؤولية جماعية عن تسيير دفة الامور ، وبذلك تقلص إلى حد ما حكم الفرد (الخديوي) ولمع دور الوزارة كمؤسسة هامة في حكم البلاد [٢] ، وكانت وراء هذا التطور الدستوري والسياسي امور عدة منها :

اولا : التيار الشعبي الذي بثه جمال الدين الافغاني [٣] عام ١٨٧١م ، ويتبلور هذا التيار الشعبي في (الحزب الوطني) [٤] السري ، وبدأت آثاره تدفع بالسلطة في هذا الاتجاه الذي آزرته الصحافة الاهلية غير الحكومية التي نشطت في السبعينات من القرن التاسع عشر .

ثانيا : الديون الاوربية التي تراكمت على الحكومة ، وكذلك القوى الاستعمارية الطامعة بمصر ، ولاسيما بريطانيا وفرنسا ، إذ راوا في الوزارة المتضامنة المسؤولة فرصة يستطيع من خلالها الوزيران الأجنبيان المفاوضان على مصر لمراقبة المالية ممارسة صلاحيات فعّالة ، على عكس الحال اذا ما كانت سلطة الخديوي الفردية هي جهة الحسم الوحيدة للأمور ، خصوصا وان المرشح لرئاسة الوزارة هو رجلهم نوبار باشا (١٨٢٥ – ١٨٩٩م) .

---

[١] امين سامي ، تقويم النيل ، المصدر السابق ، المجلد الثالث ، الجزء الثالث ، ص ١٤٩٢ .

[٢] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، المصدر السابق ، ص٤٠ .

[٣] جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ – ١٨٩٦م) : ولد في اسعد اباد من اعمال كابل عاصمة افغان ، كان من بيت شرف وعلم ، ونسبه يتصل بالسيد علي الترمذي المحدث المشهور ، تعلم في كابل مبادئ العلوم العربية والتاريخ والفلسفة وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وعلوم رياضية ، سافر إلى الهند لتعلم العلوم الاوربية ، ثم إلى الحجاز عام ١٨٧٠م لاداء فريضة الحج ، شارك في حملة حصار هراة ، وهاجر إلى القاهرة للمرة الاولى عام ١٨٧٠م بعد حياة حافلة بالتقلبات في كابل ، من اوائل المنادين بالجامعة الإسلامية وله نظرة متقدمة في الدين والوطنية ، وفي عام ١٨٨٥م سافر إلى اوربا ، واصدر مع تلميذه محمد عبده جريدة (العروة الوثقى) ، والف كتاب للرد على الدهريين وهاجم الفلسفة المادية ، وكذلك كتاب تتمة البيان والمختصر في تاريخ الاذهان ، واسس محفلا ماسونيا عام ١٨٧٦م ضم ٣٠٠ شخص ، توفي بمرض السرطان . ينظر : جورج يانج ، تاريخ مصر من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل ، المصدر السابق ، ص٤١ – ٤٤ ؛ عبد المنعم الخفاجي،مراكب الحرية في مصر الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، ١٩٧٨م ، ص٧١ .

[٤] الحزب الوطني : شهدت مصر ظهور حزبين قبل قيام الثورة العرابية عام ١٨٨٢م ، وكان الحزب الوطني احدهما ، ففي عام ١٨٧٩م كون الضباط المصريون وعلى راسهم محمود سامي البارودي جمعية لمقاومة النفوذ الاجنبي وسموها الحزب الوطني وعهدوا برئاستها الى السيد جمال الدين الأفغاني ، لمزيد من المعلومات ينظر : شحاته عيسى ابراهيم ، عظماء الوطنية في مصر في العصر الحديث ، الهيئة المصرية للكتاب ، (مصر – ١٩٧٧) ، ص١٤٨ – ١٤٩ .

ثالثا : ثمة افكار تراود الخديوي ترى في الاعتماد على الراي العام الذي تنمية الاصلاحات الدستورية وتحديث الادارة الحكومية سبيلا لمقاومة النفوذ السياسي الاجنبي الزاحف في ركاب صكوك الدَين وفوائد القروض [١] .

واصدر الخديوي في (٢٩ شعبان عام ١٢٩٥هـ/ ٢٨ آب عام ١٨٧٨م) أمرا إلى نوبار باشا بتأليف هيئة (النظارة) الجديدة ، وفيها تولى علي مبارك ثلاث وزارات ، اثنتان منها بالأصالة وهما : الاوقاف والمعارف ، والثالثة هي الاشغال العمومية بالوكالة ، إذ كان الاتجاه يسير نحو اعطاء هذه الوزارة لاحد الوزيرين الاجنبيين اللذين فرضهما على مصر ارباب الديون ، وبالفعل تولى (موسيو تلينير) وهو فرنسي ، نظارة الاشغال العمومية بدلا من علي مبارك بتاريخ (١٦ تشرين الثاني عام ١٨٧٨م) ، وتولى (ريفرز ويلسون) وهو بريطاني ، نظارة المالية بتاريخ (٢٦ ايلول عام ١٨٧٨م) ، فظل علي مبارك شاغل نظارة النظارتين (الاوقاف والمعارف) حتى استعفاء الوزارة في (٢٣ شباط عام ١٨٧٩م) [٢] .

واستعفت وزارة نوبار باشا في (٢٣ شباط عام ١٨٧٩م) ، فعهد الخديوي إلى ابنه توفيق بتأليف الوزارة الجديدة التي تألفت فعلا في (١٠ اذار عام ١٨٧٨م) ولم يشترك فيها علي مبارك ، وبعد نحو شهر استقالت هذه الوزارة ، أي في (٧ نيسان عام ١٨٧٩م) وخلفتها وزارة محمد شريف باشا (الاولى) في اليوم نفسه ، ولم يشترك فيها علي مبارك ، وظلت هذه الوزارة إلى أن عزل الخديوي اسماعيل من منصبه في (٢٦ حزيران عام ١٨٧٩م) بعد موافقة السلطان العثماني واستجابة لرغبة كل من فرنسا وبريطانيا ، وتولى ابنه توفيق (١٨٥٢ – ١٨٩٢م) الذي عهد إلى شريف باشا بتشكيل الوزارة (الثانية) من وزاراته ، فشكلها في ٥ تموز عام ١٨٧٩م ، ولم يشترك فيها علي مبارك ، ويبدو أن مصر عادت إلى عهد الوزارة المسؤولة في (٢١ ايلول عام ١٨٧٩م) ، وذلك عندما عُهد إلى رياض باشا بتشكيل وزارته الاولى التي شارك فيها علي مبارك ، فتولى نظارة الاشغال ، واستمرت هذه الوزارة حتى سقطت في (١٠ ايلول عام ١٨٧٩م) ، استجابة لمطالب الامة والجيش التي قدمها احمد عرابي عام (١٨٤١ – ١٩١١) للخديوي توفيق في المظاهرة العسكرية والشعبية التي أحاطت قصر عابدين في (٩ ايلول عام ١٨٨١م) [٣] .

وتعاقبت في تلك المدة على مصر ثلاث وزارات لم يشترك فيها علي مبارك ، وهي الوزارات التي عاصرت احداث الثورة العرابية وهي كالاتي :

---

[١] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص٧٨ .

[٢] د. بونان لبيب رزق ، تاريخ الوزارات المصرية ، ج١ ، (القاهرة – ١٩٧٥) ، ص٥٨ – ٦٠ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٦١ .

١. وزارة شريف باشا (الثالثة) من (١٤ ايلول عام ١٨٨١م) إلى (٤ شباط عام ١٨٨٢م) .

٢. وزارة محمود سامي البارودي باشا (٤ شباط عام ١٨٨٢م) إلى (٢٦ ايار عام ١٨٨٢م) .

٣. وزارة اسماعيل راغب باشا (٣٠ حزيران عام ١٨٨٢م) إلى (٢١ آب عام ١٨٨٢م) ، وحُكمت مصر في هذه الوزارات بوساطة وكلاء الوزارات ، وفي ظل وزير وحيد هو ناظر الجهادية (احمد عرابي) [١] .

وبدأ شريف باشا سعيه لتشكيل وزارته وهي الوزارة الرابعة في (٢١ آب عام ١٨٨٢م) ، إذ تشكلت عندما بدأت احداث التدخل الاستعماري المسلح تحسم الموقف لصالح الخديوي والاحتلال ضد الثورة العرابية ، فصدر الأمر بتشكيل هذه الوزارة في (٢٨ من الشهر نفسه) واستقالت هذه الوزارة في (١٠ كانون الثاني عام ١٨٨٤م) [٢] ، وقد انعم الخديوي توفيق على علي مبارك برتبة (روملي بيكلربيك) [٣] في عام ١٨٨٣م ، وفي (١٠ كانون الثاني عام ١٨٨٤م) تشكلت الوزارة النوبارية الثانية ، فلم يشترك فيها علي مبارك ، وسقطت هذه الوزارة في (٩ حزيران عام ١٨٨٨م) ، اما في وزارة مصطفى رياض باشا (الثانية) التي تالفت في ٩ حزيران عام ١٨٨٨م فقد شارك فيها علي مبارك ، إذ تولى نظارة المعارف العمومية ، ونهض فيها بعبء منصب الوزير ، وظل يمارس المسؤولية إلى أن استقالت في (٤ شوال عام ١٣٠٨هـ / ١٢ ايار عام ١٨٩١م) [٤] .

علي مبارك وموقفه من الثورة العرابية :

شهدت مصر ثورة وطنية قادها احمد عرابي [٥] ، اشتركت فيها طبقات الشعب كافة ، وكانت لهذه الثورة اسباب مباشرة واخرى غير مباشرة ، تمثلت باسباب سياسية واقتصادية ، واجتماعية ، ثقافية ، حيث ان الوضع السياسي قاد الى تذمر الشعب المصري من سوء نظام الحكم

---

[١] سليم النقاش ، مصر للمصريين ، ج٥ ، (الاسكندرية – ١٨٨٤) ، ص٢١ .

[٢] يونان لبيب ، تاريخ الوزارات المصرية ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٧ – ١١٧ .

[٣] هذه الرتبة تعني امير الامراء . ينظر : علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٩ ، ص٥٣–٥٥ .

[٤] يونان لبيب ، تاريخ الوزارات المصرية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ١١٧ – ١٢٣ .

[٥] احمد عرابي : (١٨٤١ – ١٩١١م) زعيم مصري ولد في محافظة الشرقية من عائلة فلاحية ، والتحق بالازهر الشريف في عام ١٨٥٤م ، وخدم في الجيش جنديا ثم ضابطا حتى وصل الى رتبة قائممقام عام ١٨٦٠م ، ابعد من الجيش واعاده الخديوي توفيق ، وعين وزيرا للحربية ثم تزعم ثورة الجيش المصري ١٨٨٢م ، حوكم بالاعدام ثم نفي ، وعاد الى مصر عام ١٩٠٣م بعد العفو عنه ، وتوفي عام ١٩١١م ، ودفن في مقابر الشافعي بالقاهرة . لمزيد من المعلومات ينظر : سمير محمد طه ، احمد عرابي ودوره في السياسة المصرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٨٨٦م ، ص٢٦ .

القائم ورغبتهم في التخلص منه ، فقد كان قوام هذا النظام استبداد الحكام واضطهادهم للشعب ، فقد كان المصريون يكرهون الحكم العثماني – الفردي المستبد على السواء ويطمحون في حكومة وطنية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني [١] .

فكانوا يتطلعون الى التخلص من نظام الحكم القائم ، وبعد ان ادركت النخبة المصرية ان اصلاح هذا النظام انما يكون بقيام الدستور وانشاء مجلس نيابي يوكد العدل والمساواة والحرية ، ويتحقق فيه الرقابة على الحكام ويحول دون ارتكاب الظلم ، فقد اتحدت الطبقة المثقفة من الشعب مع الضباط الوطنيين في الشعور والرغبات ، واجمع الكل على المطالبة بحكم ديمقراطي نيابي [٢] ، وقد رأى الموظفون وضباط الجيش من مظاهر اتساع سلطة المراقبين الاوربيين ما يثير في نفوسهم السخط ، ومن هذه المظاهر ازدياد نفوذ الموظفين الاوربيين في دوائر الدولة [٣] ، تألف العسكريون الذين تربوا على الاسس التي رسخها محمد علي باشا تنظيما عسكريا سريا عام ١٨٧٦ كان من ابرز اعضاءه احمد عرابي ، علي فهمي ، محمد عبيد ، ومن المفكرين والادباء عبد الله النديم ، واديب اسحق ، ومحمد عبده ، وغيرهم .

فضلا عن ذلك ان الاوضاع الاقتصادية للبلاد ادت دورها في الثورة فالديون التي اقترضها الخديوي اسماعيل القت على البلاد عبئا جسيما اضطرت الحكومة الى تخصيص نصف موارد الميزانية لسداد فوائد الديون فكان ذلك سببا لتذمر الشعب ، فضلا عن فداحة الضرائب ، وعدم توزيعها توزيعاً عادلاً ، وجمعها بوسائل القهر والتعسف ، كذلك استفحال نفوذ الاجانب عامة ، واستحواذهم على مرافق البلاد الاقتصادية مدعاة الى تبرم الاهالي من نظام الحكم [٤] ، ولم تكن طبيعة المجتمع الهيكلية في ذلك الوقت تسمح بوجود طبقة رجال اعمال وفنيين ، وانما كان الاجانب هم الذين يمتلكون رؤوس اموال ، والمهارة لتوطيد دعائم الانتاج [٥] ، فضلا عن ذلك دور العاملين الاجتماعي والثقافي في قيام الثورة ، فالمعروف ان كثيراً من عناصر المجتمع المصري قد تعرضت لتأثير ونشاط عملية التفاعل مع الفكر الاوربي ، اذ اتبع محمد علي سياسة البعثات فارسل الكثير من المصريين الى مختلف الدول الاوربية لدراسة العلوم النفسية والعقلية [٦] .

---

[١] فان بلمن ، مصر واوربا ، ج١ ، ص٢٦ . نقلا عن عبد الرحمن الرافعي ، عصر اسماعيل ، ج٢ ، ص١٢٣ .

[٢] احمد زكريا الشلق ، معالم تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر ، الدوحة ، ١٩٩٦م ، ص٨٦ .

[٣] عبد الرحمن الرافعي ، الثورة العرابية والاحتلال ، (القاهرة – ط١ ١٩٧٣) ، ص٧٣ .

[٤] عتاب حمود اسفيح،انتفاضة احمد عرابي في مصر ،رسالة ماجستير ،جامعة بغداد–كلية الاداب،٢٠٠٩، ص٧٥.

[٥] عبد الرحمن الرافعي ، الزعيم احمد عرابي ، القاهرة ، ١٩٥٢م ، ص٨٣ .

[٦] عبد العظيم رمضان ، الفكر الثوري في مصر قبل ٢٣ تموز ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص١٧ .

كذلك انتشار الصحافة في مصر كمؤسسة فكرية ذات تاثير كبير ، فقد ادت الصحافة الوطنية دورا مهما في التوعية والتعبئة السياسية التي ميزت مناخ المعارضة الوطنية في ذلك الوقت ، ففي عصر اسماعيل بدأ صحف جديدة بالظهور ، كان بعضها يحظى بتأييد وتشجيع الخديوي ماديا ومعنويا ، واما البعض الاخر فكان مستقلا عن نفوذه خارج عن اطار توجهاته ، وكانت صحيفة (وادي النيل ١٨٦٦ – ١٨٧٢م) تحظى بدعم من قبل الخديوي ، الى جانب جريدة (نزهة الافكار عام ١٨٦٩م) [١] ، ومن الصحف المستقلة هي (جريدة الاهرام عام ١٨٧٥م) ، و (جريدة مصر ١٨٧٧م) ، وصحيفة (التجارة ١٨٧٨م) [٢] ، كذلك خضوع المجتمع المصري الى تاثيرات شبه عنصرية ، وذلك بوجود عناصر من بقايا اجناس غربية مرتبطة ببيئته الاجتماعية من ناحية انتمائه لقومية غير قوميته ، ولحصولها على امتيازات طبقية واسعة عمقت الهوة بين هذه الفئات وبين الكيان الاجتماعي المصري ، وتمثلت هذه الفئات ببقايا عناصر من دولتي المماليك الشراكسة ، وكذلك بقايا عناصر تركية والبانية واخلاط السلطة العثمانية ، فهذه التاثيرات الثقافية السياسية للمصريين وتبرمهم من اوضاعهم الاقتصادية المتردية اسهمت بشكل غير مباشر في اندلاع الثورة [٣] .

تشير معظم المصادر التاريخية الى ان السبب الرئيس للثورة يكمن في تذمر الضباط الوطنيين من سوء معاملة رؤسائها ، لاسيما وزير الحربية (عثمان رفقي) في وزارة (رياض باشا) الذي حدثت الثورة في عهده [٤] ، فكان عثمان قائد شركسي متعصب لجنسه ومتحيز للضباط الذين هم من اصل تركي او شركسي ، ويعمل على جعل زمام الامور بايديهم ، فلم يكن الضباط الوطنيين يجدون انصافا ولا مساواة مما ادى الى سخطهم لعدم مساواتهم بزملائهم من الضباط الاتراك ، فكان هذا الوزير يكيد للمصريين السخط بسبب كره لهم ، وكان يرى انهم فلاحون لا يعملون الا ليكونوا عبيدا ، وكان (عثمان رفقي) يعد مشروع قانون يمنح به ترقية الجند من تحت السلاح لكي يبقى اتباعه في الجيش هم العنصر الذي يسود ، وكذلك بدأ بعزل الضباط الكبار من المصريين واقصائهم من مناصبهم ، فكان لظهور احمد عرابي اثر في بث روح التضامن والاتحاد

---

[١] نبيل عبد الحميد واخرون ، مصر للمصريين (مائة عام على الثورة العرابية) ، مركز السياسة والاستراتيجية بالاهرام ، ١٩٨٩م ، ص٤٦ .

[٢] فيليب طرازي ، تاريخ الصحافة العربية ، بيروت ، ١٩١٣م ، ص٣٣ .

[٣] عتاب حمود اسفيح ، انتفاضة احمد عرابي ، المصدر السابق ، ص٨٢ .

[٤] عبد الرحمن الرافعي ، الزعيم احمد عرابي ، المصدر السابق ، ص١١ .

في نفوس الضباط للمطالبة بحقوقهم المشروعة وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم على ولاة الامر ، فلولا هذه الشخصية الوطنية التي ظهرت لتأخر اندلاع الثورة العرابية [١] .

بعد ان استطاع تنظيم حركة مسلحة في ١٨ شباط / تشرين الاول عام ١٨٧٩ بقيادته مطالبا بإعادة الضباط المحليين على التقاعد والبالغ عدد (٢٥٠) ضابطا استغنت الدولة عن خدماتهم تحت دعوى الترشيد في النفقات ثم تطورت الاوضاع الى ثورة مسلحة شاركت فيها فصائل الشعب المصري ، وكان من مطاليب عرابي في ٩ ايلول / ايلول ١٨٨١م تشكيل وزارة جديدة وانعقاد للبرلمان الذي اسس عام ١٨٦٦م وجعله نيابيا على غرار النظم البرلمانية الاوربية ، ووقف التدخلات الاجنبية في شؤون مصر وتقييد الحكم المطلق للخديوي .

هناك مسألة مهمة في حياة علي مبارك هي موقفه من الثورة العرابية وعلاقته برجالها ، اذ يعتقد ان الثورة العرابية قطعت طريق الاصلاح والعمل وشغلت الناس باحاديث اخرى عن حقوق الامة في الحياة النيابية ، والرقابة على اموال الدولة ومشاركة المصريين لغيرهم من الشراكسة والاتراك في المناصب والوظائف ، ونجد من موقفه منها انه عند ظهور مقدماتها ترك القاهرة ورحل الى قريته ، ثم عاد بعد انكسار العرابيين في كفر الدوار وقبل موقعة التل الكبير [٢] ، ولما قرر علي مبارك جمع رؤساء الامة وزعمائها ومفكريها الى مؤتمر يقررون فيه موقف الثورة من الخديوي توفيق ، كان علي مبارك من ضمن هؤلاء الزعماء الذين دعوا الى هذا الاجتماع ، اذ تم عقد هذا الاجتماع في مبنى وزارة الداخلية برئاسة وكيلها حسين باشا الدراملي في صباح (الاول من رمضان عام ١٢٩٩هـ / ٢٣ تموز عام ١٨٨٢م) .

ومن العلماء الذين وقعوا قرارات المؤتمر بعزل توفيق وانه مارق يجب اخراجه من الملك [٣] هم : شيخ الازهر الشيخ محمد الابابي ، والشيخ حسين العدوي ، والشيخ عبد الله الاسنادي مفتي الحنفية ، والشيخ محمد عليين مفتي المالكية ، والشيخ يوسف الحنبلي مفتي الحنابلة ، والشيخ عبد الهادي الايباري ، والشيخ محمد الاشموني ، والشيخ خليل الغرازي ، والشيخ مسعود النابلسي ، والشيخ محمد العلماوي ، والشيخ زين المرصفي ، والشيخ عمر القلعاوي ، والشيخ عثمان مروح ، والشيخ عبد الرحمن السويسي [٤] .

---

[١] عبد الرحمن الرافعي ، الزعيم احمد عرابي ، المصدر السابق ، ص١٢ – ١٤.

[٢] الفريد سكاون بلنت ، التاريخ السري لاحتلال بريطانيا لمصر ، ج٢ ، (القاهرة – ١٩٨١) ، ص٥١٣ .

[٣] عتاب حمود اسفيح ، المصدر السابق ، ص٩٤ .

[٤] المصدر نفسه ، ص٩٥ – ٩٧ .

أما رجال القضاء الذين وقعوا على مقررات المؤتمر فهم : الشيخ ابو العلا الحلفاوي ، والشيخ عبد القادر الرافعي ، والشيخ عبد القادر البستاني ، والشيخ احمد الخشاب [١] ، وكان الاجتماع خاضعا لنفوذ رجال الثورة وتوجيههم ، اذ اختار المؤتمرون وفدا لمقابلة توفيق والتفاوض معه في امر هذه الحادثة التي اوقعها الجنود البريطانيون بدسائسهم بينه وبين العرابيين وتُعرف بمذبحة الاسكندرية ، وفي امر هذه الحرب التي اثاروها على مصر ، وسافر علي مبارك مع الوفد الى حيث كان توفيق في الاسكندرية ، ويذكر لنا : " انه بذل جهده للوصول الى تسوية تقرب شقة النزاع بين الثوار وتوفيق ، وتخرج مصر سالمة من هذه الفتنة ... " ، وقد نجح سعي علي مبارك عند توفيق ، وانه – اي توفيق – قبل وساطته ورضا بمسالمة العرابيين ، ونعتقد ان هذا كان خداعا من توفيق حتى يتخلى العرابيون عن الحرب او يتراخوا فيها ، كذلك " انه اتصل ايضا بالجنود البريطانيون ولكن مقت العرابيين لتوفيق كان سببا في خيبة مسعاه للصلح " [٢] ، وتأسيسا على ما قد تقدم فان علي مبارك كان من الدعاة الى المفاوضة ونبذ خيار الحرب ، وكان عنصرا حياديا ولكنه مع اهداف الثوار ، اذ امد الثوار معنويا ولم يكن يرغب في نشوب الحرب ، وعمل جاهدا من اجل درء خطر الحرب ، ولكن لم يستطع فقد مضى الثوار الى هدفهم في اشعال الثورة ضد الخديوي توفيق .

وفاته :

تعد وزارة رياض باشا الثانية عام (١٨٨٨ – ١٨٩١م) آخر وزارة اشترك فيها علي مبارك التي امتدت إلى عام ١٨٩١م ، بعدها ابتعد عن العمل السياسي وتفرغ لاستكمال عدد من مؤلفاته ، إذ ذهب إلى بلدته (برنبال) هي كانت عادته في تلك الاوقات ، كي يباشر اصلاح ارضه وزراعتها بعد أن اهملت لانشغاله عنها بمهامه العامة ، وهناك مرض علي مبارك بمرض (التهاب المثانة) فعاد إلى القاهرة للعلاج ، لكن علاج الاطباء لم يجد نفعا مع المرض لحانت لحظة لقائه لربه وكان في منزله بالحلمية ، ليلة الثلاثاء الموافق (٥ جمادي الاولى عام ١٣١١هـ / ١٤ تشرين الثاني عام ١٨٩٣م) [٣] .

---

[١] سمير محمد طه ، احمد عرابي ودوره في الحياة السياسية المصرية ، المصدر السابق ، ص٩٠-٩٥ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٩٧ .

[٣] هناك بعض الاختلافات في تحديد تاريخ وفاة علي مبارك ، ولكن الاصح فيها هو ما نشر في جريدة المقطم عام ١٨٩٣م فتأكدنا من صحة هذا التاريخ ، وقد ذكرت المقطم انه سار في جنازته مندوبان من قبل الخديوي ، واللورد كرومر ورياض باشا ، وعدد كبير من عظماء المصريين والاجانب ، وتلاميذ المدارس على اختلاف=

وكان خبر وفاته قد اصاب المصريين بألم شديد ، وكان تشييع جنازته على اعظم ما رؤى ممن سبقوه من الامراء والذوات الكبار ، فقد امر الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٧٤ – ١٩١٤م) بان يكون تشييع جثمانه على النحو اللائق لما قدمه لبلاده وامته ، وهم مصطفى رياض باشا (رئيس مجلس النظار) لتنفيذ امر الخديوي والوفاء بحق فقيد الوطن ، وبحق ما كان بينهما من صلات ، واقفلت المدارس في البلاد اكبارا ليومه ، وقامت الجرائد المحلية ، والعربية ، والاجنبية ، وفي مقدمتها الجرائد الرسمية على اختلاف توجهاتها الاعلامية ، بإعلان خبر وفاته ، وذكر اثاره ، وترجمة حياته [١] .

وقام اساتذة (دار العلوم) وطلابها ومعهم طلبة المدارس العليا بالتسابق في رثاء فقيد الوطن ، شعرا ونثرا ، وتألفت منهم لذلك الجمعيات ، واقيمت مجالس التأبين على قبره ، وفي منتدى (الانف تبانز) بنظارة المعارف وغيرها ، فكان لها كذلك اعظم واطول المقالات العلمية المبينة لفضله وجهوده العلمية الكبيرة وهو ابو التعليم الحديث في مصر .

واسهمت الجمعيات العلمية في الوطن العربي واوربا في تأبينه ، وتعداد اثاره على نحو لائق لما قدمه من عطاء ، ثم أن طلبة مدرسة (دار العلوم) اهتموا بأمر تخليد اثره فيها ، لانه هو المؤسس لها ، فاكتتبوا لذلك فيما بينهم كتابا اشترك فيه كل المتخرجين من اول تأسيسها ، وما جمعوه من نقود رسموا له صورة بالزيت على القماش ، وكذلك قام جماعة من التلاميذ في هذه المدرسة بجمع ما قيل فيه من قصائد وطبعها على نفقتهم الخاصة وتوزيعها على الناس [٢] .

وتألفت في القاهرة لجنة من كبار رجالات الفكر والدولة ، وقررت فتح مكتب وطني عام لإقامة تمثال لعلي مبارك ، ومسلة تخلد عليها اعماله وانجازاته في احد ميادين القاهرة ، ولكن المشروع لم ينجز ، فتحولت المبالغ التي جمعت لهذا المشروع إلى (الجمعية الخيرية الإسلامية) في ظل قيادة الأمام محمد عبده لها ، لتكون جوائز للمتفوقين من أبناء مدارسها [٣] .

=انواعها ودرجاتها ، وانه دفن في قرافة السيدة نفيسة ، واطلقت المدافع عند مواراته الثرى اطلاقات الوداع الاخير . نقلا عن جريدة المقطم ، العدد ١٤٢٠ ، القاهرة ، ١٥ تشرين الثاني عام ١٨٩٣م .

[١] حسين فوزي التجار ، المصدر السابق ، ص١٣١ .

[٢] محمد دري الحكيم ، تاريخ حياة المغفور له علي مبارك ، المطبعة الطبية الدرية في مصر ، ١٣١١هـ ، ص٣٤-٣٧ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٣٨ .

المبحث الثاني : واجهات نشاطه الفكري

لم تقف جهود علي مبارك في ميدان الثقافة والتعليم عند حد اهتمامه بفتح المدارس وتيسيره سبل العلم لطلابه أو عند حد حملاته القوية لمحو الامية ، أو انشائه لدار الكتب المصرية وقاعة المحاضرات العامة الملحقة بها ، بل تعدى ذلك إلى تاليف الكتب في ميادين مختلفة من ميادين الثقافة ، فكان لا يستمر في أي منصب من المناصب مدة طويلة تمكنه من اتمام مشروعاته العلمية أو اصلاحاته العمرانية ، إلا واطاحت به الدسائس والوشايات وابعدته خارج الحكم ، فيتجه للتأليف ، ونجد أن علي مبارك قد كتب جل أو كل مؤلفاته وهو معفى عن المناصب الحكومية ، وهنا نستطيع أن نقول أن حساده قد أدوا إليه والى العلم خيرا من حيث لا يشعرون ، فان كان اقصاؤه عن مناصبه ودعوته إليه قد عطل سير بعض المشروعات النافعة إلا انه قد ادى إلى العلم والأدب نفعا كبيرا [١] .

وتعد الكتب التي الفها علي مبارك كثيرة ، وتنقسم إلى قسمين أو نوعين ثقافيين ، القسم الاول يمثل (الكتب المدرسية) وهي كالتالية :

١. تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين :

طبع بمطبعة المدارس الملكية عام ١٢٩٠هـ ، ويقع في (٤١٨) صفحة من القطع المتوسط ، عدا فهرس ومقدمة في (٢٠) صفحة ، ويبحث في القناطر وفي مساحة وحجوم الاجسام وسطوحها ، وفي الرسم على قطاع الاشجار لنشرها قطعا للأشغال ، وفي منحنيات سكك الحديد وغيرها ، وفي قوانين حساب المثلثات ، وفي استعمال جداول الخطوط المساحية ولوغاريتماتها ، وفي الابنية ، وفي المقاييس ، وفي الاثقال النوعية ، وفي تحويل المقاييس إلى بعضها ، وفي معدلات ابنية قطر مصر [٢] .

وبقى هذا الكتاب إلى أن اطلع عليه بعض معلمي الرياضيات في المدارس الملكية وغيرهم ايام نظارة علي مبارك عليها في الحكومة الخديوية الاسماعيلية ، فرغبوا بطبعه ، وكان المباشر لمقابلته وطبعه اولا السيد (احمد افندي خليل) ناظر مدرسة المحاسبة يومئذ ، وبعده علي افندي إلى أن تم طبعه [٣] .

---

[١] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، المصدر السابق ، ص٩٤ .

[٢] علي إبراهيم البحراوي ، علي باشا مبارك (أو وزير للمعارف وابو التعليم في مصر) ، المصدر السابق ، ص٧١.

[٣] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص١٢٧ .

٢. كتاب تقريب الهندسة :

طبع هذا الكتاب في (اوائل صفر عام ١٢٨٠هـ) ، إذ طبع بمطبعة الحجر بدار الطباعة ، وهو مختص بعلم الهندسة ، ومختصر في اخذ صورة الارض ، ويقع في (١٩٠) صفحة من القطع المتوسط ، وتم تاليفه في مدة حكم سعيد باشا ، وصدرت الارادة الخديوية في (١٩ جمادي الآخرة عام ١٢٧٧هـ) إلى ناظر المالية راغب باشا التي نصت على : " لقد اطلعنا على الكتاب المسمى تقريب الهندسة الذي الفه وحرره علي مبارك بك المهندس العسكري بمعيتنا ، لتسهيل وتقريب فن الهندسة لأذهان المبتدئين وحيث انه في الواقع مؤلف مختصر مفيد في فن الهندسة ، فبناءً عليه ، قد اقتضت ارادتي بطبع خمسمائة نسخة من مطبعة الحجر ، التي بمطبعة بولاق ، وحيث أن الكتاب سيرسل اليكم – أي مدير المطبعة – ، فبناءً عليه يجب اجراء تصليح وتصحيح عباراته ، بمعرفة صالح مجدي افندي ، مترجم الكتب العسكرية ، وتجب المبادرة بطبع النسخ المار ذكرها ، وارسالها إلى هذا الجانب ، لتوزيعها على ضباط العساكر ، وقد حررنا لكم هذا لاتباعه " [١] ، ويتحدث علي مبارك عن هذا الكتاب وتعليمه للضباط والعساكر ايام سعيد باشا فيقول : " وضعت في ذلك كتابا مختصرا جمعت فيه اللازم من الحساب والهندسة ، وطبع على مطبعة الحجر فانتفع به كثير من الناس خصوصا في الاليات ، وتكرر طبعة ، وكنت قد جمعت أيضا جزءً فيما يلزم معرفته للضباط من فن الاستحكامات ، وسوق الجيوش وترتيبها ، وكيفية المحاربات ونحو ذلك ، لكنه لم يتم ، ولم يطبع ، وقد ضاع مني " [٢] .

٣. كتاب تنوير الافهام في تغذي الاجسام :

طبع في مطبعة المدارس الملكية ، بسراي درب الجماميز في عام (١٢٨٩هـ / ١٨٧٣م) ، ويقع في (٧٢) صفحة من القطع المتوسط ، ويبحث في كيفية تكوين الغذاء الصالح للجسم ، ويوجد هذا الكتاب في دار الكتب المصرية نسختان منه ، نسخة مستقلة ، واخرى ضمن مجلد كبير، إذ يوجد ضمن هذا المجلد نفسه كتابان اخران ، احدهما كتاب (خواص الاعداد) لعلي مبارك ، والاخر كتاب (تعريف ابناء الاوطان باتقان زراعة الاتقان) تأليف المعلم (سبليست دوفال الفرنساوي) تعريب : (أبو السعود افندي ، وكان كتاب (تنوير الافهام) يبحث في كيفية

---

[١] امين سامي ، تقويم النيل ، المجلد الأول ، الجزء الثالث ، دار الكتب المصرية ، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٦م ، ص٣٦٤ .

[٢] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

تكوين الغذاء الصالح للجسم ، واثر ذلك في الصحة العامة ، وما يجب الاخذ به حتى تظل حياة الإنسان مستظلة بظل الصحة والقوة [١] .

٤. كتاب خواص الاعداد :

طبع بمطبعة المدارس الملكية بسراي درب الجماميز ، في بداية عام ١٢٨٩هـ ، ويقع في (١٠٤) صفحة من القطع المتوسط ، ويبحث عن الخواص المميزة للأعداد ، فيذكر لها واحداً وثلاثين خاصية ، ثم يتكلم في المثلثات العددية القائمة الزاوية ، ويبحث في المتوالية العددية ، ويذكر لها امثال كثيرة ، ويضع فيها مسائل عددية ، ويضع بعد ذلك جدولا للأعداد الاولية يصل إلى الرقم (٩٩٧٣) ، ومن اهم ما ورد في الكتاب حديثا عن جداول الاوفاق [٢] ، وهو يعرف الجدول الوفقي بأنه عبارة عن مربع مقسوم إلى عدة مربعات صغيرة متساوية تشتمل على حدود متوالية هندسية أو عددية من داخلها موضوعة على وجه بحيث يكون مجموع اعداد المربعات حدود متوالية عددية ، واما اذا كانت تلك الاعداد من متوالية هندسية كانت حواصل الضرب المتحصلة من الصفوف على الوجه الذي ذكرناه متساوية ، ويذكر المؤلف أن جداول الاوفاق كان يعتني به المصريين ، ومن اخذ عنهم مثل فيثاغورس وجماعته وسموها كذلك (لنسبتهم لها إلى السبعة الكواكب) [٣] .

٥. كتاب خلاصة تاريخ العرب :

هذا الكتاب ألفه العالم (سيديو – Sedeillot) وترجم بعض فصوله (محمد أفندي ابن احمد عبد الرزاق) احد المترجمين بقلم ترجمة ديوان المعارف ، واحد معلمي اللغة الفرنساوية في ذلك العهد ، وترجم البعض الآخر وراجع الكتاب كله علي مبارك ، وهذا واضح في مقدمة الكتاب التي قال فيها علي مبارك : " أن لنفاسة هذا الكتاب اردت نشره بين ابناء الوطن ، فأمرت بترجمته ، وانا ناظر على ديوان المعارف عام (١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م) ، والمرحوم محمد افندي ابن احمد عبد الرزاق ، احد المترجمين بقلم ترجمة ديوان المعارف ومعلمي اللغة الفرنساوية بالمدارس الملكية المصرية ، فترجمه ، ثم امرت اساتذة بقراءة فقراته ، واعلنوا بفائدة طبعه ، فامرت بطبعه ، ثم تخليت عن نظارة المعارف ، فوقف طبعه ، وحفظت الترجمة في الكتبخانة الخديوية ، ثم عدت إلى نظارة الديوان عام (١٣٠٥هـ / ١٨٨٩م) ، فوجدت به ابوابا لم تترجم ، واخرى لم تستوف حقها من الترجمة ، فترجمنا ذلك وصححنا الكتاب ، وقابلناه على الاصل كلمة كلمة ، ثم كلفنا به عالم

---

[١] علي مبارك ، تنوير الافهام في تغذية الاجسام ، مطبعة المدارس الملكية ، ١٨٧٣ . ص .

[٢] علي مبارك ، خواص الاعداد ، مطبعة المدارس الملكية ، ١٨٧٣ ، ص٣ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٩٩ .

النحرير الشيخ عبد الرحمن ابن العلامة المرحوم الشيخ السيد الشرقاوي الشرشيمي المتوفى عام (١٢٨٨هـ / ١٨٧٢م) ، وامرناه أن ينشئه انشاءً عربيا فصيحا ، فاخذ ينشئ ويقرأ علينا ما كتبه بخطة [١] ، ثم صححنا أسماء البقاع والرجال ، وقابلناها على اصلها الافرنجي وسميناها (خلاصة تاريخ العرب) فجاء بحمد الله كتابا مبارك الطالع ، ترتاح له المسامع ، كما أن شموس النجاح عليه طوالع ، لم يدع كبيرة ولا صغيرة من تاريخ العرب إلا احصاها ، ولا شاردة من شوارد فضلهم إلا ردها لاهلها وكشف قناع عن محياها " ، ويتكون هذا الكتاب من (٣١٤) صفحة من القطع المتوسط ، طبع بمطبعة محمد افندي بحوش قدم عام ١٣٠٩هـ .

٦. كتاب حقائق الأخبار في أوصاف البحار :

طبع هذا الكتاب بمطبعة وادي النيل عام (١٢٨٧هـ / ١٨٧١م) ، ويقع في (٨١) صفحة من القطع المتوسط ، وكان المؤلف قد نشره تباعا في مقالات بمجلة (روضة المدارس المصرية) التي انشأها علي مبارك في مدة نظارته للمعارف في سنتها الاولى ، والكتاب عبارة عن رسالة تاريخية وجغرافية في البحار ، كتبها المؤلف تلخيصا عن مؤلف جليل في البحار بعد اطلاعه عليه ، وان كان لا يذكر لنا اسم صاحب الكتاب .

ويتناول علي مبارك في هذا الكتاب الكلام عن اقسام البحار وبيان تركيب مياهها ، ولون الماء الصالح ، وتكوين الثلج وتكوين امواج البحر والتيارات ، ويخص تيار خليج المكسيك ببعض التفصيل ، وكذا التيارات الجنوبية الموجودة في المحيط الانطلنطي ، ثم يتكلم عن الدوامات الجنوبية وتوازن المياه في البحر ، وفي المد والجزر وما ينشأ عن عدم انتظامها والتيارات التابعة لها ، وما يمتازان به في البحيرات والبحار الداخلة [٢] .

ويبين لنا في هذا الكتاب أساس التغير المستمر الحاصل في سواحل البحار ، وكيفية تأثير الماء على الشاطئ ، ويخلص من ذلك إلى بيان شكل السواحل ، واخيرا يتكلم عن الجزر ، وعن كثبان الشواطئ وعن ارتفاعها ، وعن الموانع الطبيعية والصناعية المانعة للرمال عن السير ، وبهذا يختم علي مبارك كتابه [٣] .

---

[١] علي مبارك ، خلاصة تاريخ العرب ، مطبعة محمد افندي لجوش ، ص ٢ – ٤ .

[٢] علي مبارك ، حقائق الاخبار في اوصاف البحار ، مطبعة وادي النيل ، ١٨٧١م ، ص .

[٣] علي مبارك ، الميزان في الاقيسة والاوزان ، المطبعة الاميرية ببولاق ، ١٨٩٣م ، ص .

٦. كتاب الميزان في الاقيسة والاوزان :

طبع هذا الكتاب في المطبعة الاميرية ببولاق عام (١٣٠٩هـ / ١٨٩٣م) ، ويتكون الكتاب من (٩٦) صفحة من القطع المتوسط ، ويعد من الكتب المهمة ، وذلك لان علي مبارك اثبت فيه أن اصل الاقيسة والاوزان كلها مصرية ، وان الاقيسة والاوزان العبرية والرومانية مقتبسة من الاقيسة والاوزان المصرية القديمة ، وتم طبع الجزء الأول منه عام (١٣٠٩هـ / ١٨٩٣م) [١] .

٧. كتاب طريق الهجاء والتمرين على القراءة :

وهو كتاب يتالف من جزئين ، ويقع الجزء الأول في (٩٦) صفحة ، والثاني في (١٦٠) صفحة من القطع الصغير ، وواضح من عنوانه انه يرسم الطرق الاولية لتعليم القراءة والكتابة ، لينتفع به المبتدئون ، وطبع هذا الكتاب في مطبعة وادي النيل العربية والافرنجية بباب الشعرية بالقاهرة عام (١٢٩٧هـ / ١٨٨١م) [٢] ، واما القسم الثاني من الكتب التي الفها علي مبارك ، وهي كتب الثقافة العامة وهي كالاتي :

١. كتاب الخطط التوفيقية :

ولأهمية مؤلفه هذا فقد خصصت مادة الفصل الرابع لعرضه وتحليل ما ورد فيه وهو مؤلف من (٢٠) مجلدا ، المجلدات الستة الاولى للقاهرة ، والسابع للاسكندرية ، ومن الثامن الى الثامن عشر الى مديريات مصر الاخرى ، واما التاسع عشر فمخصص لنهر النيل ، اما الجزء الاخير العشرون الى المقاييس والاوزان

٢. كتاب علم الدين :

وهو كتاب في أربعة اجزاء ، أو هو قصة لشيخ تعلم في الازهر ، وتتلمذ له احد المستشرقين البريطانيين ، وطبع في مطبعة جريدة المحروسة بالإسكندرية عام (١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م) ، ويبلغ عدد صفحاته (١٤٩٠) صفحة من القطع المتوسط [٣] ، وتدور أحداث هذه القصة حول شخصين رئيسيين ، الشخصية الاولى (شخصية عالم مصري ازهري) يسمى (علم الدين) ، والثانية شخصية رجل بريطاني حضر إلى مصر وتعلم العربية أو حاول تعلمها ، واحداث هذه القصة تقع في مصر وفي اوربا ، وفيها معارف قيمة ، إذ يشرح لنا علي مبارك

---

[١] علي مبارك ، طريق الهجاء والتمرين على القراءة ، مطبعة وادي النيل ، القاهرة ، ١٨٨١م ، ص .

[٢] المصدر نفسه ، ص .

[٣] نقلا عن سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، المصدر السابق ، ص ٩٧ .

الاسباب التي جعلته يسرد هذه المعارف في قالب قصصي بقوله في مقدمة الكتاب : " وقد رايت النفوس كثيرا ما تميل إلى السير والقصص وملح الكلام بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة ، فقد تعرض عنها في كثير من الاحيان ولاسيما عند السامة والملال من كثرة الاشغال ، وفي اوقات عدم خلو البال ، فحداني هذا ايام نظارتي لديوان المعارف إلى عمل كتاب اضمنه كثيرا من الفوائد في اسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها إلى مطالعتها ، ويرغب فيها رغبته فيما كان من هذا القبيل فيجد في طريقه تلك الفوائد ينالها عفوا بلا عناء حرصا على تعميم الفائدة وبث المنفعة " [١] .

وهنا يصرح علي مبارك في هذا الكتاب بأمرين مهمين يدلان على حرصه على الصدق وعلى الاعتراف بفضل ذوي الفضل وهما :

الأول : اعترافه بما قام به وكيل المعارف في ذلك الوقت عبد الله باشا فكري من مساعدات في هذا الكتاب فيقول علي مبارك : " فشرعت في هذا الكتاب مستمدا من عناية الله ، مستعينا في تهذيب عباراته وتحسين اشاراته ببعض جهابذة الاساتذة ولاسيما العالم الفاضل السيد الاجل عبد الله باشا فكري وكيل ديوان المعارف فانه صرف عنايته إلى تنقيح ما اطلع عليه من هذا الكتاب ، وليس بالقليل ، فهذب معانيه ، وشذب معانيه ، وقرب مجانيه ، فجاء كتابا جامعا " [٢] .

الثاني : اعترافه بالاقتباس من الكتب الاخرى ، إذ قال : " فجاء كتابا جامعا اشتمل على جمل شتى من غرار الفوائد المتفرقة في كثير من الكتب العربية والاوربية في العلوم الشرعية ، والفنون الصناعية ، واسرار الخليقة ، وغرائب المخلوقات ، وعجائب البر والبحر " [٣] .

وقسّم علي مبارك كتابه إلى مسامرات ينتقل فيها القارئ مع الشخصيات الرئيسة في اسفارها وسياحاتها فينزل حيث ينزلون ، ويرتحل حيث يرتحلون ، وشاهد معهم ما يشاهدون من الاثار في البر والبحر والهواء ، ويتألف الكتاب من مجموعة من البحوث الاجتماعية ذات اهمية كبيرة ، وكذلك بحوث علمية قد كان يقصر عنها الادراك حينذاك ، منها : الموالد والاعياد والمواسم ، والملاحة ، والبحر وعجائبه ، والبراكين ، والتياترات ، والعادات ، والميسر والانصاب، والأزلام، والودع، ودعوة انس، والذهب واستخراجه، وتعدد الزوجات ، العقائد ، والجمعية المشرقية ، ونور الغاز ، وقسمة خارج باريس [٤] ، وهذه القصة من الناحية الفنية ليست بالقمة ولا في الوسط ، وهي

---

[١] محمد احمد خلف الله ، علي مبارك واثاره ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ – ١٨١ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ١٨٠ – ١٨١ .

[٣] علي مبارك ، علم الدين ، (الاسكندرية – ١٨٨٢م) ، ص٧ .

[٤] محمد احمد خلف الله ، علي مبارك واثاره ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

بالحقيقة ما هي إلا مسامرات ، وان تكون على طريق الحوار بين عالم الدين والمستشرق البريطاني ، إذ يبلغ عدد هذه المسامرات مائة وخمسة وعشرين مسامرة ، وكلها كما ترى تشرح معارف عامة ومسائل ثقافية لا غنى عنها ، وتدل هذه القصة على تنوع ثقافة علي مبارك وعمقها ، وهي ثقافة علمية اكثر منها ادبية وفنية ، وهي ثقافة تفيد القارئ الحديث كما كانت تفيد القارئ القديم [١] .

محتوى الكتاب :

يبدأ الكتاب بقصة (علم الدين) بالتعريف بعالم الدين ، وبنشأته بقرية من قرى مصر لاب من (رجال الدين في الريف) ، ورحيله لطلب العلم في الجامع الازهر ، وما كان من تحصيله (العلوم النقلية والعقلية) ، واختياره مواصلة العلم على أن يخلف اباه في وظيفة الإمامة بالقرية ، ثم ما كان من امر معاشه مع اخوته في القاهرة ، وزواجه وخلفه وممارسته التعليم في الازهر الشريف ، وهذا هو محتوى المسامرات (الخمس الاولى) من الكتاب ، وهي بمثابة التمهيد لفكرة الرحلة إلى اوربا التي تناقشها (المسامرة السادسة) التي تبدأ بنهايتها ، ومحور المسامرات الخمس الاولى هو نقد طريق العلم والحياة ، الموروث من خلال قصة (علم الدين) .

ويبدو أن هذا النقد ضمنيا من خلال الوصايا ، التي يحملها والد علم الدين لولده ، وهو في طريقة إلى الازهر ، عن آداب العلم والتعلم ، والواقع أن هذه الوصايا تتخطى افاق هذا (الفقيه) الذي جل علمه هو (تلاوة القران ، وما يلزم للإمامة ، وعقد الزواج) [٢] .

ومفهوم العلم في هذه المباحث لا ينحصر في العلوم الازهرية النقلية والعقلية وانما تقاس العلوم ، كما تقرأ في الوصية التاسعة (بشرف الثمرة) و(ثاقة الدليل) : " فعلم الحساب وعلم الطب مثلاً اذا نسبتهما لبعضهما وجدت علم الطب اشرف باعتبار ثمرته ، فان ثمرته حفظ البدن ، وثمرة الحساب حفظ المال ، ووجدت علم الحساب اشرف باعتبار قوة ادلته وان كان كثير منه بالتخمين والحساب مبني على اليقين ، وعلى هذا اشرف العلوم علم الدين لان ثمرته حفظ الأرواح ونجاتها من الوبال الابدي ، ولا يظن من تعظيم علم الدين وتفخيمه تهجين غيره من العلوم وتقييمها " [٣] ، " وايا ما كان القول ببطلان علم أو فن فينبغي أن يعرف الشيء نفسه " [٤] .

---

[١] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، المصدر السابق ، ص ٩٧ – ٩٨ .

[٢] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، ص ٣٥ .

[٣] ناجي نجيب ، رحلة علم الدين للشيخ علي مبارك ، (بيروت – ١٩٨٣م) ، ص٣٠ .

[٤] المصدر نفسه ، ص٣١ .

ويمكن القول ان خلفية مفهوم هذا العلم هي العلوم الوضعية الحديثة ، ومنها ينتج السؤال عن نتاج العلم (وثمرته) ، وما يستند عليه العلم من حقائق وبراهين ، إذ أن الاهم هو ما يعبر عنه طريق علم الدين ، فهو يهجر طريق الاباء المالوف ويرفض وظيفة (الفقيه) ، فهي لا ترضيه من شتى الوجوه ، والذي تؤول إليه هذه الوظيفة هو : " رجل ضرير من أهل القرية يحفظ القران ، وكان عمله من قبل هو أن يملأ مضيئة الجامع " [١] ، ولكن الاجتهاد في سبيل العلم والإخلاص له لا ينتهي بعلم الدين ، إلا إلى العيش في قلة مذلة ، وفي ضيق مادي ، وهو ما يفجر نقد طريق العلم والحياة الموروث ، ويأتي هذا النقد على لسان زوجة علم الدين خلال مناظرة بينهما : " بعد السؤال عن الحكمة في فقر أصحاب الفضل والعلم ، تدعو زوجة علم الدين زوجها إلى هجر الازهر ، والعودة من جديد إلى الريف والى مهنة ابيه ، فهو لم يحرر نفسه بالعلم من ضيق العيش ، ثم أن العلم الأزهري يعيش في دائرة ضيقة مغلقة ، ولا نفع منه في نشر التعليم العام أو في تعليم من هم في اشد الحاجة إلى العلم بالأمور الضرورية " .

ويضيف علي مبارك حول هذا الموضوع على لسان زوجة علم الدين قائلا : " وان كان مرادك من العلم امر الدنيا ، فها انت لم تحصل منه على الغرض ، وان كان مرادك الدين والتقرب إلى الله سبحانه ، فقد قلنا أن تعليمك للمحتاجين اشد الاحتياج للأمور الضرورية من دينهم اولى ، واقرب إلى الله واكثر ثوابا مما اراك تقضي فيه عمرك وتشغل به اوقاتك من البحث والجدال ، والقيل والقال ، والجواب والسؤال ، والحل والاشكال ، واعترض واجيب وفيه نظر ويرد عليه ، وقد يقال ولا يقال ، ونحو ذلك مما انت عاكف عليه ومنهمك فيه ، ومقتصر على تعليمه لجماعة من الناس في موضع معين من الجامع الازهر لا تتجاوزه ولا تتخطاه إلى غيره ، كأنما جاء التنزيل والنص القاطع بان العلم لا يتجاوز ذلك الموضع من ذلك الجامع " [٢] .

ويتطور هذا الحوار إلى نقد مفهوم العلم التقليدي ، فالعلم الحقيقي كما تقول زوجة علم الدين هو العلم الذي يجد مجاله في التطبيق والاستخدام وحصول المنفعة كما يتضح من قولها : " والعامل بعلمه ينفع نفسه وغيره " .

واما من اقتصر على العلم الملحق بالعلم الحقيقي أي العلم الوسيط (كالصرف والنحو والبيان والعروض) لم يكن عالما حقيقيا ويلزم من يدرس أي علم أن يعرف قبل تعبه ثمرة علمه وطلبه ، " والا كان كراكب البحر من غير دليل " ، ولكن ماذا عسى الشيخ علم الدين أن يفعل ؟ تقول زوجة علم الدين : " فلا اقول لك اترك الفقه وانقطع إلى الطب أو الهندسة أو الفلاحة مثلا ،

---

[١] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، ص٢٦ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ٥٣ – ٥٤ .

بـل اقـول يلـزم أن تكـون موظفـا بوظيفـة تعمـل فيهـا بعلمـك وتنفـع وتنتفـع ... فـان اجتهـدت في ذلك وسعيت ولم تصل ، فاعلم أن الذي تعلمته غير ما كان يلزم أن تتعلمه ، أو أن هذا البلد غير البلد الذي ينبغي لك أن تقيم فيه فاما أن تغير الفن أو تغير البلد ... " [١] .

ومن خلال هذه المناظرة بينه وبين زوجته ينتهي علم الدين إلى ضرورة البحث عن عمل يحقق له اسباب السعة والكرامة ولو ادى به الأمر إلى (الرحيل عن البلد) [٢] ، لانه حسب رأي علي مبارك : " الغربة في الفقر لا في التغرب " [٣] ، وفي سبيل ذلك يقبل علم الدين مشاركة مستشرق انجليزي في تصحيح معجم لسان العرب تمهيدا لطبعه ، ويقبل دعوته له بالسفر إلى اوربا خلال شهور الصيف ، وهذه حيلة فحسب ، فالغاية هو طرح موضوع الرحلة والدفاع عنها ، وبيان منافعها ، وهو ما يستغرق اغلب صفحات المسامرة السادسة .

ويبدو أن أسباب الرحيل في (علم الدين) (١٢٩٨هـ / ١٨٨٢م) ، لا تختلف كثيرا عنها عند رفاعة رافع الطهطاوي في مؤلفه (تخليص الابريز في تلخيص باريز) (١٨٣٣) ، فهي من اجل الحصول على الفنون والصنائع المفقودة ، ومن اجل الاطلاع والمقارنة ومعرفة اسباب القوة والثروة [٤] ، ويمكن القول أن ما يميز علي مبارك هو تاكيده على جانب المعرفة الحسية والوضعية ، فالرحلة ضرورية حتى يرى الإنسان الاشياء رؤية العين ، ويعرفها معرفة اليقين ، والرحلة من منظاره مطلب عام يقتضيه التطور .

ويؤكد علي مبارك في هذا الصدد قائلا : " بل ينبغي لكل عاقل أن يطوف ما استطاع من البقاع ليرى ما لأهلها من الاحوال والعادات ، وما يترتب على كل حالة وعادة من المضار والفوائد ، ويقارن بينها وبين ما هو جار في بلاده وبين أهل وطنه ، وينبههم على ما رأى نفعه وما علم ضرره ، فاذا رأى أهل جهة من الجهات اعظم ثروة وقوة وراحة ، نظر بعين التأمل في منابع ثروتهم وموارد راحتهم وقوتهم ، فعرّف بها أهل وطنه ، واذا رأى أهل صقع من الارض بعكس ذلك ، اجتهد في معرفة اسبابه ، وبالنظر والتأمل والمقارنة بين احوال ذلك الصقع وغيره ، حتى اذا علمها تحققها ، حذّر منها اخل بلاده بقدر اجتهاده ، ويكون اذا اخبر بشيء من ذلك مخبرا عن عيان ويقين لا عن سماع وتخمين " [٥] .

---

[١] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، ص٦٨ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٦٩ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٧٩ .

[٤] المصدر نفسه ، ص٢٥٨ .

[٥] المصدر نفسه ، ص٨٥ .

وينبع اختيار علي مبارك لأشخاص الرحلة من أغراضها ، وهي لا تقتصر على المشاهدة وبيان الفنون والعلوم ومعالم المدينة الحديثة وانما تشمل المقارنة والحوار بين الشرق والغرب ، والرد على الغرب ، لذا كلف شريك الشيخ علم الدين في الرحلة مستشرق قد درس التاريخ الاسلامي وجاء إلى (بلاد المشرق) ، " للوقوف على حقيقة الملة الإسلامية ودرجة علمائها " [١] ، وفضلا إلى ذلك أن الشيخ الازهري والمستشرق البريطاني لا يكفيان لتحقيق اغراض الرحلة التعليمية والتربوية ، فانضم اليها منذ البداية (برهان الدين بن علم الدين) ، والتحق بهما خلال هذه الرحلة انجليزي يدعى (جيمس أو يعقوب) ، فأصبح مرافقا ومرشدا لهم ، إذ إن المؤلف يضم هذا الاخير إلى هذه الرحلة لتحقيق اغراض أخرى .

وتبدأ الرحلة ببداية المسامرة السابعة ، ويستغرق السفر من مصر إلى الاسكندرية أربع مسامرات هي على التوالي : (٧. السكك الحديدية ، ٨. طنطا ، ٩.الموالد والاعياد والمواسم ، ١٠. شتى) ، وكذلك تستغرق الاقامة في الاسكندرية حتى الابحار ، المسامرات الاربع الاتية هي : (١١. الخانات واللوكندات ، ١٢. النساء ، ١٣. البوسنة ، ١٤. المكاتبة) ، أن علم الدين وولده يستقلان القطار لأول مرة .

ويضيف علي مبارك في هذه المسامرة : " قال الشيخ : اتفكر في هذه الباخرة الجارة لهذه العربات ، وأتأمل فيما لها من الحركة العجيبة وشدة السرعة الغريبة ، التي حملت الاغراض من بعض العامة على أن يقولوا ، انها انما تسير بقوة جماعة من الجن والشياطين مسخرة لها بواسطة العزائم والسحر والطلاسم وامثال ذلك ... وقد عرفت انها تسير بواسطة النار التي ارى كثرة دخانها وافواج شرارها المتطاير ، ورايت قبيل ركوبنا رجلا منشغلا بإضرامها وتفقد امرها في تلك الباخرة ، ولكني لم اعرف صورة استعمالها في هذه الحالة وكيفية الانتفاع بها في تحريك تلك الالة ... " [٢] .

ويجيب المستشرق البريطاني على استفهام علم الدين ، فبشرح عمل الالة البخارية وتطورها ومنافعها ، ثم القاطرة البخارية والسكك الحديدية وتكاليفها وعوائدها واستخداماتها ، ومدى انتشارها في العالم وحوادثها ، ويوضح ذلك الكثير من الاحصاءات والارقام والمقارنات بين فرنسا وبريطانيا ، وتنتهي هذه المسامرة بالوصول إلى طنطا ، فيكون هذا مدعاة للمستشرق أن يسال صاحبه الازهري عن السيد البدوي وموالده ، وعن نشأة هذا الموالد واغراضها ، وهذا هو موضوع المسامرة الثامنة والتاسعة ، اما المسامرة العاشرة فهي بعنوان (شتى) ، وبها مواضيع متفرقة ، فيؤرخ

---

[١] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، ص٣٤٣ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٨٩ .

لنا تاريخ انشاء السكك الحديدية في مصر (في بر مصر انشئ الوابور عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م) [١] .

وينتقل الحديث إلى تأمل فوائد البخار في الزراعة والصناعة ، وفي تقريب البلاد والامصار وفي تدرج الإنسان في مدارج (الكمال) : " فهذا الإنسان قد سخر الطبيعة لأغراضه ، فجميع الحيوان ، والنبات ، والنار ، والهواء ، والتراب ، والماء خاضع لسطوته ، ومذعن لباسه وصولته ، فمثل الإنسان بالنسبة لغيره كالملك بالنسبة لرعيته ، وذلك بمقتضى ما منحه الله سبحانه من خلافته " [٢] ، ويتدرج الإنسان في رحلته عبر الزمن من حال إلى حال سائرا في طريق التقدم: " وقد وصل إلى ما وصل إليه من الكمالات العظيمة والدرجات العالية بالتدريج والتقدم شيئا فشيئا ، فكان كلما انكشف له من سر من الاسرار أو وقف على شيء من الاثار بحث عن غيره وطلب ما فوقه وهكذا ... وكلما اطلع على سر استنتج منه غيره ، وبهذه الطريقة وصل إلى القوانين العمومية ، وجميع ما استكشفه لم يكن إلا نتيجة بحثه في الموجودات ونسبته إلى بعضها " [٣] ، " حتى وصل إلى الدرجة التي هو عليها الان ، وان كانت ليست الدرجة التي يجب الوقوف عندها " [٤] .

ويلخص لنا هذا الحوار فلسفة الرحلة إلى اوربا ، واسباب طلب العلوم والفنون الجديدة ، وعلى نسق مشابه يسير الحوار في مواضع شتى ، فصاحب الرحلة يؤمن بالتطور والتقدم ، وبالعلوم الوضعية التي هي مدار المعرفة الحقيقية ، ويكاد يرى جميع مظاهر الحياة تحت مفهوم (التقدم) و (التأخر) ، ويرتبط التقدم في منظاره باتساع المعارف وازدياد الثروة والقوة ، ونجد أن المسامرات الثلاثة التالية حتى الابحار من الاسكندرية هي : (الخانات ، واللوكندات ، والنساء والبوسنة والمكانية) ، وتتبع موضوعاتها من لقاء علم الدين بمظاهر الحياة التي يجهلها ، ومع العادات والاعراف الغريبة عليه ، إذ تتابع مراحل الرحلة ومسامراتها على هذا المنوال وتنوع موضوعات الحديث في اتجاهات مختلفة [٥] ، ورحلة علم الدين لها بداية ولكنها من دون نهاية ، وحين تصل إلى المسامرة الاخيرة ، وهي المسامرة الخامسة والعشرون بعد المائة ، لا تزال في الطريق ، ومسار الرحلة هو الاطار الذي يستخدمه المؤلف ليشير ما يعني له من موضوعات ومحاورات ، وينضم إلى علم الدين وبرهان الدين والمستشرق الانجليزي وهم في الباخرة في طريقهم

---

[١] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، ص١٦٥ – ١٦٦ .

[٢] المصدر نفسه ، ص١٨٠ .

[٣] المصدر نفسه ، ص١٨١ .

[٤] المصدر نفسه ، ص١٨٣ .

[٥] المصدر نفسه ، ص١٨٤ .

إلى مرسيليا شخص جديد هو يعقوب ، وهو مغامر انجليزي يستعين به المؤلف كي يضمّن رحلته بعض قصص المغامرات والاسفار والعادات الغريبة ، وليوسع دائرة الحديث في ابواب التاريخ الطبيعي ، وتستغرق قصة يعقوب (١٥) مغامرة ، وهي: (٥٣ – ٥٨، ٦٩ – ٧٣، ٧٧– ٧٩) .

ويبدو مما تقدم أن علي مبارك حينما كتب لنا قصة يعقوب التي تتمحور حول إبحاره من اجل التجارة والمغامرة ، كان قصده أن النجاح والربح والاغراء يكون في البداية ثم بعد ذلك يأتي الفشل في الاعقاب ، إذ تهب عاصفة وتغرق السفينة التي فيها يعقوب ، فينجو ليجد نفسه وحيدا في مكان ناء بعيدا عن المدينة ، فيتحايل على العيش وحده ، غير انه يقع في اسر قبيلة من القبائل الافريقية في ساحل الذهب ، وفي النهاية يصف لنا حياته كتابع لاحد رؤساء القبائل ثم نجاته ودعواته ، ويتخلل قصة يعقوب فقرات طويلة عن غرائب العادات والديانات والعبادات ، وكذلك في وصف النبات والحيوان ، وبذلك فان علي مبارك يكتب هذه القصة تحت تأثير كتب الرحالة والمغامرين الاوربيين الذين يصفون غرائب العادات والاعراف في الاماكن النائية غير المتحضرة بل يقرر أن نجاة يعقوب كانت على يد الرحالة المعروف (بوسمان) [١] .

ويخصص المؤلف اكثر من ثلث صفحات الكتاب (٤٣ مسامرة من مجموع ١٢٥ مسامرة) للحديث في ابواب التاريخ الطبيعي [٢] ، ويثير الاهتمام بالعلوم الطبيعية السؤال عن اهمال الشرق لها ، وقد كان المسلمون في صدر حضارتهم حملة هذه العلوم ، ويفرد المؤلف لهذا الموضوع مسامرة بعنوان (السلف والخلف في الاسلام) ومجملها : " أن التمدن الاسلامي كان في أصله مؤسسا على العلم والعدل اللذين هما اكبر دعائم الدين " [٣] ، ولكن حل محله تمدن " اساسه البغي والظلم وقهر العباد " ، فانقسمت الامة إلى (حاكم ومحكوم) ، إذ يختص الأول بـ (المزايا ، والرتب ، وتحصيل الاغراض والشهوات ، في حين انسان القسم الثاني في طريق الذل والقهر ، وتجرد بالتدريج عن مزايا الشرق حتى كاد يلحق بالحيوان البهيمي الذي يتصرف فيه مالكه [٤] ، وتعرضت مسامرات الرحلة إلى جانب ذلك لبعض مظاهر المدنية في فرنسا ، ومنها (التياترات ، والقهوة ، والبالو ، والبانكات ، واوراق المعاملة ، والمستشفى) التي كانت في وصف بعض انحاء

---

[١] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، ص٦٩١ .

[٢] يشمل التاريخ الطبيعي علوم الحيوان والنبات والجيولوجيا والحفريات والمعادن والبيئة الطبيعية ، وهذه بجانب ابواب الصناعة والتكنولوجيا ، لمزيد من المعلومات ينظر : بشاره زلزل ، في التاريخ الطبيعي واقسامه وشدة الحاجة إليه ، مجلة المقتطف ، السنة الاولى ، المجلد الأول ، (القاهرة –١٨٧٦) ، ص ١٠٠ – ١٠٣ .

[٣] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، ص١٣٥٠ .

[٤] المصدر نفسه ، ص١٣٥٠ – ١٣٥١ .

باريس وفرنسا ، وكذلك تعرضت لمحاورات قصيرة عن العادات والاعراف والاخلاق واختلافها بين الشرق والغرب .

وتجدر الاشارة إلى أن المقارنة بين صاحب اول رحلة إلى فرنسا (رفاعة رافع الطهطاوي) وبين (علي مبارك) تستنتج الاتي : أن رفاعة رافع الطهطاوي في كتابه (تخليص الابريز في تلخيص باريز) وصف فيه باريس ، بينما علي مبارك في كتابه (علم الدين) يصف لنا في مسامرة (فرساي) نشأة فرساي وهندسة المكان وما تقلب عليه من احوال ، ويعلق على ذلك بقوله : " بان تاريخ هذه البقعة مشهور بين الخاص والعام من أهل اوربا " [١] ، ويذكر علي مبارك أن الملكية الفرنسية انتهت إلى ما انتهت إليه كما هو مذكور في تواريخ الامة الفرنسية ، وترتب على ذلك تدوين الاحكام السياسية والقوانين الفرنسية وظهور نابليون [٢] ، ونخلص إلى نتيجة مفادها انه لا وجه للمقارنة بين الاثنين إذ يبدو الخلاف بينهما واضحا ، وهكذا كانت رحلة (علم الدين) وهي رحلة تعليمية تربوية موضوعها الرئيس هو العلوم الوضعية والطبيعية التي هي في منظار علي مبارك اساس التمدن الحديث ، ومن هذه العلوم ينبع مفهوم المعرفة الذي يدعو اله ، وتنبع ضرورة الخروج والرحلة .

٣. كتاب نخبة الفكر في تدبير نيل مصر :

وهو كتاب له اهمية كبيرة في دراسة تاريخ نهر النيل وفيضانه ونظام الري ومشاريعه في مصر [٣] ، وتم طبع الكتاب في مطبعة وادي النيل العربية والاوربية في القاهرة في عام (١٢٩٨هـ / ١٨٨٢م) ، ويقع الكتاب في (٢٩٦) صفحة من القطع المتوسط ، منها (٩٢) صفحة مكتوبة على جدول النيل السعيد ، ويشتمل الكتاب على مقدمة وأربعة أبواب ، إذ يتحدث فيه المؤلف عن تاريخ مصر ملخصا ، ويبين كيف أن سعادة مصر وشقاءها يتوقفان إلى حد كبير على تدبير مياه النيل ، إذ يعقد الباب الأول منه لدراسة النيل وما يتعلق به من مسائل ، ويحتوي على عشرة فصول ، ويتطرق الباب الثاني على (تكوين وادي النيل) ، ويحتوي على تسعة فصول ، واما الباب الثالث فيتحدث عن (اهالي القطر المصري) ويحتوي على فصلين ، ويتناول الباب الرابع عن (الاصلاحات) ويحتوي على فصلين ، إذ يتكلم الفصل الأول فيه عن (القناطر الخيرية والرياحات) لكي تسد حاجة فصل الصيف من سقي المزروعات ولاسيما محصول القطن[٤] .

---

[١] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، ص ١٠٤٥ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ١٠٥٣ .

[٣] جمال الدين الشيال، التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر، (القاهرة– ط١ ١٩٨٥م) ، ص١٠٩ .

[٤] علي مبارك ، نخبة الفكر غفي تدبير نيل مصر ، مطبعة وادي النيل ، (القاهرة – ١٨٧٢م) ، ص٥ .

وتنبه علي مبارك على الصعوبات التي لاقت الناس من عدم حصول الغرض من الترع فتفاوض مع ذوي الدراية في هذا الأمر فاستصوب عمل القناطر الخيرية فصمم على عملها وعمل الرياحات الثلاثة الشرقي والغربي والوسط ليتمكن الناس من التحكم بالماء وقفل ابواب القناطر [١] ، واما الفصل الثاني فيتحدث عن (سدود تعديل زيادة النيل ونقصه) ، فاذا بلغ النيل في مقياس مصر الحد الذي يفي بري البلاد قفلت ابواب السدود فحبس الماء وراءها فيعلو بالطبع شيئا فشيئا حتى يطفو فينساب من فوقها وينطلق فيما بعدها إلى اسفل النيل ، إذ يكون انحط بما اخذ منه للري فيعود يزداد بما انساب من السدود حتى يستوفي البلاد باسرها ، وكلما فضل عن الحاجة خزن في مخازنه التي اعدت له فيما بين السدود وغيرها من الاودية والفجوات على ضفتي النيل شرقا وغربا ، فاذا مست الحاجة في وقت ما من الاوقات إلى الاستسقاء كوقت الاحتراق ونحوه امد النيل من تلك المخازن بما يدفع الحاجة ، وكذلك اذا جاءت شحة المياه فانه يحد منها ، وكذلك للسدود فوائد أخرى كثيرة كأحياء جملة من الاراضي على ضفتي النيل [٢] .

ويحتوي الباب الرابع على (جدول النيل السعيد) وهو جدول يحتوي على غاية التصاريف والزيادة للنيل ، والزيادة الصرفة ، وتحوله إلى الامتار ، وذلك من ابتداء عام ٢٠هـ ، إذ يذكر علي مبارك في الصفحات الثلاثة الاولى المخصصة للجدول بعض التنبيهات التي ترشد إلى قراءة للجدول [٣] ، ويعد من احسن ما كتب علي مبارك ، فموضوعه يتصل بالمجتمع المصري اتم اتصال ، وهو يرسم سياسة مستقبلية لمصر سياسة تعتمد اولا وقبل كل شيء علي الزراعة المصرية وعلى ما يقوم عليه من تصنيع ، ثم هو يقدم بعض النتائج المستخلصة من المقارنات ، وهي نتائج تفصح في كثير من الحالات على أن احوال مصر فيما سبق كانت احسن منها حاليا ، وهنا استطاع اسماعيل صدقي المفتش أن يوغر صدر الخديوي اسماعيل ضد علي مبارك ، واذ يذكر له أن هذا الكتاب قد كتب للكيد بأسرة محمد علي وللدلالة على أن افرادها لا يعملون لخير مصر ، وتفصح عقلية علي مبارك في هذا الكتاب عن نفسها افصاحا تاما ، وهي عقلية نيرة

---

[١] السدود : وهي عبارة عن جسور توطد بحيث تقاوم متانتها فعل القوى المؤثرة عليها ويكون بها فرج ذات ابواب من حديد تفتح وتغلق بالإرادة لاجتياز المراكب واطلاق المياه . لمزيد من الاطلاع ينظر : علي مبارك ، نخبة الفكر في تدبير نيل مصر ، مطبعة وادي النيل (القاهرة – ط١ ١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م) ، ص٢٠٢ .

[٢] علي مبارك ، نخبة الفكر في تدبير نيل مصر ، الباب الرابع ، المصدر السابق ، ص٢٠٢ .

[٣] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، المصدر السابق ، ص٩٩ .

مشرقة تبحث عن الداء في دقة قبل أن تصف الدواء في يقين ، وتقيم البحث عن ادواء على اسس علمية تعصمها من الزلل وتحول بينها وبين الاخطاء ، ثم هي تسد خطاها وتنير لها الطريق [١] .

ويتحدث علي مبارك في هذا الكتاب عن تعداد أهل القطر المصري فيقدم بين يدي هذا الحديث بمقدمة تعد دليل في بيان فوائد التعداد للامم والحكام وللتقدم العمراني ، إذ يقول : " أن دولة مصر في سالف عهدها كانت شديدة العناية بتعداد اهلها علما منها بحالة من الدخل الكلي في ادارة المماليك وتدبيرها لها وذلك من وجوه " ، منها انه يتعذر على صاحب الدولة أن يدبر امورها على الوجه الاكمل إلا بعد علمه بمقدارهم حتى يعلم كيف ينظم احواله الداخلية وعلاقاته الخارجية ، وكيف يرتب قوته العسكرية لحفظ الراحة وحماية المملكة قياما بما يجب عليه من الدفاع عنها والمنع ، وكيف يدير احوال البلاد ويقيم معالمها ويجري منافعها بما لا يخرج عن طوق العباد من التكاليف والاعمال [٢] .

ويضيف في هذا الصدد : " أن احصاء الرعية يوقف الراعي على ما وقع بها من قلة أو كثرة في عددها حتى اذا كان الأول نظر فيما يتلاقى به اسباب النقص منعا لما يورثه من ضعف القوى واختلال النظام إلى غير ذلك مما يقوم به قوام المدينة ، وبشد ازر الهيئة الاجتماعية ، وعلى ذلك قد جرت عام الدول البصيرة ، على أن المتمدن منها لم تقتصر في الاحصاء على حصر الاهالي فقط ، بل توسعت فيه حتى لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها ، فشمل التجارة والصناعة وغيرها من كليات الامور وجزئياتها على تفصيل فيها ، وبيان لعللها ودواعيها ، فاذا حصر الناس مثلا في كل امر يحصيه مستوعبا جميع احواله الراهنة وما كان عليه قبلها ، مبينا النسبة بينهما وما هي علة التفاوت ، وان كان هناك تفاوت ونحو هذا ، فكان ذلك الفن ادل دليل زاد الدولة معرفة بأحوالها ، واستبصارا بأمورها ، واهدى هاد سلك بها سبيل حسن الادارة والتدبير يوقفها على ما يورثها نقصا في شيء من الاشياء فتتلقاه بمنع ما استدعاه ، ويرشدها إلى ما يفيدها زيادة ونجاحا فتأخذ به وتحرص عليه ... " [٣] .

ويتحدث في هذا الكتاب عن اخلاق المصريين فيصفهم وصف الخبير العالم بأسرار النفوس وطبائع المجتمع ، ويقول : " بل اقول قولا ربما لا اصادف فيه نكيرا ، أن المصريين هم اقرب الناس إلى الاصلاح ، واسرعهم تقدما في سبيل الفلاح ، اذا وجدوا حاملا على ذلك ، فان من طباعهم الفطرية لين العريكة وسهولة الاخلاق ، وجمودة الفطرة ، والصبر والرضا بالقليل ،

---

[١] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، المصدر السابق ، ص٩٩ .

[٢] المصدر نفسه ، ص١٠٠ .

[٣] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص١٢١ – ١٢٣ .

وحسن القناعة ، وهذه الاخلاق قضت بها طبيعة بقعتهم وسهولة المعيشة فيها ، ولم يأتِ عليها من الحوادث ما يغيرها ، بل هي ثابتة في جميع الاحوال والازمان على ما ينبئنا به تاريخهم القديم والحديث ، فمتى قادهم قائد إلى امر من الامور تبعوه راعاً لا يتوقفون ، ولا تأخذهم في ذلك عزة ولا يقعدهم عناء ولا لجاج ، وان كلفوا باي عمل من الاعمال سواء كان شاقا ام غير شاق ، وتحققت لهم منه امال صادقة ثبتوا فيه ، وداموا عليه اناء الليل واطراف النهار ، فمتى وجدت الهمم إلى اصلاحهم فلا يحتاجون إلى كثير وما ترتب عليه في الاصلاحات ، في علة تأخر الزراعة فيما اثرته حالة الفلاحة الحالية في التجارة والصناعة في الاشجار " [١] .

وأشار علي مبارك إلى كتاب ثقافي عند حديثه عن مكاتب ومدارس الاسكندرية ، وذكر لنا انه قد طبع كتاب يقول عنه : " لما كان مبنى الامور الدنيوية بل والاخروية ليس إلا على حسب التربية الاولية ، إذ على حسب البداية تكون النهاية ومن لم يكن له في بدايته قومه لم يكن له في نهايته نومه ، كان ممن احاط علما بذلك ورغب في تربية ابناء وطنه والاقتفاء بهم اقوم المسالك حضرة الخديوي اسماعيل احسن الله اعماله ، وانجح في سبيل الخير اماله ، وضع لذلك قوانين سلكت بابناء الوطن طريق التقدم حتى وصلوا بها في اقرب زمن إلى ما لم يصل إليه من مضي وتقدم " ، ويؤكد : " اننا بسطنا فيه الكلام عن التربية في الديار المصرية والاقطار الاورباوية فليرجع إليه من اراد الاطلاع عليه ، إذ ليس غرضنا الآن إلا ذكر المكاتب والمدارس الموجودة في مدينة الإسكندرية " ، ويذكر لنا الدكتور محمد احمد خلف الله أن هذا الكتاب لم نجد له اثر أو اشارة تدل عليه ، غير كلام صاحبه عنه [٢] .

وكذلك من الكتب التي اشير اليها ولم تطبع ، كتاب اشار إليه الدكتور محمد بك دري الحكيم في كتابه (تاريخ حياة المغفور له علي مبارك) واسمه (اثار الاسلام في المدينة والعمران) ، ويقول عنه : " فكان هذا الكتاب آخر عمل مبرور له وخاتمة سعيه المشكور فانه نعم الكتاب ، شرح فيه كل ما ادخله الاسلام من العمران في الممالك ، وما ترتب عليه من المدنية والنظام ، وما تضمنه من الحكم والعلوم العالية بعبارات تكفل بيان المطلوب على وجه صحيح ومقبول ، إلا أن هذا الكتاب لم يطبع إلى الآن [٣] ، غير أن المؤلف اكمل تأليفه وتبييضه واعطاه لاحد افاضل العلماء الازهريين ليعيد نظره عليه ، ويدقق في مراجعة اصول الاحاديث النبوية فيه ، فكان كذلك وقرأه إلى آخر حرف فيه ، وكتب بما رآه من بعض ضبط الروايات ، في الحديث عدة اوراق الحقها

---

[١] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص١٢٣ .

[٢] محمد احمد خلف الله ، علي مبارك واثاره ، المصدر السابق ، ص٢١٤ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٢١٥ .

بذلك الكتاب ، وهو باق في خزانة مؤلفه ينتظر من أهل العلم والعرفان التفاته إلى طبعه لتعمم الفائدة ويعرف فضل الاسلام في تقدم البلدان [١] .

علي مبارك وفاعلية النشاط الثقافي المشترك :

١. المدبر الانساني والمدبر العقلي الروحاني :

وهي رسالة تقع في ثلاث عشرة صفحة ، نسبت إلى الأمام محمد عبده ، ونشرت في صحيفة (الاهرام) [٢] ، ثم نشرها الشيخ محمد رشيد رضا عام (١٨٦٥ – ١٩٣٥م) في (تاريخ الاستاذ الأمام) ، واثبت أن مترجمها هو علي مبارك ، وان دور الأمام محمد عبده فيها هو دور المراجعة والتقويم اللغوي لاسلوبها ، إذ تم تصحيح الخطأ الوارد في الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، واثبت انها رسالة مترجمة ، وهناك حقيقة ذكرتها صحيفة (اللواء) [٣] ، تتحدث عن بدء العلاقة بين محمد عبده وعلي مبارك بالقول : " ... واول نجم اضاء في سماء حظ الفقيد أن المرحوم علي مبارك باشا (ناظر المعارف) ترجم رسالة في (الروح والجسد) ، ثم اعطاها للأستاذ الفقيد ليكتبها في قالب فصيح، لما بلغه عنه من زيادة الاقتدار، فكتبها بعبارة بليغة اعجب بها علي مبارك باشا ، واراد أن يكافئ الفقيد فعينه معلما لأولاده" [٤] .

٢. مجلة روضة المدارس :

وهي مجلة علمية ادبية ثقافية اجتماعية ، تمثل هدفها في احياء الاداب العربية ونشر المعارف الحديثة ، وقد انشاءها علي مبارك عام ١٨٧٠م عندما كان ناظرا للمعارف في عهد الخديوي اسماعيل [٥] ، وقد اختار علي مبارك رفاعة رافع الطهطاوي ليكون رئيسا لتحريرها ، وقد ساعد رفاعة في تحريرها نخبة من أعلام الفكر وتلاميذ الالسن امثال علي مبارك ، وعبد الله فكري ، وصالح مجدي ، وابو السعود افندي وغيرهم [٦] ، ويرجع اصل تسمية المجلة بهذا الاسم إلى الخديوي اسماعيل الذي اصدر أمرا أن يكون لتلاميذ المدارس صحيفة يسميها بهذا الاسم ويكون صدورها شهريا [٧] .

---

[١] محمد احمد خلف الله ، علي مبارك واثاره ، المصدر السابق ، ص٢١٥ .

[٢] صحيفة الاهرام ، رسالة الأمام محمد عبده ، العدد الحادي عشر ، القاهرة ، ٣٠ كانون الاول عام ١٨٧٦م .

[٣] صحيفة اللواء ، مقال ، العدد ٧٦٩ ، ١٢ تموز عام ١٩٠٥م .

[٤] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي للإمام محمد عبده ، الجزء الأول، (بيروت – ١٩٧٢) ، ص٢٠٨–٢٠٩ .

[٥] خليل صابات ، الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم ، دار المعارف في مصر ، ط٢ ، ١٩٦٧ ، ص٩٣ .

[٦] عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة– ط٣ ١٩٥١) ، ص ٥٢٥ .

[٧] إبراهيم عبده ، أعلام الصحافة العربية ، القاهرة ، ط٢ ، د.ت ، ص٢٢ .

ويكشف لنا المقال الافتتاحي للمجلة عن الخطوط الرئيسة التي تسير عليها ، والهدف الذي تسعى إليه متمثلا بالابتعاد عن الامور السياسية ، إذ نصت على أن : " من وظائفها تقييد الاحوال السياسية الوقتية ، والافعال الرئاسية والادارية " ، وانما واجبها " نشر الفوائد العلمية الفائقة ، وذكر جوامع الكلم الحكمية الرائقة ، ورقائق الفقهاء العصريين ، ودقائق العلماء الماضين " [١] ، واشار رفاعة الطهطاوي في المقال الافتتاحي للمجلة إلى انها ستكون اداة لنشر الرسالة الثقافية لديوان المدارس المصرية ، وهي اعمام العلوم ونشر الفنون ، ومداولتها بين جميع ابناء الوطن ، واشار إلى انها ستكون " بقلم سهل العبارة ، واضح الاشارة والفاظ فصيحة غير حوشيه ولا متجشمة لصعب التركيب ... " [٢] .

ويبدو أن مجلة روضة المدارس لم تكن مجلة مدرسية بالمفهوم المحدد للمجلات التي تصدرها المدارس ، ولم تكن مجلة ادبية ثقافية فحسب على الرغم من أن كثيرا من الأدباء والشعراء اسهموا في تحريرها ، ولم تكن مجلة علمية على الرغم من انها ضمت صفحات اختصت بالعلوم ، بل أن خير وصف لها (الجامعة) التي صبت فيها كل العناصر الثقافية والعلمية والادبية والفنية بعد أن جعلها رفاعة تخرج بهذا الشكل الحاوي والصاهر لكل ما يدور في المجتمع المصري من تيارات واتجاهات ، في محاولة لتوجيهها نحو هدف واحد هو خدمة الوطن وتحقيق نهضته [٣] ، وكان لمجلة روضة المدارس الاثر المهم في الحفاظ على اللغة العربية الفصحى ، فقد خطت خطوة رائدة في هذا المجال بعد أن جعلت اللغة العربية لغة الاداء ووسيلة التحرير ، وساعدها في ذلك محرروها وكتابها الذي كانوا من نوابغ الفكر العربي الذين استقامت لغتهم وسلمت عباراتهم حتى قادها إلى رفض استخدام اللغة العامية [٤] .

وانصبت عملية الاصلاح أو التحديث التي قادها رفاعة رافع الطهطاوي على احياء تراث هذه الامة وامجادها ، فقد كانت اللغة وآدابها اولى المهام الرئيسة مما جعله يوجه اداة التحديث (الصحافة) لخدمة هذا الغرض حتى اضحت له عملية احياء اللغة خير وسيلة في ايجاد الشعور المشترك لأبناء الامة الذي يساعد على بعثها ووحدتها ، وكانت عملية الاحياء هذه هي البذرة

---

[١] محمد عبد الغني حسن و عبد العزيز الدسوقي ، روضة المدارس نشأتها واتجاهاتها الادبية والعلمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص٤١ .

[٢] محمد خلف الله احمد ، معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها ، ج١ ، (القاهرة – دار احياء الكتب العربية ١٩٦١) ، ص١١ .

[٣] عبد الكريم حسين الشباني ، المصدر السابق ، ص١٥٢.

[٤] محمد عبد الغني و عبد العزيز الدسوقي ، روضة المدارس ، المصدر السابق ، ص٩٥ .

الاولى للشعور القومي العربي [١] ، واولت المجلة اهتماما كبيرا بالأدب لما كان يتمتع به رفاعة رافع الطهطاوي من قريحة شعرية نمت معه عندما كان طالبا في الازهر ، إذ اغنى المجلة بقصائد شعرية ، وساعده في ذلك مجموعة من الأدباء ، امثال عبد الله فكري الذي كتب فيها المقالات ، وعلي فهمي رفاعة الذي اغنى المجلة بالآدب الانكليزي المترجم ودراسات عن الشعر ، وصالح مجدي بقصائده الشعرية ، واسماعيل صبري وغيرهم ، هذا بالإضافة إلى جهود رفاعة في القصة المترجمة التي يرجع له الفضل في ادخالها لأول مرة في الأدب العربي [٢] ، وكان لمجلة روضة المدارس اهتماما بالعلوم كالرياضيات ، والهندسة ، والكيمياء ، والصيدلة والطب ، والزراعة وغيرها من العلوم الاخرى التي تحتاجها الدولة لإقامة بنيانها المادي وتقدمها الحضاري ، فضلا إلى ذلك فقد عنيت المجلة بالعلوم الاجتماعية كالتاريخ ، والجغرافية ، والاجتماع ، والتربية ، فضلا إلى الفلسفة ، والمنطق ، والفلك .

ظهر دور المجلة في مجال الطب والصحة ، وساهم فيها عدد من العلماء الذين اكملوا دراستهم في الخارج ، ومنهم : محمد علي البقلي ، واحمد حسن الرشيدي ، وفي مجال الطبيعة والكيمياء فقد لمع فيها الكيميائي منصور احمد ، وفي مجال التاريخ عنيت المجلة عناية كبيرة بالتاريخ القديم والحديث للعرب والعالم ، ولمع في ذلك رفاعة رافع الطهطاوي فنشر كتابه (نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز) في ملاحقها ابتداءً من سنتها الثالثة وتوفى قبل أن يتم طبع الكتاب ، اما في الجغرافيا التي اهتم فيها اهتماما كبيرا ، فقد ترجم كتاب (ملطبرون) الجغرافي وترجمته لمقدمة جغرافية طبيعية ، والجغرافية العمومية ، والتعريبات الشافية لمريد الجغرافية ، بالإضافة إلى البحوث الجغرافية التي كتبها بعض الكتاب الاجانب في المجلة ومنهم المهندس مسيو(نيسو) الذي كتب عن النيل والباحثين المصريين ، وفي ميدان الفلسفة نشرت المجلة الكثير من البحوث لفلاسفة عرب ويونانيين امثال فلسفة اخوان الصفا، وابن بطلان البغدادي، والكندي الرازي، وعن ارسطو وسقراط وديوجين ، وكذلك ظهر دور المجلة في مجال التربية والتعليم التي علق عليها رفاعة امالا كبيرة في هذا المجال ، فقد نشر في العدد السادس من السنة الخامسة ملزمتين من كتابه (المرشد الامين في تربية البنات والبنين) فضلا عن ذلك المقالات الاخرى للمفكرين العرب والمصريين في هذا الجانب ، ونشر في العدد الثالث من السنة الاولى للمجلة

---

[١] عبد الكريم حسين الشباني ، المصدر السابق ، ص ١٥٣.

[٢] رفاعة رافع الطهطاوي رائد الفكر العربي الحديث ، مجلة الطليعة ، مؤسسة الاهرام ، العدد السادس ، السنة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص١٧٢ .

(رسالة في البدع المتقررة في الشبع المتبررة) ، وفي العدد السادس من السنة نفسها نشر في ملحقها كتابه (القول السديد في الاجتهاد والتجديد) [١] .

واولت مجلة روضة المدارس عنايتها بشؤون المرأة والدعوة إلى تعليمها وتحررها ، إذ لم يكن يصدر عدد واحد منها دون الحديث عن المرأة ونشاطها ، أو دون نشر خطبة أو مقال لناظرة أو معلمة ، ونستنتج من ذلك أن لمجلة روضة المدارس أثرا كبيرا في عملية النهضة التي تعيشها مصر بعد أن اصبحت تجمعا حضاريا متسعا اشبه ما يكون (بمجمع) علمي وادبي وفني ، ساهم فيها الكثير من المفكرين في مختلف الاختصاصات امثال :

١. صالح مجدي : وكيل ديوان المدارس ، والمتخصص في ترجمة الرياضيات والعلوم الهندسية والعسكرية .
٢. محمود الفلكي : المع علماء الفلك .
٣. اسماعيل الفلكي : ناظر (الرصدخانة) ، وناظر مدرسة (المهندسخانة) في عهد اسماعيل .
٤. عبد الله فكري : اديب وشاعر ، تولى نظارة المعارف في وزارة محمود سامي البارودي .
٥. محمد قدري : المشرع القانوني صاحب النظام القضائي للمحاكم الاهلية الجديدة .
٦. محمد ندا : الكيمياوي والاستاذ بمدارس الطب ، والمهندسخانة ، واركان الحرب ، وصاحب الترجمات الكثيرة في الزراعة وعلم الحيوان .
٧. الشيخ حمزة فتح الله : اللغوي والاديب الشهير .
٨. عبد الله أبو سعود : الصحفي الرائد في ميدان الصحافة غير الحكومية (صاحب جريدة النيل) .
٩. الشيخ حسين المرصفي : اللغوي والاديب ، فضلا إلى الكثير من الاعلام المشهورين في ذلك الوقت [٢] .

---

[١] محمود عبد الغني حسن و عبد العزيز الدسوقي ، روض المدارس نشأتها واتجاهاتها الادبية والعلمية ، المصدر السابق، ص٢١٧–٣٢٤ .

[٢] حسين فوزي النجار ، رفاعة الطهطاوي ، سلسلة أعلام العرب ٥٣ ، (الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة ، بلا) ، ص ١٢٢ – ١٢٧ .

فكره الاصلاحي في الميدان التعليمي :

اولا : إصلاح المؤسسات التعليمية والتربوية :

لم يكن علي مبارك في جهده وعمله مقلدا يسير على الدرب ، بل كان مفكرا مبتكرا مصلحا [١] ، إذ اهتم بتحديد الهدف من التعليم انه لا يريد أن يقف عند ذلك الهدف الذي وقف عنده محمد علي بجعل التعليم يهدف إلى تكوين فئة من الفنيين الذين يستطيعون القيام بما يعهد اليهم من اعمال ، وكان يبغي الاشراف التام الكامل على التعليم ، من هنا انشأ المدارس وجمع لها الطلبة من انحاء البلاد ، واشرف على تعليمهم العقلي والمادي ، وكان محمد علي يريد شأن الحاكم المطلق أن يطمئن إلى اعداد معاونيه في حكم البلاد على النحو الذي تبغيه الدولة ، اما هدف علي مبارك فهو التعليم ذاته ، فهو غاية في نفسه غاية قومية ، وثقافة علي مبارك هي التي جعلته يحدد الغاية على هذا النحو [٢] ، بعدها ادرك علي مبارك أن التعليم يجب أن يكون وسيلة من وسائل التوجيه والبعث الجديد ، ليجعله اداة لتكوين الراي العام المستنير الذي يلبي حاجات النهضة ويحرص على الدفاع عنها [٣] .

ويبدو ان التأثر بالنهضة الدستورية الغربية قاده الى هذا الموقف من التعليم ، تلك النهضة التي دفعت الاحرار من المصريين إلى المطالبة بالحياة النيابية ، وقد اجاب الخديوي اسماعيل لهذا المطلب ، وتشترط الحياة النيابية في النائب معرفة القراءة والكتابة ، من هنا نبتت فكرة عند اعضاء البرلمان ذلك الحين ، وهي فكرة انتشار التعليم وجعله هدفا قوميا ، ووسيلة لتكوين الراي العام المستنير الذي اصبح الاساس الأول للنظام التعليمي الذي وضعه علي مبارك وصدرت به لائحة رجب عام (١ محرم ١٢٨٤هـ / ٧ تشرين الثاني عام ١٨٦٧م) [٤] .

مما تجدر الاشارة اليه الى ان علي مبارك لم يعتمد في مشروعه هذا على دعم الحكومة وحدها ، بل اتجه إلى جهات أخرى يطلب معونتها للحكومة للنهوض بالتعليم ، فاعد لمشروعه

---

[١] محمود الشرقاوي و عبد الله المشد ، المصدر السابق ، ص٥٤ .

[٢] محمد احمد خلف الله ، علي مبارك واثاره ، المصدر السابق ، ص٨٣ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٨٤ .

[٤] في (١٠ رجب ١٢٨٤هـ / ٧ تشرين الثاني عام ١٨٦٧م) شكل ديوان المدارس برئاسة علي مبارك ، وفي (٦ محرم ١٢٨٥هـ / ٢٩ نيسان ١٨٦٨م) صدر قرار المجلس المشكل لتنظيم المدارس والمكاتب الاهلية بالديار المصرية ، وهو القرار المعروف بلائحة (رجب ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م) واضطلع علي مبارك بتنفيذ لائحته . للمزيد من المعلومات ينظر : حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص٩٣ .

ميزانية شعبية تقوم على اموال الحكومة من ناحية وعلى بعض اموال الاوقاف الخيرية من ناحية أخرى ، كذلك على المساعدات المالية التي ترد من الاهالي من ناحية ثالثة ، فهو لم يشأ أن يربط التعليم القومي بميزانية محدودة يجود بها الحاكم ، وهنا تظهر فصاحة علي مبارك وبُعد نظره ووزنه للأمور والاحوال التي كان يحيا في خضمها [١] ، فهو رأى أن مصر بحاجة لمن يجيد اللغات الاوربية فانشأ مدرسة نجد في تقرير له انها كانت تضم عام ١٨٨٧م (سبعة وثلاثين) تلميذا ، وانه كان يقدم لأكثرهم اعانة من وزارته فوق مجانية تعليمهم ، وكان من هذا العدد ستة فقط بمصروفات واربعة بالمجان ، واثنا عشر ينال كل منهم في كل شهر جنيهين [٢] .

ورأى علي مبارك أن التلاميذ الذين يقف تعليمهم بعد اتمام الدراسة الابتدائية لا ينتفعون بما تعلموا ولا تستفيد منهم البلاد ، لنقص في منهج هذا النوع من التعليم ، وقصور فيما حصلوا عليه من المعارف ، فكتب بذلك للخديوي يقترح عليه أن يتم تدريسهم علوم تفيدهم في الحياة العامة ، وتهيئ لهم فرصة العمل والنفع ، واقترح أن تدرس في المدارس الابتدائية مواد مساحة الاراضي ، وامساك الدفاتر والانشاء ، والتدبير المنزلي للبنات وغيرها [٣] ، وفي ذات الوقت انشأ عددا كبيرا من المدارس في القاهرة والاسكندرية ، واسيوط ، والمينا ، وبني سويف ، وبنها ، وهيأ لها كل حاجاتها من ادوات الدراسة والمعلمين ، كما انشأ مدرستي السيوفية والغربية للبنات [٤] .

وقد شغل فكر علي مبارك في ذلك الوقت امر المدارس وتلاميذها في فصولهم وكتبهم ونشاط يومهم ، وكان يزور المدارس في كل يوم مرتين ، بعد ان جمعها قبل ذلك في مكان واحد في (درب الجمانيز) حيث كان خارج القاهرة ، وبذلك استطاع أن يزورها في طريقه من بيته إلى عمله ، ثم في عودته منها [٥] .

١. لائحة رجب (١٠ ١٢٨٤هـ / ٧ تشرين الثاني عام ١٨٦٧م) :

لم يكن علي مبارك غريبا على التعليم حين اضطلع بأموره ، وصدرت الارادة الخديوية بتعيينه وكيلا عاما لديوان المدارس ، لملاحظة المكاتب الاميرية والاهلية الموجودة في مصر والاقاليم الاخرى بإصلاحها وتنظيمها ، والاعتناء بحسن ادارتها [٦] ، ويبدو أن خبرة علي مبارك

---

[١] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، المصدر السابق ، ص٦٥ .

[٢] صحيفة اللواء ، العدد ٢٢٩٣ ، القاهرة ، في ٢٤ ايلول عام ١٩٠٧ .

[٣] المصدر نفسه ، تقرير علي مبارك إلى الخديوي ، العدد ١١١ ، ٢٩ ، القاهرة ، تشرين الثاني عام ١٨٨٨ .

[٤] الياس الايوبي ، تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل باشا ١٨٦٣ – ١٨٧٩ ، المصدر السابق،ص ٢٠٤ .

[٥] علي إبراهيم البحراوي ، علي باشا مبارك ، المصدر السابق ، ص٨٠ .

[٦] امين سامي ، تقويم النيل ، المصدر السابق ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، ص٧٢٢ .

في التعليم لم تكن هي التي حملته على التقدم بمشروعه لإصلاح التعليم بل كان اهتمامه الحقيقي بنشر التعليم بين ابناء الامة هو الذي حمله على اقتحام هذا الميدان البعيد عن فنه وتخصصه ، فما أن اثار مجلس شورى النواب [١] موضوع نشر التعليم الابتدائي حتى اعد علي مبارك مشروعا لتنظيمه ، ويشير في ذلك : " كانت المكاتب الاهلية في المدن والارياف جارية على العادة القديمة ليست فيها على قلة اهلها إلا تعليم القران الشريف ، واقل من القليل من يتمّه منهم ، ويجيد حفظه ويجوده ويحسن قراءته مع رداءة الخط عامة في المكاتب المذكورة ، فاستحسنت اجراءها على نسق المدارس المنتظمة فحررت لائحة بتنظيمها ، وترتيبها على الوجه الذي هي عليه ، ودعوت إلى النظر في هذا الترتيب جماعة من أعلام العلماء والاعيان النبهاء فنظروا فيه واستحسنوه ووضعوا خطوطهم عليه ، وصدر الأمر الخديوي بالإجراء على حسبه " [٢] .

وقد شُكّل ديوان المدارس برئاسة علي مبارك في (١٠ رجب عام ١٢٨٤هـ / ٧ تشرين الثاني عام ١٨٦٧م) ، وفي (٦ محرم ١٢٨٥هـ / ٢٩ نيسان عام ١٨٦٨م) صدر قرار القومسيون [٣] بتنظيم المدارس والمكاتب الاهلية بالديار المصرية ، وهو اقرار القرار المعروف بلائحة (رجب عام ١٢٨٤هـ) واضطلع علي مبارك بالتنفيذ ، وتشتمل اللائحة على مقدمة وخاتمة واربعين مادة في ثلاثة اقسام ، تضمن القسم الأول (المواد المتعلقة بمكاتب المدن الكبيرة) ، والقسم الثاني (تنظيم المكاتب الاولية بالقرى) ، وتناول والقسم الثالث (تنظيم المدارس المركزية التي تنشأ في مراكز المديريات) [٤] ، وتتكون الاقسام الثلاثة من المواد الاتية :

القسم الأول : من المادة الاولى إلى المادة السادسة والعشرين .

القسم الثاني : من المادة السابعة والعشرين إلى المادة الثانية والثلاثين .

القسم الثالث : من المادة الثالثة والثلاثين إلى المادة الاربعين .

---

[١] مجلس شورى النواب : عرفت مصر في عهد الخديوي اسماعيل انشاء هذا المجلس عام ١٨٦٦م الذي يمثل اول مجلس نيابي أو تمثيلي في مصر الحديثة ، وكان رايه استشاريا فيما تعرضه عليه الحكومة ، ويجتمع لمدة شهرين من كل عام ، كما عرفت مصر في عهده نظام الوزارة المسؤولة عام (١٨٧٨م) ، ووضعت لائحة اساسية (دستور) لاقامة حياة دستورية سليمة ، لكن تدخل الدول الاوربية قد اعاق التطورات . للمزيد من المعلومات ينظر : احمد زكريا الشلق ، معالم تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر ، الدوحة ١٩٩٦م ، ص٨١ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٩ ، ص٥٣ .

[٣] القومسيون : وهو المجلس الذي تشكل لدراسة المشروع .

[٤] محمد احمد خلف الله ، علي مبارك واثاره ، المصدر السابق ، ص٨٦ – ٨٨ .

وتحدد المقدمة مصادر الانفاق على التعليم ، فالمدارس والمكاتب القديمة من طرف أهل الخير على التعليمات ، سواء كانت بمنطقة أو أخرى تكون على ريع الوقف الذي له ايراد ، فاذا كان الوقف عديم الايراد وكانت في محلات لها موقع عظيم وشهره ورغبة في اجتمع التلاميذ بها ، فان عمارتها تكون من التبرعات الخديوية [١] ، ونصت المقدمة فيما يخص البناء أيضا على أن ما يستدعي الحال لتجديده بقرى الارياف من المكاتب الابتدائية فتكون تكاليف بناءه وتعميره على طرف القرى والنواحي المنشأ فيها ، وكذلك المدارس الاهلية التي بمنزلة التجهيزية المتجددة في مراكز المديريات فتكون تكاليف بناءها على طرف الجهة التابعة لها ، اما ما يخص المفروشات والادوات كلها في مكاتب القرى ومدارس ومراكز المديريات فيكون على طرف اهالي التلاميذ ، واما اشخاص مكاتب القرى الذين هم عبارة عن المؤدبين والعرفاء فيترتب لهم من طرف الاهالي المتعلمين شيئا على قدر معاشهم بدون اتكالهم على الاشياء كالأخمسة التي لا تقوم بمعاشهم ، واصبح اشخاص المدارس المركزية على طرق الميرى ، بخلاف المأكولات والمشروبات والادوات تكون على طرف الاهالي المتعلمين ، كذلك تحتم اللائحة أن تكون (جميع المدارس والمكاتب سواء بالقرى أو غيرها تحت اصول تنظيمية وامتحانات سنوية وملاحظات وتفتيشات من طرف الحكومة) [٢] .

يتعلم الاطفال في المكاتب الكبيرة التي يزيد عددها إلى السبعين الخط والحساب مع تطبيقه على التجارة والصرف والتاريخ والجغرافيا ، ولغة اجنبية وبعض الكتب الادبية ، اما المكاتب الصغيرة فيكتفي فيها بتعليم القران الكريم والكتابة والقراءة ، (ومن الحساب باب العددية) ، وللتلميذ الحق في الانتقال من مكتب صغير إلى مكتب كبير بغير امتحان ، فاذا كان يريد الالتحاق بمدرسة اميرية فعليه أن يجتاز امتحانا لذلك [٣] ، وحددت الكتب اللازمة لتعليم الاطفال وهي : كتاب القران الكريم ، وكتاب الف باء ، وكتاب آداب ، وحساب وهندسة ، والجغرافيا ، والتاريخ ، وتطبع جميعا على نفقة الحكومة بصورة رسمية ، وتصرف من ديوان المدارس حسب اللزوم ، وتعطى لمن يلزم لهم من الاطفال بالثمن ، وتتحصل اثمانها بمعرفة المؤدبين لخزانة ديوان المدارس [٤] .

---

[١] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، المصدر السابق ، ص ٧٢ – ٧٤ .

[٢] محمد احمد خلف الله ، علي مبارك واثاره ، المصدر السابق ، ص ٨٦ – ٩٣ .

[٣] المصدر نفسه ، ص ٩١ .

[٤] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص٩٦ .

ونصت اللائحة أيضا على انشاء : " اربع مدارس مركزية في المديريات البحرية بالتدريج حسب الامكان : الاولى بطنطا لزوم مديرية الروضة والبحيرة ، والثانية بالزقازيق الشرقية والبلاد الغربية للزقازيق من القليوبية والدقهلية ، والثالثة بالمنصورة لزوم الدقهلية والبلاد المجاورة من الروضة الشرقية ، والرابعة بالجيزة لزوم مديرية الجيزة وما جاورها من القليوبية والروضة " ، وهذا ما عدا ما هو قائم منها بالإسكندرية والقاهرة ، كما أنشأ اربع مدارس في بني سويف والمينا واسيوط وقنا من الوجه القبلي ، وعلى الاهالي تكاليف بناء هذه المدارس وتزويدها بالأدوات في مديرياتهم اما " المفروشات محل نوم التلامذة وأدوات تعليمهم ومأكلهم وملابسهم فانها تتحصل من الهدايا الخيرية ، من اطيان الوقف الخيرية الخديوية ومن ريع الأوقاف الآيلة لمدارس المديريات) ، وقد تراوحت أعداد التلاميذ في هذه المدارس ما بين (مائتين إلى ثلاثمائة) تلميذا ، يعيشون في القسم الداخلي ويسمح لعدد من التلاميذ في حدود ٢٠% بالتحاق بالمدرسة على أن لا يقيموا بالقسم الداخلي [١] .

وكانت الدراسة في المدرسة المركزية وفقا لما جاء في اللائحة هو :

أولا : اللغة العربية من نحو وصرف ومطالعة وانشاء وعقائد والتوحيد وواجبات العبادة والأدب .

ثانيا : لغة افرنجية أو تركية أو غيرها بقراءة كتبها المختصرة .

ثالثا : مبادئ الجغرافيا والتاريخ .

رابعا : اصول الحساب وتطبيقه على التجارة ومبادئ الهندسة وتطبيقها على المساحة .

خامسا : نبذة فيما يتعلق بالحيوانات والنباتات الاهلية ومقدمة لفن الزراعة .

سادسا : تعليم خط الثلث والنسخ والرقعة والرسم .

وتقوم لجنة بديوان المدارس باختيار الكتب المقررة مما هو موجود أو ما يرى تأليفه ، وكذلك حددت اللائحة الزي المدرسي لتلاميذ المدارس المدرسية كي يكون جميع التلاميذ على هيئة واحدة ، وجاءت خاتمة اللائحة بالتعريف بأغراض التعليم وتوجيه المعلمين ، وتتمثل فيها روح علي مبارك وطريقته في التعليم ، التي يعرفها بأنها " اكتساب الأدب وحسن السلوك " ، والغرض من التعليم هو : " حصول ابناء هذا القطر على ما يوجب اصلاح شانهم وشان اهاليهم ليفوز الوطن بثمرة التقدم لأبنائه جميعا ... واتساع دائرة المعارف " [٢] .

---

[١] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص٩٧ .

[٢] محمد احمد خلف الله ، علي مبارك واثاره ، المصدر السابق ، ص٩٠ – ٩٢ .

٢. دار العلوم :

ادرك علي مبارك أن حاجة المؤسسات التعليمية إلى اعداد معلمين وكوادر تأخذ على عاتقها مهمة التعليم فشرع بإنشاء قاعة عامة للمحاضرات بدار الكتب المصرية ، دعيت بـ (مدرسة الكتبخانة) أو محل التدريس أو دار العلوم ، وندب لها اساتذة يحاضرون في الأدب والتفسير والحديث والفقه على مذهب أبي حنيفة ، والفلك ، والطبيعة والعمارة ، والسكك الحديدية ، والتاريخ ، والنبات [١] ، واراد ديوان المدارس أن يستفيد من هذه المحاضرات في اعداد المعلمين اللازمين ، فقرر أن ينتسب بدار العلوم عشرة من طلاب الازهر الشريف المتفوقين في النحو ، وتتراوح اعمارهم بين الثلاثين والاربعين على أن يلتزموا بدراسة العلوم العربية والشرعية لمدة ساعة ونصف يوميا ، ويحضروا الدروس الاخرى اختيارا ، على أن يمنح كل منهم مكافأة مقدارها خمسة وعشرون قرشا شهريا ، ثم يعينون مدرسين لتدريس اللغة العربية في المدارس بعد تخرجهم ، والظاهر أن هذه الطريقة لم تسعف علي مبارك في تخريج العدد الكافي من معلمي اللغة العربية [٢] .

وقدم علي مبارك إلى الخديوي التماسا في (٢٤ جمادي الآخر عام ١٢٨٩هـ / ٣٠ تموز عام ١٨٧٢م) نص على الاتي :

" بما أن مرغوب الجناب الخديوي نشر انوار التمدن والتقدم بتوسيع دائرة التربية والتعليم ولذلك حصل بعنايته السنية وفي ظل حضرته العلية بتجديد ما تجدد من المكاتب الاهلية ولم يزل حاصلا مزيد الاهتمام بحسن تنظيمها وازديادها وتعميمها في سائر جهات الوطن العزيز وذلك يحتاج بالضرورة لوجود كثيرين من مهرة المعلمين يقومون بواجبات حسن التربية والتعليم على الوجه الاتم كمرغوب جناب ولي النعم " [٣] ، وقد وافق الخديوي على هذا الالتماس ، وعمل به علي مبارك ابتداءً من (٢٧ جمادي الآخر عام ١٢٨٩هـ / ١٢ آب عام ١٨٧٢م) ، وهكذا استطاع علي مبارك أن يتغلب على هذه الصعوبة ، واصدر علي مبارك بهذه المناسبة أيام نظارته للمعارف عام ١٨٨٨م أمرا في (٢٧ ايلول عام ١٨٨٨م) بتشكيل لجنة من (حمزة فتح الله) المفتش بالمعارف ، و (حسن الطويل) المفتش بالمكاتب ، و (حسين المرصفي) المدرس بدار العلوم ، و (محمد صالح) المفتش بالمعارف ، للنظر في مناهج اللغة العربية ووضع نظام لها يكفل حسن سير الدراسة والتدرج بها حسبما يتحمله عقل التلميذ وإدراكه والسير بها من السهل إلى الصعب [٤]،

---

[١] امين سامي ، تقويم النيل ، المصدر السابق ، الجزء الثاني ، المجلد الثالث ، ص٩٣٣ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٩٣٣ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، الجزء التاسع ، المصدر السابق ، ص ٥٠ – ٥١ .

[٤] سعيد زايد ، المصدر السابق ، ص٨٠–٨١ .

وقد وضعت اللجنة تقريرا رفعته إلى النظارة بتاريخ (٢٠ تشرين الثاني عام ١٨٨٨م) ، وصدر به امر وزاري بتاريخ (٢٩ تشرين الثاني عام ١٨٨٨م) بتوقيع علي مبارك ، كما ارفق التقرير (باستمارة) كنموذج للخطوات التي يجب على المعلم أن يتبعها في تعليم اللغة العربية ، ويمكن القول أن ما تقدم هي جهود علي مبارك التي بذلها من اجل اعداد المدرسين ، وكذلك السعي الدائم في إرسال البعثات العلمية ، ليستفيد من اعضاءها بعد رجوعهم إلى الوطن [١] .

٣. الكتبخانة الخديوية (دار الكتب ١٨٧٠م) :

ومن مآثره الباقية انشاء دار الكتب ، فيتحدث عن الخطوات التي تم بها انشاء الدار وعن الظروف التي نشأت فيها ، فيقول : " ولما لم يكن في مصر دار كتب جامعة عامة يرجع إليه المعلمون للاستعانة على التعليم كما في مدارس البلاد الاجنبية ، انشأ محل بجوار المدارس من داخل سراي درب الجماميز ، وصرف عليه من مربوط المدارس ، فجاء محلا متسعا يزيد عن لوازم المدارس من الكتب وأدوات التعليم " [٢] .

ثانيا : فكره الاصلاحي في ميدان التنمية الاقتصادية :

لم يكن الفكر الاقتصادي عند مثقفي مصر وليد المدة التي نتحدث عنها ، بل سبقها بكثير ، فقد كان لرفاعة الطهطاوي لواء السبق في هذا الميدان ، وتتمثل بدعوته الى الحرية بالمشروعات الفردية في الزراعة والصناعة والتجارة ، فهو يرى : " ان اعظم حرية في المملكة المتميزة هي حرية الفلاحة والصناعة والتجارة ، وقد اثبت بالأدلة والبراهين ان هذه الحرية من اعظم المنافع العمومية " [٣] ، وقد جاء بعد الطهطاوي علي مبارك الذي تنبه الى المشاكل التي يعاني منها الاقتصاد المصري ، فعزى ذلك الى تأخر الزراعة والى اهمال الفلاحين وعدم الالتفات اليهم ، وترك التبصر في احوالهم ، وكذلك استخدام اساليب التعسف والقهر والتعدي عليهم ، ويرى ان خير وسيلة للاهتمام بالفلاح هو رعايته من الضغوط المفروضة عليه ، وكذلك يدعو ولاة الامور الى ان يلحظوا اهل الفلاحة بمزيد من العناية الالتفات لانهم " الحاملون لأثقاله " ، وقد سعى الى تطوير الاقتصاد المصري وذلك بالاعتماد على المكننة في الزراعة ولاسيما في الري ، وللوصول بالبلاد الى عصر التجارة [٤] .

---

[١] امين سامي ، تقويم النيل ، المصدر السابق ، المجلد ، الثاني ، الجزء الثالث ، ص٨٢٧ .

[٢] سعيد زايد ، ، المصدر السابق ، ص٨٢ .

[٣] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي ، ج١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (بيروت – ١٩٧٣) ، ص١٧٠ .

[٤] محمود الشرقاوي وعبد الله المشد ، علي مبارك حياته ودعوته وارائه ، المصدر السابق ، ص١٨٧ .

ويرى ان استخدام المكننة له آثار ايجابية في توفير المال وكذلك النمو في الثمار ، وتحقق للفرد السيطرة على العمل وكذلك تعلي من شأنه ، كما ودعا الى تنظيم المصارف على النمو الذي شاهده في باريس ، لفك الضائقة التي يعاني منها الفلاح ، لكي لا يضطر الى بيع المحاصيل قبل النضج [١] ، كما اولى اهتمام كبير لمسألة المياه وضرورة الاستخدام غير المفرط لها ، ودراسة السبل الكفيلة للسيطرة على مياه نهر النيل لانها سوف تحل ثلاث مشاكل رئيسة كانت تعاني منها مصر وهي : الغرق ، والضمأ ، والتغلب على ازمة الاحتراق عندما تقل المياه في مواعيد الزراعة الصيفية [٢] ، وكان للصناعة المصرية نصيب كبير في دعم وتشجيع علي مبارك لها ، فقد كانت الصناعة عنده ملكه ، وهو يرى : " ان ملكة الصناعة اذا حصلت في بلد من البلدان اندفعت افكار اهله الى التفنن فيها ، والاستكثار من انواعها " .

ويقدم علي مبارك دراسة بالأرقام يثبت منها ان استخدام الآلات التجارية في الري تكلف اقل ما تكلفه الوسائل التقليدية من نفقات ، فيقول : " ان المنصرف على متر الماء المرفوع بواسطة الوابور هو ثلث المنصرف على متر سواقي او اقل فيما يصرف في سقي الفدان الواحد يكفي لسقي ثلاثة افدنه او اكثر بالوابور ، فالوابور ارجح من السواقي بكثير " [٣] ، داعيا الحكومة الى تعميم استخدام هذه الآلات الحديثة ، فان لم تتمكن من الانفاق عليها وتمويلها ، فلتعهد بها الى شركات مساهمة ، تنجزها وتحصل من الفلاحين ، بواسطة اقسام وبعد فترة زمنية تصبح هذه الآلات ملكا للحكومة تديرها بواسطة رجال على نفقتها ، وقد تمكن علي مبارك من تنفيذ مشروعه هذا عندما تولى نظارة الاشغال العمومية ، وحقق به انجازات هائلة منها ، انه انجح ري دائم يعطي عدة محاصيل بعد ان كان الري نيليا لا يعطي سوى محصول واحد ، فضلا عن احياء الارض الموات التي زادت بها رقعة المزروع بمياه النيل [٤] ، وكانت التجارة من الامور التي حظيت بنصيب كبير في فكر علي مبارك ، فقد كتب عنها في كتابه (نخبة الفكر في تدبير نيل مصر) فصلا وسماه (فيما اثرت فيه حالة الفلاحة الحالية في التجارة والصناعة) ، وقد كان علي مبارك مع فكر عصر التنوير الذي بشر به رفاعة الطهطاوي ، والذي ادرك دور التجارة في اختلاط الامم والشعوب ، وتفاعل الحضارات ، وتطوير المتخلفين في العادات والتقاليد وانماط التفكير ، كي يلحقوا باهل التقدم في هذه الميادين ، فالاهتمام بالتجارة يتبعه فلسفة في العمران تتعدى حدود المال

---

[١] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص٣٠٣ .

[٢] علي مبارك ، نخبة الفكر في تدبير نيل مصر ، المصدر السابق ، الباب الرابع في الاصلاحات ، ص١٩٨ .

[٣] المصدر نفسه ، الباب الاول ، ص٢٠١ .

[٤] المصدر نفسه ، الباب الاول ، ص٢٠٢ .

ومقادير الربح ، ويقول علي مبارك في هذا الصدد : " ان العمران لا يقوم الا بالتعاون والتعاون لا يكون الا بالمبادلات ، وهي تحصل على الوجه الاكمل الا بتمهيد طرقها وتسهيل اسبابها بإكثار السبل برا وبحرا " [١] ، اما ما يخص العمارة فكان له دورا حاسما في عمارة القاهرة كعاصمة وعمارة عدد من كبرى مدن الاقاليم ، عندما عهد اليه الخديوي اسماعيل بالإشراف على اعادة تخطيطها وتنظيمها ، كي تلحق بالمدن الحديثة ، وحتى تصبح عاصمة الدولة التي اراد ان تكون قطعة من اوربا ، في ذات الوقت استفاد علي مبارك المهندس المعماري من دراسته في الهندسة الحربية وفنون الاستحكامات وصلتها غير المقطوعة بالعمارة المدنية ثم اضاف الى حصيلتها فكرا معماريا حديثا بل وتاريخا [٢] .

تأسيسا على ما تقدم ان جهود علي مبارك الفكرية كانت كبيرة في اهميتها العلمية التي اغنت مجالات الحياة الاساسية ، بعد ان خصص حياته الى خدمة شعبه ووطنه ليراه متقدما متطورا ليعيد لمصر مجدها وعزها التاريخي .

الفصل الثالث

علي مبارك وتوظيف مفهوم الاصلاح

في بناء مؤسسات الدولة الحديثة

المبحث الأول : التعريف بمفهوم الإصلاح

---

[١] علي مبارك ، نخبة الفكر في تدبير نيل مصر ، الباب الاول ، ص٩٤ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٥٣ .

المبحث الثاني : علي مبارك وواجهات الاصلاح الحديثة

المبحث الأول : التعريف بمفهوم الإصلاح :

تعددت معاني الاصلاح ، ولعل ابرزها عند معظم المفكرين بانه عملية اصلاح ما لحق بالواقع العام في مجالاته المختلفة ، والإصلاح (Reformation) لغةً : الصلاح ، ضد الفساد ، صَلَح يَصلَحُ ويصلحُ صلاحا وصُلوحا ، والاصلاح نقيض الفساد [١] ، اما معنى الاصلاح اصطلاحا فهو : صلح : الصاد واللام والحاء اصل واحد يدل على خلاف الفساد ، يقال صلُح الشيء يصلح صلاحا ، ويقال صَلَحَ بفتح اللام [٢] .

والاصلاحية (Reformisme) مصطلح تاريخي شائع لمهام متنوعة لدى شعوب متعددة، وتطور مدلوله اللغوي عن صلح الشيء الى مضمون تاريخي معناه حصيلة جميع اساليب

---

[١] ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق وتعليق ، عامر احمد حيدر ، المجلد الثاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٣ ، ص٦١٠ .

[٢] أبي الحسين الرازي ، معجم مقاييس اللغة ، وضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين ، المجلد الثاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩ ، ص١٧ .

الاصلاح (Reformetion) في ازمان واماكن مختلفة ومتنقلة من الروحي الى المادية [١] ، وقد ورد الاصلاح في القران الكريم في اكثر من (٤٠) مورد [٢] كقوله تعالى : ((**وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ**)) [٣] ، وكذلك في قوله تعالى : ((**إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**)) [٤] ، ويتحدد مفهوم الاصلاح في تعاريف عدة وحسب تجارب الشعوب المختلفة ، وقد تطور مفهومه بتطور الزمن ، فمفهومه في اوربا يمر بمراحل تطورية خلال القرن التاسع عشر ، تمثلت بالتحولات الكبرى التي شهدتها اوربا والتي امتدت من عصر النهضة الاوربية العصر الذي شهد حالة من التجدد وبعث الحضارة الاغريقية وإحيائها من جديد بعد ازمان حقب مظلمة مثلتها القرون الوسطى [٥] ، وقد اتسم هذا العصر بجملة من التغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، امتدت من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر ، تمثلت في حركات (الاصلاح الديني) [٦] ، و (الاستكشافات الجغرافية) ، و (النهضة الادبية والفنية) ، و (الاتجاهات الاصلاحية في الفكر السياسي) .

وكان عصر التنوير مرحلة أخرى للتحديث في اوربا تمثلت بالتطور الذي وصلت له الثورة الصناعية ، وما آلت إليه من سيطرة الطبقة البرجوازية على الانتاج ، ونمو الرأسمالية ، كذلك تمثلت في الثورة الفرنسية ومفكريها ، وقاد عصر التنوير إلى اهداف تركزت على اهمية دور العقل الانساني وقوته الذاتية [٧] ، اما بالنسبة للدولة العثمانية فقد بدأت مطلع القرن الثامن عشر مظاهر الانحطاط تسري في مختلف اركانها ، مما قاد رجال الفكر والسياسة إلى البحث عن السبل الكفيلة للنهوض بالدولة ، وايقاف حالة التدهور واعادة قوتها ، فوجدوا في الاصلاح خير وسيلة لعلاج ذلك ، وقد ظهر تياران من المصلحين ، الأول يؤكد على أن العلاج يكمن في تطبيق الانظمة الإسلامية والتقاليد العثمانية الاصيلة ، والثاني يؤكد على أن الاصلاح يستلزم تبني الانظمة

---

[١] سيارة كوكب الجميل ، الاصلاحية ، القاموس العربي لعلم الاجتماع ، (تونس –١٩٩٠) ، ص٢١٤ .

[٢] محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم ، (باب الصاد) ، اوند دانش للطباعة والنشر والتوزيع ، (طهران – بلا) ، ص ٥٥٥ .

[٣] سورة البقرة : الآية ٢٢٠ .

[٤] سورة القصص : الآية ١٩ .

[٥] روبرت بالمر ، تاريخ العالم الحديث ، ترجمة : محمود حسين الامين ، مراجعة : جعفر خصباك ، مكتبة الوفاء ، الموصل ، ١٩٦٤ ، ص٩٦ .

[٦] السيد رجب حراز ، عصر النهضة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤م ، الفصل السابع .

[٧] فاروق أبو زيد، عصر التنوير العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٨م،ص١١–١٢ .

الاوربية المعاصرة [١] ، ونتيجة للنهضة التي تعيشها اوربا والتطور الحاصل فيها في مختلف جوانب الحياة فقد رجحت كفة التيار الثاني ، وقد قادهم هذا إلى عملية اصلاح للدولة العثمانية الذي اعتمد في بدايته على الاقتباس من اوربا ، واحتل الجانب العسكري مكانة الصدارة ثم الاهتمام بالجوانب الادارية والمالية والقضائية ، وكانت معظم الافكار الاصلاحية مستوحاة من انماط فرنسية متمثلة بأفكار الثورة الفرنسية [٢] .

مفهوم الاصلاح عند علي مبارك :

تأثر علي مبارك بحركة الاصلاح والنهضة التي تعيشها اوربا والتي عاشها من خلال دراسته في باريس ، فادرك أن تطور اوربا جاء نتيجة لاهتمامهم بالعلم الذي دخل كل ميادين الحياة ، فكان من الطبيعي أن يدعو إلى نقل تلك التجربة إلى بلده مصر ، لكن تلك الفكرة لم تكن ضمن مفهوم نقل كل شيء من الغرب ، بل يجب أن تراعى ظروف مصر كبلد عربي مسلم [٣] .

ان الاحساس بالفجوة الكبيرة بين اوربا ومصر قادت علي مبارك الى البحث عن القاعدة التي يجب ان تبنى عليها عملية الاصلاح ، بعد ان قاده الاطلاع المباشر على نهضة اوربا دفعته الى الاهتمام قبل كل شيء بالعلوم التي وصلت الى درجة متقدمة عندهم ، وقد ركز علي مبارك على عدة مجالات لنقل الاصلاح إلى بلده مصر اهمها :

١. الدعوة إلى نقل العلم الاوربي إلى مصر :

ففي دعوة علي مبارك للإصلاح التي كرس حياته لتتلقاها مصر منه وتتقبلها وتعمل بها ، بل تسير على نهجها في سياسة ثابتة دائمة ، ونجد آرائه التي امن بها وسجلها في مؤلفاته ، وظل يرددها في صور شتى وفي مناسبات مختلفة ، ودعا قومه إلى أن يؤمنوا بها لاعتقاده أن استقامة حياتهم ، واستعادة مجدهم ، ودخولهم في مداخل الدول القوية ذات السيادة والمنعة في عصرنا الحاضر ، رهين بالاستجابة لهذه الدعوة ، والايمان بهذه الآراء ، والعمل على اساس هذه الاستجابة وهذا الايمان [٤] .

وكانت اعماله كلها مطابقة لما اعتقد من آراء وما دعا من دعوة ، فقد كان معجبا اشد الاعجاب بالحياة العلمية الاوربية ، وما تحققت لمواطنيها عن طريق العلم والمعرفة من الخير

---

[١] عبد الوهاب القيسي ، حركة الاصلاح في الدولة العثمانية وتأثيرها في العراق ١٨٣٩ – ١٨٧٧م ، ص ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد ٣ ، كانون الثاني ١٩٦١م ، ص١١١ .

[٢] احمد عبد الرحيم مصطفى ، في اصول التاريخ العثماني ، دار الشروق ، (بيروت–ط١ ١٩٨٢)، ص١٧٢ .

[٣] عمر طوسون ، البعثات العلمية في عهد محمد علي ، الإسكندرية ، ١٩٣٤م ، ص٨٤ .

[٤] محمود الشرقاوي وعبد الله المشد ، علي مبارك حياته ودعوته وآرائه ، المصدر السابق ، ص١٦١ .

والتقدم ، وقد تكون دعوته ويكون اسلوبه اقوى وأبين في تلخيص هذه الدعوة في كتابة (علم الدين) في دعوته لأهل الشرق لان يتخذوا العلم الاوربي سبيلا للتقدم والقوة والسعادة والغنى [١] ، وذكر مبارك أن الاوربيين ((جمعوا في بلادهم معارف الملل المتفرقة فوق سطح الأرض وفي وسط البحار المتسعة ، فوصلوا بسعيهم واجتهادهم إلى اعلى درجة في التمدن ، حتى صاروا في عصرنا هذا منفردين بأكثر الصنائع متمتعين بين جميع الملل بالرفاهية والحرية التامة ، رأيهم أمر نافذ ، وقوتهم ليس لها معارض ولا منابذ)) ، مدركا اهمية التعلم اللغات الاوربية ومع انه قد تعلم في فرنسا واجاد اللغة الفرنسية إلا انه دعا أيضا إلى تعلم اللغة الانكليزية ، وليس في ذلك شيئا من التناقض اذا نظرنا إلى أن الانجليزية هي لغة العلم والصناعة ، وانه يدعو اليها دعوة قوية ملحة ، كما يدعو إلى المعرفة والبحث عن الاسباب التي تقدمت بها اوربا ، لذلك فهو كبير العناية بعلوم الرياضة من الحساب ، والجبر ، والهندسة ، والكيمياء ، والطب ، والفلك، والمخترعات الحديثة والنظريات والمبادئ التي قامت عليها هذه المخترعات [٢] .

في ذات الوقت وجد ان العلم قد اخذ مجاله الواسع في الصناعة فدعا إلى الصناعة والعناية بها ، كما رغّب ترغيبا شديدا في الجندية وصناعة الحرب ، وازالة ما في نفوس المصريين وما استقر فيها يومذاك من أن الرياسة والصدارة والامارة وقيادة الجند وقف على غير المصريين ، ولا يجب أن يعتقدوا في انفسهم انهم كفؤ لها [٣] ، ويطمح علي مبارك من خلال هذه الدعوات للعلم والحضارة الاوربية إلى أن ((يسلك المصريين إلى ذلك سبيلا هينا ، سهلا ، وسطا ، لا طفرة فيه ولا تسرع ، ولا رهين ، فهو يعتمد هنا على الزمن والصبر والمثابرة في تحول هذا الوطن عن آراء الشرف وعاداته ومخلفاته إلى علم الغرب ومبادئه في الحياة والفهم والسلوك)) [٤] .

٢. الدولة :

كان علي مبارك واحدا من المفكرين المصريين الذين اسهموا في بناء تجربة مصر الحديثة من خلال جهاز الدولة المدني الجديد الذي عرفته البلاد منذ حكم محمد علي عام ١٨٠٥م [٥] ، وهناك حقيقة تقول أن جهاز الدولة هذا هو اداة الاصلاح والتقدم والتطور الوحيدة في البلاد حتى سبعينات القرن التاسع عشر ، ولم يكن هناك لمصلح خارج هذا الجهاز يستطيع أن يمارس منه أي

---

[١] المصدر نفسه ، ص١٦٢ .

[٢] علي مبارك ، علم الدين ، الجزء الأول ، ص٣٠٨ – ٣٠٩ .

[٣] محمود الشرقاوي وعبد الله المشد ، علي مبارك حياته ودعوته وآرائه ، المصدر السابق ، ص١٦٣ .

[٤] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص٣١٨ .

[٥] علي إبراهيم البحراوي، علي باشا مبارك اول وزير للمعارف وابو التعليم في مصر ، د.ط ، ص٦٤ – ٦٩.

دعوة من دعوات الاستنارة والاصلاح من خارج جهازها ، لان الملابسات التي صاحبت البلاد إلى عصر اليقظة والتنوير قد فرضت أن يكون سيرها هذا عبر انجازات جهاز الدولة ، وقد جعلت من جهاز الدولة الاداة الاولى والفعّالة الوحيدة في تحقيق اهدافها في هذا الميدان [١] ، وقد عبر عن ذلك الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ – ١٨٣٥م) عن طموح القوى الاجتماعية الجديدة إلى علم جديد بقوله : " أن بلادنا لابد أن تتغير ، وان تتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها ..."[٢] ، وهنا جاءت عبقرية محمد علي ففتحت عبقرية مصر كوامنها ، وغدت عبقرية الجندي القادم قوة كبرى تجسدت فيها قوة مصر ، التاريخ والانسان والحضارة والامكانيات ، فبدأ السير لتحقيق الطموح الذي عبر عنه الشيخ (حسن العطار) إذ لم يدع اعداء مصر وكانوا كثيرين امامها طريقا آخر غير طريق اتخاذ الدولة وجهازها اداة وحيدة لتحقيق امالها فخلقوا لها بذلك ملابسات خاصة فرضت عليها طريقا خاصا ومتميزا لبلوغ تحررها وانعتاقها من مجتمع العصور الوسطى والدخول إلى عصر التنوير الحديث [٣] .

وكانت الدولة العثمانية تريد مصر مجرد ولاية تابعة ، كي تستفيد من خيراتها وتحصل على الضرائب ، لاسيما أن خضوعها يضمن خضوع ولايات المشرق العربي لها ، اما بالنسبة إلى اوربا الثورة الصناعية والاحتكارات النامية تتطلع إلى بناء امبراطوريات في الشرق ، لكي تحقق احلام الاقطاع الصليبيين القديمة لحساب البرجوازية الصاعدة الطموحة ، في ذات الوقت ان المماليك ، والملتزمون ، ونظّار الاوقاف ، ورجال الطرق الصوفية ، وقطاع كبير من شيوخ الازهر ، فقد اصبحوا بقايا نظام قديم ومخلفات مجتمع بائد وهم اشبه بالثغرات في جسم مصر وعقلها ، يتيحون لفرص لاختراق الغزاة لها [٤] ، وقد فرضت الملابسات الخاصة والقاهرة على مصر أن تقيم دولة ، فتنشئ هذه جيشا كي يكون الاداة الفعالة في اقامة الصناعة والتجارة الوطنية ، وتنظيم الري والصرف واصلاح الارض وتنمية المحاصيل وتحديثها ، وبناء المدارس ، وانشاء المطابع ، ونشر الصحف ، واقامة اجهزة للترجمة والتأليف والنشر ، وارسال البعثات العلمية التي ساهمت في تكوين جيل من المثقفين والفنيين والاداريين والساسة والعلماء [٥] .

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، الجزء التاسع ، ص ٥٣–٥٩ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٧٤–٧٥ .

[٣] المصدر نفسه ، ص ٧٥ – ٧٧ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص٦٣ – ٦٥ .

[٥] المصدر نفسه ، ص ٦٦ – ٧٧ .

وكان جهاز الدولة جهاز الاصلاح الوحيد القوي والفعّال ، فكان جديرا باستحقاق واهلية أن يمنحه المصلحون والدعاة التقدم كل الاهتمام ، فقد عرفت مصر من خلاله الصحافة ، وارتادت هذا الميدان قبل غيرها من دول الشرق ، واقامة من خلاله المدارس المدنية ذات التعليم المجاني التي تنفق على طلابها في المأكل والملبس والمسكن ، ثم تعطيهم المصروف [١] ، كذلك انشأت بواسطة مطبعة وحيدة هي المطبعة الاميرية في بولاق ، فأخرجت إلى المكتبة العربية امهات الفكر الاوربي الحديث في طباعة دوّنها الكثير من الطباعة الحالية ، وفي مجلدات تدهش زخرفتها واحجامها والوان احبارها الكثير في الربع الاخير من القرن العشرين ، فوضعت هذه المطبعة في متناول العقل العربي اكثر العلوم والفنون تقدما في اكثر الحضارات تقدما الحضارة الاوربية ، كما بعثت إلى المكتبة العربية كنوزا من تراث حضارتنا القومي والاسلامي ، كما اتاحت الفرص الكثيرة للتأليف والاضافة من قبل الجيل الناشئ من المثقفين ، وفي اقل من اربعين عاما اخرجت هذه المطبعة وحدها اكثر من الفي كتاب ، كثير منها ضخم وفي عدة مجلدات ، في حين لم تخرج المطابع العثمانية خلال اكثر من قرن (١٧٢٨ – ١٨٣٠م) سوى اربعين كتابا اغلبها في الشعوذة والخرافات [٢] .

وكان لجهاز الدولة فضلاً عن الايجابيات المذكورة انفا الكثير من السلبيات والعيوب ، وكانت له مظالم وتجاوزات من الممكن أن تكتب فيها الفصول وتسود بها الصفحات ، وكان من اهم عيوب الدولة يومذاك ، بل كان عيبها الأول والقاتل انها كانت حكومة فردية ، على النمط الذي ابتلى به الشرق في كثير من عصور تاريخه الطويل ، إذ كان الطابع الفردي طاغيا في اتخاذ القرار وتنفيذه ، وفي اختيار البدائل والمفاضلة بينها ، الأمر الذي جعل للإصلاحات احيانا مذاقا مرا في أفواه المستفيدين [٣] ، وكان الكثير من الرجال الكبار من مفكري المجتمع ومثقفيه الذي أسهموا في بناء عصر التنوير من خلال جهاز الدولة ، قد ادركوا هذا العيب ، وابصروا مخاطره التي تهدد كل البناء بالانهيار عندما تحدق به التحديات ، وقد كان الحكم الفردي يحرم التجربة من حب كثير من ابناء الشعب وولائهم لها ، ويحجب عنها حماية المستفيدين الحقيقيين من قيامها [٤] ، من هنا كان تنبيه هؤلاء الرجال إلى تلك السلبية وذلك العيب وهذه المخاطر على تفاوت في شجاعتهم وصراحتهم والاسلوب المباشر أو الحقيقي الذي استخدموه في النقد والتنبيه ، فكان تفاوت المحن والازمات التي مرت بعلاقة هؤلاء الرجال مع جهاز الدولة والخديوي بالذات ، فنال علي

---

[١] المصدر نفسه ، ص٧٨ .

[٢] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي ، الجزء الأول ، (بيروت– ١٩٧٣) ، ص٦٩ – ٧٠ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، الجزء السادس ، ص ٣ – ١٧ .

[٤] علي مبارك ، نخبة الفكر في تدبير نيل مصر ، مطبعة وادي النيل، (القاهرة – ط١ ١٢٩٧هـ)، ص٢٥–٢٨ .

مبارك نصيب من هذه الشجاعة قد فاق نصيب الكثيرين من اقرانه لاسيما أن اسلوبه في النقد قد تجاوز التلميح إلى التصريح ، كما كان حظه وافرا من الازمات مع جهاز الدولة ، سواء على عهد الخديوي سعيد أو حتى مع الخديوي اسماعيل [١] .

وكانت نظرة علي مبارك إلى جهاز الدولة نظرة علمية واقعية ، فالدولة في احدث التعريفات هي جهاز قهر تمتلكه طبقة اجتماعية أو مجموعة طبقات ، لتسخره في تنمية مصالحها وتحقيق اهدافها ، وقهر المناوئين لهذه المصالح والاهداف ، وما السلطات المتعددة والاجهزة التنفيذية والتشريعية والقضائية المختلفة إلا ادوات تطبيق وتحقيق لهذا الهدف ولتلك الفلسفة التي تمثل فكر الحاكمين [٢] ، وتتفاوت اجهزة الدولة في وسائل التطبيق وطرائق تحقيق اهداف الطبقات الحاكمة ، فهناك اساليب خشنة غير متحضرة تتميز بضيق افق اصحابها وانحيازهم للتعسف والجور طرقا لتحقيق ما يريدون ، وهناك اساليب متحضرة تسمح بمقادير متفاوتة من العدل بالنسبة للآخرين ، ويزيد وضوح التفاوت بين هذه الاساليب تفاوت اهداف الحكام بتفاوت المواقع الاجتماعية ، والاهداف الاقتصادية للطبقة التي يمثلها هذا الجهاز ، فقد تكون طبقة اقلية مستغلة وشرهة في الاستغلال ، وقد تكون مصالحها هي مصالح الجماهير العريضة ، فيكون العدل عندها عدلا لأغلبية الناس [٣] ، ويعد جهاز الدولة جهاز قهر ولا يلطف من خشونة هذا القهر ويخفف من ثقله على المحكومين إلا ما يخالطه من عدل يستهدف هذا الجهاز تحقيقه ، الأمر الذي يفرض على الوسائل انواعا من التحضر والانسانية في التنفيذ ، وقد كان هذا هو تشخيص علي مبارك لطبيعة سلطة الدولة ، إذ يقول : " أن تفاوت الناس في العقل ، وجودة النظر في صلاح الامة ، والقدرة على ضبط القوى الحيوانية الموجبة للبغي والعدوان ، اوجب استيلاء بعض الناس على بعض ، وسريان القهر بينهم ، حتى نشأ من ذلك التمييز باسم الحاكم والمحكوم ، والمالك والمملوك ، وغاية الأمر أن القهر اذا داخله العدل كان قهرا لذيذا ، وضعف الشعور به ، ولم تكن النفس شديدة الاباء له ، لخفاء الذل فيه ، ولم تكن لشريعة من الشرائع أن تبطل ذلك الأمر وتبعث على اهماله ، لما في تركه من الفساد العظيم " [٤] .

ويتقدم علي مبارك على درب نقد الدولة خطوة أخرى ، فينتقد بطريق يكاد يكون مباشر السلطة المطلقة للحاكم ، والسلطان غير المقيد بالقانون والدستور والشورى ، وذلك عند حديثه عن

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٧٧ .

[٢] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص٨٣ .

[٣] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ٣١٠ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٤٩ – ٥١ .

انواع الحكومات فيقسمها إلى جمهورية وملكية ، ثم يقسم الملكية إلى : ملكية مقيدة ، وملكية مطلقة ، فيزكي المقيدة ويعيب على المطلقة أن الهوى والغرض الذاتي هو الحاكم على المحاكم فيها [١] ، ويقول علي مبارك : " أن الحكومة تنقسم على صورتين : الاولى : الحكومة الجمهورية : وهي أن يكون الحكم مفوضا لمجلس مركب من اعضاء تنتخبهم الرعية ، لإدارة امور المملكة تحت قوانين يلزمهم العمل بها وعدم الخروج عنها ، والثانية : السلطنة والحكومة الملكية : وهو أن يكون زمام الحكم والتدبير والامر والنهي بيد شخص واحد وهو الملك ، وهذه أيضا تنقسم إلى قسمين : مقيدة ومطلقة ، لانها اما أن يكون الملك مقيدا بقوانين وشرائع لا يستطيع الخروج عنها إلى هوى نفسه ، وهي الحكومة الملكية المقيدة ، واما أن يكون غير مقيد بشيء من ذلك يحكم برأيه ، ويتصرف بهوى نفسه ، فيكون رايه شريعة المملكة ، وحكمه قانونها ، وهي الحكومة الملكية المطلقة " [٢] .

وكتب علي مبارك هذا الكلام في عهد الخديوي سعيد في مصر ، ونشره في مصر في عهد الخديوي توفيق ، وفي عهد الخديوي اسماعيل كتب في كتابه (نخبة الفكر في تدبير نيل مصر) وهو الكتاب الذي سبب له ازمة مع جهاز الدولة والخديوي فقد فيها كل مناصبه لمدة من الزمن ، فكتب عن الاصول الضرورية لتحقيق السعادة في المجتمع ، فلخصها في اصلين رئيسين هما : العمل ، والعدل المترتب على تقييد السلطة الحاكمة بالقانون ، والعمل فبالعمل تتحقق الثروة ، وبالعدل تصل الثروة إلى العاملين فيتحقق الهدف السامي من وجودها [٣] ، وضم الكتاب (نخبة الفكر) الكثير من الانتقادات لسلطة الدولة بعد عهد محمد علي قد احدث له ازمة حادة مع الدولة افقدته كل مناصبه الوزارية ، فقد كان الحزب الذي يكيد لعلي مبارك عند الخديوي بزعامة إسماعيل صديق المفتش كان في نظر علي مبارك حزب الجهلاء ، فهو مصري مثلهم ، بل اشد سمرة منهم ، ولكنه يمتاز عنهم بأنه عالم ومثقف ومفكر [٤] .

ويرى علي مبارك أن تقييد السلطة بالقانون وتقليد المناصب الحاكمة للعلماء والخبراء سيفتح باب الحرية في المجتمع واسعا امام المواطنين ، وهو الأمر الذي حبذه علي مبارك ، فقد حدثنا عن ما تتمتع به باريس فيقول : " فلقد كانت باريز على غاية في التقدم وكثر به المؤلفون ، ورحل اليها كثير من أهل اوربا ، وخفف فيها شأن العقوبات ، فكان كل انسان يتكلم بحرية ويكتب

---

[١] المصدر نفسه ، ص٥٢ .

[٢] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ٣٢١ .

[٣] علي مبارك ، نخبة الفكر في تدبير نيل مصر ، المصدر السابق ، ص٥ .

[٤] امين سامي ، تقويم النيل ، المصدر السابق ، المجلد الثالث ، الجزء الثالث ، ص١٤٥٢ .

ما يشاء من احوال الخلق ، سواء كانت خصوصية او عمومية ، سياسية أو دينية ، وظهر فيها رجال ذوو افكار ، فالفوا كتبا انتشرت في سائر الاقطار فانجلت عنهم غياهب الجهل وتميزوا على غيرهم بالعقل " [١] .

يتضح مما سبق الفكر النظري عند علي مبارك في الدولة والسلطة والسلطان ، هو فكر نظري صاغة في ظل تجربة سياسية تميزت الدولة فيها بالجنوح الشديد إلى حكم الفرد فضلا الى الواقع العملي الذي عاشه في تلك التجربة ، ومن ثم فلابد وان يحسب لعلي مبارك اسهاما جريئا في نقد سلطة الفرد المطلقة ، ودعوة إلى تقييد سلطان الحاكم وسلطته بالقانون [٢] .

وقد انطلق مفهوم علي مبارك للدولة ودورها من المفهوم الاوربي لها كما عاشه في فرنسا في الدعوة إلى محاربة الحكم المطلق والفردي وتقييدها بالدستور والقانون ، لان الدستور هو الحامي الشرعي لاستمرار الدولة واستقرارها ومن ثم تحقيق هدفها ، وقد سجل علي مبارك نقده الشديد للسلطة الحاكمة في ولايات الشرق ويقصد بها التابعة للادارة العثمانية .

٣. التعليم :

سبق علي مبارك عدد من المفكرين الذين اكدوا على اهمية التعليم الحديث في تقدم المجتمع ابرزهم المفكر رفاعة رافع الطهطاوي وقد سار المفكر علي مبارك على خطى هؤلاء المفكرين الذين سبقوه ، فهو يعد واحدا من كوكبة المفكرين المصريين الذين اسهموا في بناء تجربة مصر الحديثة من خلال جهاز الدولة المدني الذي كان اداة التنوير والاستنارة والتقدم والتطوير الوحيدة في البلاد المصرية [٣] ، ويرى علي مبارك أن اصلاح التعليم هو خير انواع الاصلاح ، بل هو خير من الاصلاح السياسي ، كما اكد على أن الاصلاح السياسي ما لم يرتكز على الاصلاح التعليمي فلا بقاء له ولا قيمة لذلك [٤] .

وكانت رغبة علي مبارك في اصلاح التعليم مستندة إلى دعامتين ، الاولى : إحساسه بان التعليم يجب أن يكون من متطلبات البيئة ويساير حاجتها ، والثانية : إحساسه بان التعليم يجب أن يكون شعبيا – أي غير خاضع لسلطات الحكومة – فعد التعليم كالماء والزاد فقال في ذلك :

---

[١] علي مبارك ، نخبة الفكر في تدبير نيل مصر ، المصدر السابق ، ص ٢٧ – ٢٨ .

[٢] المصدر نفسه ، ص١٨٥ .

[٣] محمود الشرقاوي وعبد الله المشد ، علي مبارك حياته ودعوته واثاره ، المصدر السابق ، ص١٧٥ .

[٤] احمد امين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، المصدر السابق ، ص٢٠٠ .

" فالخلق مفتقرة إلى العلم في سائر البلاد كافتقار الظمآن إلى الماء " [1] ، كما نبه إلى اهمية الكتاب والمطالعة ، فكان يرى في المطالعة انها : " تزيد البركة في العمر ، وان قلة الاطلاع بمنزلة قصر العمر " ، وكان من الداعين إلى اهمية الكتاب والمطالعة ، وقد عمد إلى انشاء دار الكتب عام ١٨٧٠م التي وصف مشروع انشائها قائلا : " من انفع التجديدات التي حدثت في عهد الخديوي اسماعيل ، وحصل به النفع العام للخاص والعام " .

ويعد علي مبارك رجل التعليم في مصر ، إذ أن نظارة المعارف عرفت اوج ازدهارها في عهد الخديوي اسماعيل عام ١٨٦٨م ، وان علي مبارك تولى منصب نظارة المعارف في ١٥ نيسان عام ١٨٦٨م ، إذ تولى نظارتها اربع مرات إلى عام (١٣ ايار عام ١٨٩١م) ، وكان آخر عهده بها ، ففي المدة التي سبقت تولي علي مبارك نظارة المعارف كان طابع التعليم في مصر باستثناء الازهر اما حربي أو عملي وثيق الصلة بالتعليم الحربي ، وكانت المدارس الخصوصية (دون العالية) هي : الطب البيطري ، والبيادة ، والسواري ، والمحاسبة القبطية والزراعة ، وكانت المدارس العالية هي (الطوبجية) و (اركان الحرب) ، و (المهندسخانة) ولا توجد مدارس للعلوم الانسانية في مختلف مراحل التعليم [2] ، وشهد التعليم العالي في بداية تولي علي مبارك نظارة المعارف اهتماما وحقق نهضة ، وظهرت إلى حيز الوجود مدارس العلوم الانسانية مثل (مدرسة الادارة) ، و (الحقوق) عام ١٨٦٨م ، و (مدرسة اللسان الحبشي) عام ١٨٦٨م، و (مدرسة اللسان المصري القديم) عام ١٨٦٩م ، و (فرقة الرسم بالمدارس الملكية) ، و (فرقة النقاشين) ١٨٦٩م ، و (دار العلوم) عام ١٨٧٠م ، و (الالسن) ، و (قلم الترجمة) عام ١٨٧٨م [3] .

ولم يكن اهتمام علي مبارك بالتعليم العالي على حساب المتوسط (التجهيزي) أو الابتدائي ، كما لم يهتم بجانب ويهمل الآخر ، فعنايته بالعلوم الانسانية لم تقلل من عنايته بمدارس العلوم العملية ، فهو الذي اقام (مدرسة العمليات الجهادية) ، و (مدرسة العمليات الملكية) ، و (فرقة التلغراف) ، وكذلك جملة فرق متنوعة أخرى مثل (كالمساحة والمحاسبة) عام ١٨٦٨م ، و (فرقة عمليات المرور) عام ١٨٧٠م ، وبذلك يتفق مجموعة من المؤرخين على تسميته بـ (ابو التعليم الصناعي) ، فجميع المدرس الصناعية التي انشأت في مصر منذ توليه نظارة المعارف عام ١٨٦٨م حتى وفاته قد انشأت في زمن نظارته للمعارف فقط ، فلم تقم في مصر مدرسة

---

[1] سؤدد عبد الحسين سبتي ، دور النخبة المثقفة في الحياة الفكرية والسياسية في مصر من١٨٦٩ إلى ١٩١٨م، اطروحة دكتوراه ، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية ، الجامعة المستنصرية ، ٢٠٠٧ ، ص١٥٢ .

[2] امين سامي ، التعليم في مصر ، القاهرة ، ١٩١٧م ، ص٥-٨ .

[3] المصدر نفسه ، ص١٧ -٢٠ .

صناعية واحدة إلا في عام ١٩٠٢م ، أي بعد وفاته بعشر سنوات [١] ، واما بالنسبة للريف فقد وجه عناية الدولة للاهتمام بالتعليم في الريف بعد أن كان مقتصرا على العاصمة وبعض المدن الكبرى ، فقام بتحويل المكاتب الاهلية في القرى والريف وكان عددها (٥٠٠٠) مكتب إلى مدارس ابتدائية نظامية ، وهيأ لها سبل اداء رسالتها ماديا وادبيا ، وتوسع في عددها بالمدن الاقليمية بالبلاد ، وانشأ للمكاتب الاهلية ادارة خاصة بها في ديوان المدارس عام ١٨٧١م ، كما واجرى احصاء للمتعلمين يومئذ فوجد نسبتهم ٥% [٢] .

ولم يقف علي مبارك من هذا الأمر مكتوف الايدي وانما قدم طلبا إلى الخديوي بضرورة التبرع من املاكه الخاصة لأجل التوسع في التعليم ، فصدرت اوامر الخديوي في (٢٥ ربيع الأول عام ١٢٨٨هـ / ١٤ حزيران عام ١٨٧١م) بتخصيص عشرة الاف فدان من اطيان الميري ، وعشرة الاف فدان من اطيان الاواسي ، وجميع الاملاك التي آلت إلى بيت المال ، ومبلغ سبعة الاف كيس (٣٥٠٠٠ جنية) للمكاتب الأهلية [٣] ، وظل اهتمامه قائما وسعيه دائبا لتنظيم هذه المكاتب وتحديثها ، فقد طلب في مذكرة إيضاحية قدمها عن التعليم في مصر في (٢٤ جمادي الآخرة عام ١٣٠٧هـ / ١٥ شباط عام ١٨٩٠) أن يقوم مكتب نظامي ابتدائي من الدرجة الثالثة في كل بلد لا يزيد تعداد سكانه عن (١٠٠٠ نسمة) ، ومن الدرجة الثانية اذا زاد عدد السكان عن (١٠٠٠ – ٥٠٠٠ نسمة) ، ومن الدرجة الاولى للبلد الذي يتجاوز عدد سكانه الخمسة الاف [٤] ، اضافة الى انه طالب مجالس المديريات بتدبير المباني لهذه المؤسسات التعليمية والانفاق عليها وصيانتها ، وان تنشأ بدار العلوم فرقة ابتدائية خاصة لتخريج معلمي هذه المكاتب ، واقرت نظارة المعارف مشروعة هذا في (١٣ محرم عام ١٣٠٧هـ / ١٨ آب عام ١٨٩٠م) [٥] .

مما تجدر الاشارة اليه الى انه وجه اهتمام الدولة إلى تعليم البنات بعد عام واحد من توليه نظارة المعارف ، ففي (٢٤ محرم عام ١٢٨٦هـ / ٦ ايار عام ١٨٦٩م) ارسل الخديوي إلى علي مبارك خطابا قال فيه : " قد اقتضت ارادتنا انه بمعرفتكم يجري انشاء محل مدرسة بجنينة تعليم البنات في ارض الميري المتخلفة من بعد التنظيم في شارع باب اللوق ، فيلزم المبادرة بإجراء

---

[١] امين سامي ، تقويم النيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، المصدر السابق ، ص٧٩٢ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٧٩٢ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوقيفية ، الجزء الثالث ، المصدر السابق ، ص٦٦ .

[٤] امين سامي ، التعليم في مصر ، المصدر السابق ، ص ٦٨ – ٦٩ .

[٥] علي مبارك ، الخطط التوقيفية ، الجزء الثالث ، المصدر السابق ، ص٦٧ .

مقتضى ذلك ، كما هو مطلوبنا .. " [١] ، فمنذ ذلك التاريخ بدأ اهتمام الدولة بالتعليم العام للبنات بعد أن كان تعليمهن مقتصرا على الولادة منذ عهد محمد علي ، وكان علي مبارك يبحث في السبل كافة لتعليم الناس ما هم في حاجة إليه ، فلا يستنكف أن يكون معلما للهجاء ، وقد قام زمنا بتعليم الجنود ، ويقول في هذا الصدد : " كيف لا ارغب انتهاز فرصة تعليم ابناء الوطن " ، كما قال أيضا : " كنا مبتدئين نتعلم الهجاء ، ثم وصلنا إلى ما وصلنا إليه " [٢] ، ولم يترك بابا من ابواب المعرفة إلا وكان له فيها ركن ، وكان له فيه اثر من المعارف المدرسية إلى المعارف العامة فالمعرفة التخصصية ، فمن الهندسة المدنية والعسكرية إلى العلوم والرياضيات ، ومن الجغرافية إلى التاريخ ، ومن خواص الاعداد إلى المكاييل والاوزان ، ومن علوم الدين إلى علوم الاخلاق والاجتماع ، بل وعلم التغذية وما يتصل بها من معارف طبية ، فقد كان الرجل موسوعيا يختزن قلمه أو تختزن ذاكرته كل ما يقرأ ، ويسوقه احيانا على حاله أو يطبعه بفكره تحمله حقيقة ما إلى فكرة ثم تسوقه أخرى إلى نقيضها [٣] ، في ذات الوقت كان يكتب للناس كل ما يرى أنهم بحاجة إليه ، ولا يبخل بعلمه على احد ، ولا يمنعه عن راغب ، بل انه ليغذي الناس به ، فيقول في مقدمة كتابه (علم الدين) انه : " رأى النفوس كثيرا ما تميل إلى السّير والقصص وملح الكلام بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة ، فقد تعرض عنها في كثير من الاحيان ولاسيما عند السآمة والملل من كثرة الاشتغال ، وفي اوقات عدم خلو البال ، فحداني هذه الايام نظارتي لديوان المعارف إلى عمل كتاب اضمه كثيرا من الفوائد في اسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها إلى مطالعتها ، ويرغب فيها رغبته في ما كان من هذا القبيل فيجد في طريقه تلك الفوائد ينالها عفوا بلا عناء حرصا على نعيم الفائدة وبث المنفعة " [٤] .

وأدرك علي مبارك نعمة التعليم عليه وفضله فيما وصل إليه في وطنه فيقول : " حتى صرت من ابنائه المعدودين ورجاله المعروفين " [٥] ، وعليه أن يفي بدينه إليه ، وان كان على يقين من انه وان استوفى الجهد وقضى العمر في خدمته ، ويقول عن ذلك : " لم اقم بعشر معشار ما عليّ من واجباته " ، وكأنه كان يريد لكل مواطن أن يكون (علي مبارك) آخر ، فلا يكتفي بافتتاح المدارس أو اعداد المعلم الصالح ، أو تيسير وسائل الثقافة للجميع ، بل يلج ميدان التأليف

---

[١] امين سامي ، تقويم النيل ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، المصدر السابق ، ص٨١٢ .

[٢] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ٢٤١ – ٢٤٢ .

[٣] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص ١١٦ .

[٤] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ٢٤٣ – ٢٤٥ .

[٥] المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ – ٢٤٨ .

ليزجي إلى الناس علمه ومعرفته ، ويدلي اليهم برايه وفكره ، فكانت اكثر كتبه مدرسية كتبت للمدارس أو للمبتدئين في دراسة العلوم الهندسية أو لنشر البسائط العلمية التي يحتاجها الناس في حياتهم ، اما القليل منها فهي الاثر الخالد لجهده العلمي ، ومن هذه الكتب المدرسية بترتيب ظهورها هي كالاتي :

١. تقريب الهندسة
٢. حقائق الأخبار في اوصاف البار
٣. خواص الاعداد
٤. تنوير الافهام في تغذية الاجسام
٥. تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين
٦. حروف الهجاء والتمرين على القراءة
٧. الميزان في الاقيسة والمكاييل والموازين

ويعد علي مبارك في مجال التدريب رجل التربية والتعليم آنذاك في مصر ، إذ كان يفكر في هذا الحقل تفكير أصحاب الرسالات ، فهو يدرك المصاعب والعقبات التي تواجهه ، وكذلك يعي ضرورة الصبر من اجل الوصول إلى الغاية المرجوة وذلك لان التربية عنده عملية تطور اجتماعي يزيد بكثير عن محو الامية وتعليم القراءة والكتابة ، ولذلك فان التربية من الامور الصعبة التي يلزم لها زمنا طويلا لكي ترسخ ، إذ أن هناك عادات وتقاليد واعتقادات سائدة في المجتمع ، ولا يمكن تغييرها بسهولة بمجرد حلول افكار واعتقادات جديدة ، وانما يلزم لها مدة طويلة لكي تستطيع الامم استيعابها وتطبيقها ومن ثم نبذ الافكار والاعتقادات القديمة [١] ، ويمكن القول أن عملية التربية والتعليم عند علي مبارك عملية تنموية اجتماعية شاملة ، وهي تحضّر وحضارة يلزمها زمن حضانة العلم اللازم لنضج ثمراته ، وليست قراءة وكتابة كما يراها الاخرون ، بل هي بالدرجة الاساس المعلم القدوة والمقتدر على اجتذاب تلاميذه في شوق ورغبة إلى معرفة عالم العلم الجديد .

٤. المجتمع :

أن المجتمع الفاضل في رأي علي مبارك هو مجتمع العلم والعدل ، لان حياة الإنسان الروحية من حيث التدين متدرجة ولاسيما اذا كان مستنيرا بريئا من الخرافة في اطار العلم ، فبالعلم يحقق الإنسان كجنس ثراء الدنيا والاخرة ، اما العدل فانه الضمان كي يكون هذا الثراء في الدنيا

---

[١] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص١١٦ .

عائدا إلى مستحقيه وصنّاعه ، كما هو الحال مع ثراء الاخرة الذي يحكم في المولى سبحانه بالفسطاط المستقيم [١] ، ويعد العدل عند علي مبارك نسبي ، وهو في ذلك متفق مع كل المفكرين والباحثين ، وهو يدل على عدل المرحلة التاريخية التي عاشها ، والمجتمع الذي القى بثقله كي تعيشه مصر والشرق في ذلك الحين مرحلة التحول من اقطاع العصور الوسطى وتخلفها وظلماتها إلى المجتمع البرجوازي الحديث والمستنير بكل ما كانت تبشر به الطبقة الوسطى من صور مجتمعها البرجوازي الجديد والمنشود ، فقد كانت تلك أحلام المستنيرين ودعاة التقدم في مجتمع لم يكن الفكر الاشتراكي أو تطبيقاته قد أصبحت فيه بعد قضية مطروحة على الناس والحياة [٢] .

وقد صوّر علي مبارك هذا المجتمع المنشود في صورة حديثة لمجتمع (المدينة الفاضلة) الذي كتب عنه (أبو نصر الفارابي) (٢٦٠ – ٣٣٩هـ / ٨٧٤ – ٩٥٠م) ومن نحا نحوه من المفكرين القدماء ، فيعد العَالَم في فكره كما هو عند أصحاب (المدينة الفاضلة) " شخص واحد ذو اعضاء " ، وفي هذا العالم مصالح خاصة ومصالح عامة ، ولابد من تقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة ، لاسيما وان المصالح العامة اذا دققنا النظر فانها تتضمن في داخلها المصالح الخاصة ، وعلى الموقف من هذه القضية ، قضية العلاقة بين المصالح العامة والمصالح الخاصة ، وتغليب أي منها على الاخرى يتوقف الصلاح والفساد في هذا العالم [٣] ، وحول هذه العلاقة تحدث علي مبارك قائلا : " فاذا نظرنا في احكام المصالح العامة وتأييدها وتمتين قواها كانت المصالح الخاصة تابعة لها ، جارية على منهاجها ، ومتى كان النظر مقصورا على المصالح الخاصة نجم الفساد واستحكم ، ولم يتم امر مصلحة ، لما يكون في الاستئثار من المباغضة والمشاحنة " [٤] .

ويضيف علي مبارك : " ولكي يتحقق هذا المجتمع القانوني الملتزم بالقانون فلابد أن يكون الحاكم والمحكوم امام هذا القانون سواء ، بل وان يكون خضوع الحاكم للقانون مقدما على طلب الخضوع له من المحكوم ، فالواجب على ولاة الامور أن لا يقطعوا في حكم إلا من القانون ، ولا يكفي أن يحكم القانون إذ لابد أن يكون هذا القانون عادلا ، لانه بغير العدل لا يتم صلاح ، وهذه الصفة اكمل الفضائل لشمول اثرها ، وعموم نفعها ، واليها الاشارة بقوله (صلى الله عليه واله) :

---

[١] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ٢٥١ .

[٢] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص٣٨٥ .

[٣] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٧٤ .

[٤] المصدر نفسه ، ص ٢٧٥ .

(بالعدل قامت السموات والارض) ، إذ لم يخلق الله تعالى احلى مذاقا من العدل [١] ، ويقول علي مبارك : " أن ادارة الاعمال الدنيوية محتاجة إلى عملين ، عمل بالأبدان ، وعمل بالأرواح ، وقد فاوت الصنع الرباني بين الناس فجعل بعضهم اذكياء ، والبعض اغبياء وكفل بعضهم بعضا ، فكان اشتغال اذكياء الناس بالفكر في مصالحهم وتدبير ما تحسن به احوالهم ، فلزم في مقابلة هذه الخدمة الروحانية أن يخدمهم بقية الناس بأبدانهم ، ويريحهم من تجشم الكلف في تحصيل مؤنهم ، فظهر الفقر والغناء ، وبموجب ذلك نجم بينهم التحاسد والتباغض والتعادي " [٢] .

ويقسم علي مبارك العمل إلى :

١. فكري ويدوي : ويرى في ذلك المنشأ للتفاوت الطبقي ويسمى الطبقة (وظيفة) .
٢. كذلك يدعو إلى أن تكون المفاضلة والتقدم والتأخر بناءً على العمل ، وفي داخل اطار (الوظيفة) أي الطبقة ، ولا يصح أن يمد أهل طبقة عيونهم إلى ما تتمتع به أهل طبقة أخرى .
٣. والحارس لذلك هو جهاز الدولة وقوانينها الوضعية ، ولما لم تكن في كبح جماح التحاسد والتباغض والتعادي جاءت القوانين الدينية ووعاظها والداعون إلى الزهد وذم الدنيا ، فكرسوا جهودهم، ليثبت أهل القلة على اشغالهم الشاقة،ويكفوا عن معارضة المكثرين ومضاربتهم"[٣] .

ولا يرى علي مبارك في هذا المجتمع الذي يصوره هذا النص ، العدل الذي تحدث عنه ودعا إليه ، لأنه يرى أن وجود جهاز الدولة بمؤسساته القمعية القهرية ، ويرى في استعانة الجهاز بمؤسسات الوعظ والزهد وذم الدنيا الدليل على اقتصار العدل والإنصاف ، ويقول : " أن الناس لو انحازوا إلى العدل وحققوا الانصاف لما احتاجوا إلى اجهزة القمع هذه ، ولو سلك الناس سبيل الانصاف لم يحتاجوا إلى شيء من ذلك " [٤] ، وكان المصلحون في هذا المجتمع يتطلعون إلى التقدم والى اسهام أصحاب رؤوس الاموال والمدخرات في تكوين الشركات المساهمة لتصنع في اقتصادنا ما صنعت مثيلاتها في اوربا البرجوازية ، ودعا علي مبارك إلى أن تسلك مصر ذلك الطريق ، ومارس عمليا وضع هذه الافكار في التطبيق عندما تولى نظارة الاشغال ، فان الرجل وهو يختار هذا الموقف الاجتماعي ، ويدعو إلى مجتمع برجوازي جديد يعلي من قيمة العمل وينشد قدرا من العدل النسبي في اطار طبقات تتخذ من العمل والحرف والصناعات مجالا لتنافسها [٥] .

---

[١] المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ – ٢٧٧ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، الجزء التاسع ، ص ٥٨ – ٦٠ .

[٣] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ١٦٤ .

[٤] محمود الشرقاوي و عبد الله المشد ، علي مبارك حياته ودعوته وارائه ، المصدر السابق ، ص ٨٨–٨٩ .

[٥] محمد دري الحكيم ، تاريخ حياة المغفور له علي مبارك ، ص ٤٨–٥١ .

وكان علي مبارك مع مصلحي عصره والجيل المستنير الذي بدأ برفاعة الطهطاوي قد رأوا في المجتمع البرجوازي المستنير المهمة التي يجب الكفاح من اجل الانتقال بالبلاد اليها ، لان النجاح فيها يعني التخلص من بقايا العصور الوسطى ، وتحقيق النموذج الاوربي سواء في التنمية الاقتصادية أو الاجتماعية أو في الاستنارة والتنوير دونما تعارض مع المواريث والموروثات الثانية وغير الدخيلة في تراثنا الفكري والديني [١] ، واما موقف علي مبارك من المرأة فقد وقف موقف رجل الدين المسلم المتنور ، في وقت ظهرت فيه آراء تأثرت بالدعوات الغربية لتحريرها من أصحاب الاتجاه الأول من قضية المرأة ، وقد سبق رفاعة الطهطاوي كتاب الشرق جميعا إلى الحديث عن قضية المرأة تعليما وعملا ، فهو منذ التاريخ الذي كتب فيه (تلخيص الابريز) [٢] عام ١٨٣٠م قد اتخذ موقفا مناصرا لتحريرها من اسر العصور الوسطى ، ولاسيما عندما عرض صورة المرأة الفرنسية ، وبدد اوهام عصره ومجتمعه الشرقي حول اقتران التحرر والاختلاط بالانحلال والتخبط ، فقد جاء بعده علي مبارك فكانت روايته (علم الدين) المكان الذي عرض فيه فكره عن قضية المرأة ، وهي الرواية التي كتبت في نهاية خمسينات القرن التاسع عشر [٣] .

وظهرت في تلك الاجواء التي عاشتها مصر اتجاهات فكرية انطلقت من الخلفية الفكرية والعقائدية لهؤلاء المفكرين العرب من الموقف من المرأة ، مثّل الاتجاه الأول الذي وازن بين المفهوم الغربي والاسلامي للمرأة ودائما يميل إلى مفهوم الغرب والاسلام للمرأة ، منطلقين من أن حريتها وحقوقها قد اقرها الشرع الاسلامي ، في الوقت الذي اخذوا من الغرب بعض الافكار التي هي في جوهرها لا تتنافى مع تعاليم الاسلام ، وكان رائد هذا الاتجاه (رفاعة الطهطاوي) ثم (محمد عبده) ، و (محمد رشيد رضا) ، و (ابن باديس) في الجزائر ، و (وعلال الفاسي) ، و (خير الدين التونسي) في تونس [٤] .

وكان الاتجاه الثاني متأثرا تأثرا كبيرا بأفكار الغرب تجاه المرأة ، بل انه كان يمثل وجهة النظر الغربية عن المرأة ، ومثّل هذا الاتجاه (لطفي السيد) ، و (وسلامة موسى) ، و (قاسم امين) [٥] ، وانحاز علي مبارك إلى صف تحرير المرأة الشرقية وتطويرها في بعض القضايا ،

---

[١] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص ١٣٩-١٤٤ .

[٢] رفاعة الطهطاوي ، تخليص الابريز في تلخيص باريز ، طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي ، (القاهرة – ١٩٥٨) ، ص١٠٥ .

[٣] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٩٩ .

[٤] فاروق أبو زيد ، الفكر الليبرالي في الصحافة المصرية ، عالم الكتب ، (القاهرة – بلا) ، ص١٧٧-١٨٠ .

[٥] عبد الكريم الشيباني ، المصدر السابق ، ص١١٥-١٢١ .

في حين وقف مترددا امام بعض القضايا الاخرى ، ففي القضايا التي انتصر فيها للمرأة كان واضحا وصريحا ، اما مواقفه المترددة فقد اختار لتغليف التردد أو لتفادي الحرج وايثار السلامة أن يسوق آراء الفرقاء المتصارعين حول الصواب في هذه القضايا على ألسنة ابطاله في (علم الدين) ، إذ انه قد وقف إلى جوار حق المرأة في التعليم ، بل كان اول ناظرا للمعارف ينهض بافتتاح المدارس الحكومية التي تتعلم فيها الفتيات علوم المنهج العام بعد أن اقتصر تعليمهن على الولادة منذ عصر محمد علي ، و (الشيخ) بطل روايته قد تزوج من فتاة فقيرة غير متعلمة ، فعلمها القراءة والكتابة حتى غدت ندا له في القراءة وتحصيل المعلومات [١] .

ويعقد علي مبارك في روايته مسامرة كاملة (المسامرة الخامسة) ، إذ يدير فيها حوارا بين الشيخ علم الدين وزوجته ، فاذا الآراء الاكثر دقة والأقرب إلى الصواب تأتي جميعها على لسان الزوجة لا الزوج ، وهنا نلاحظ دلالة هذا الموقف على تقدير علي مبارك لعقل المرأة الناضج وكفاءتها اذا هي حصّلت الأدوات وأخذت منها ما يأخذ الرجل [٢] ، وقد وقف علي مبارك من هاتين القضيتين من قضايا تحرير المراة (التعليم ، و القدرات العقلية والفكرية) مع التيار التقدمي والثوري المستنير ، في حين نراه قد وقف موقف المتردد في قضيتي (تعدد الزوجات ، ورفع الحجاب والاختلاط) ، في ذات الوقت اكتفى من قضية (تعدد الزوجات أو وحدانية الزوجة الواحدة) بعرض وجهات نظر الفريقين دون أن يحسم النزاع الناشب بينهما ، فقد كان لعلي مبارك آراء عن هذه القضية سواء في وضعها التاريخي أو في واقعها الذي كان يجري في ضوئه النقاش ، ومن هذه الآراء [٣] :

الراي الأول : يرى فيه أن تعدد الزوجات ليست خاصية اختص بها الشرق ، ولا أمرا انفرد به الاسلام والمسلمون ، بل هو عام ولم يمنعه إلا النصارى فقط ، حتى أن الذين سبقوهم كانوا يجوزون التعدد .

الراي الثاني : اما فيما يتعلق بالأسباب التي ادت تاريخيا إلى تعدد الزوجات ، فيقدم عددا من الاسباب الواقعية والصادقة ، فكثرة عدد النساء عن عدد الرجال بسبب الحروب كانت سببا من الاسباب ، وكذلك رغبة الرجال في تعدد الزوجات كانت سببا آخر .

الرأي الثالث : وفيما يتعلق بموقف الاسلام من هذه القضية القديمة ، فان علي مبارك يرى أن الاسلام قد التزم فيها موقفه المتميز الموقف الوسط ، ففي الشريعة الموسوية كان التعدد مباحا بلا

---

[١] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ٢٠١ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٢٠٢ .

[٣] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ٢٠٤ .

حدود ، وفي الشريعة العيسوية كانت وحدانية الاقتران ، فجاء الاسلام بإباحته إلى اربع او ما ملكت ايمانكم كموقف وسط بين التقيد بالوحدة وبين الاباحة دون حدود [١] .

الرأي الرابع : يعترف فيه علي مبارك أن الواقع الراهن للمجتمعات الإسلامية قد خرج بهذا الأمر عن حدود النفع والصواب، وان التعدد غدا مصدرا لفساد اجتماعي تعاني من اثاره هذه المجتمعات.

اما فيما يتعلق بالحجاب فقد عرض علي مبارك نموذجين من الآراء ، الأول : صورة المرأة الاوربية المتعلمة المتحررة ، وحجج المستشرق البريطاني من خلالها ترى الدعوة إلى تحرر المرأة من قيود الحجاب ، ولانخراطها في شؤون المجتمع جنبا إلى جنب مع الرجل ، والثاني : اختيارات الشيخ (علم الدين) وآرائه في الحجاب الذي يعصم المرأة والرجل ويفيد المرأة ، ترى من خلاله منطق التيار المحافظ على واقع القرون الوسطى وقيم عصر الاقطاع [٢] ، فعرض النموذجين دون أن يحسم الموقف أو أن ينحاز لأي منهما ، وعندما يدور حوار بين (علم الدين) وصاحبه المستشرق البريطاني حول هذه القضية (الحجاب ام الاختلاط) ، نجد علي مبارك يعرض على لسان المستشرق ، حجج المحدثين الراعين لتحرير المرأة ، فيقول : " أن التربية هي العاصم للمرأة من الزلل ، وهي حصن الشرق ، وليس الحجاب في المنزل ، إذ الحجاب لن يعصم النساء من الرذيلة ، لان صلاتهن بالعالم واهل الرذائل فيه لن تقطعها جدران البيوت ، وليس سوى التربية الحسنة عاصما وحضا للمحجبات " [٣] .

وتطرق علي مبارك إلى جانب آخر من المجتمع ، يتمثل (بالدين والحياة) فكان يدعو إلى جعل الدين الصحيح وسيلة من وسائل التربية والتقدم وتطوير الحياة لأهل وطنه ودينه ، فكتب في هذا الموضوع الكثير من المقالات ، ونشرها في مجلة اصدرتها مشيخة الازهر ، وذلك اواخر القرن التاسع عشر ، وكانت تحمل اسم (الازهر) ، إذ دعا فيها دعوته تلك ، وكان فيها عالما دينيا مستنير الذهن ، وداعية مخلصا ، كعادته دائما للتقدم عن طريق العلم ، إذ خصصت مجلة (الازهر) القديمة صفحاتها لرجل التربية والتعليم الأول (المغفور له علي مبارك) الذي كتب بعض المقالات التربوية القيمة ، ومنها مقالة تحت عنوان (مفاتيح الكنوز) ، جاء فيها : " والله

---

[١] المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ .

[٣] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٢٠٨ – ٢١٠ .

سبحانه وتعالى لم يبح لنا من الافعال إلا ما يهمنا في صلاح ديننا أو دنيانا ، وما لا يهمنا في شيء منهما أن كان فيه ضرر يلحق احدهما فحرام ، والا فتركه والاغماض عنه احق واولى " [١] .

ويذكر علي مبارك قول رسول الله (صلى الله عليه واله) : (من حُسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه) ، ويضيف قائلا : " انه طالما فكرت في الإنسان ومزاياه ، وما اودعه الباري من الحواس المرشدة والنفس المفكرة والعقل المدبر ، والبيان المصور ، واللسان المعبر ، والقوى المنفذة ، والاعضاء العاملة التي يجمعها تصرف في انواع العالم ، وبسط يده على كل الكائنات ، وكان له السلطان الاعظم على ما في الارض ، مع ما به من الضعف وتزاحم العلل والاغراض وكثرة الحاجة وقصر الحركة ، وهو متصرف بجميعها عن وجهتها منحرف بها عما خلقت لأجله ، والباري لم يركب فيه تلك القوى وهذه الآلات إلا ليجعلها عوامل تحت سلطة التمييز والتدبير يصرّفانها بمعيار الحكمة في مجاري ثمرات ما احاطه من الكائنات وجعله حوله من كنوز الخيرات " [٢] ، ويرى أنه على الإنسان أن يعمل على وفق ما يحقق حكمة الباري فيه مع انه لم يكلفه أن يأتي إلا بما في وسعه من العمل ، وسخر له ما يعجز عنه قدرته وتقصر دونه همته ، ولم يبق له إلا ما هو بموازاة امكانه كما اشير إلى ذلك في قوله تعالى : ((**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩)**)) [٣] ، وقهر جميع الكائنات وجعلها مادة صنع حواسه التي هي سبل عمله ومجاري تفكيره في هذا العالم ، ففي قوله تعالى : ((**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)**)) [٤] ، فالشمس والنجوم والهواء والماء والحيوان والنبات والتراب وسائر الموجودات على اختلاف انواعها وتباين خصائصها مخلوقة ومذللة لفائدة الإنسان ومصلحته ، وقد امن عليه الخالق بذلك في مواضع شتى من كلامه المقدس فقال : ((**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)**)) [٥] ، وقال تعالى : ((**وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢)**)) [٦] ، وقال تعالى : ((**وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا**

---

[١] علي مبارك ، مفاتيح الكنوز ، مجلة الازهر ، العدد ٢١ ، حزيران ١٨٩١م ، ص٢٣ ، نقلا عن كتاب محمود الشرقاوي وعبد المشد ، علي مبارك حياته ودعوته وآرائه ، ص١٨٢ .

[٢] المصدر نفسه ، ١٨٣ .

[٣] سورة عبس ، الآيات : من ٢٤ إلى ٢٩ .

[٤] سورة النحل ، الآية : ٧٨ .

[٥] سورة الجاثية ، الآية : ١٣ .

[٦] سورة إبراهيم ، الآية : ٣٢ .

تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤))) [١] ، وهكذا مضى علي مبارك يعالج موضوع العقل البشري ، ويرسم سبل الصراط المستقيم كما وضحها الله تعالى في كتابه العزيز ، ولا سبيل إلى الاتيان بالأعمال الحسنة إلا حيث يتثقف العقل بأنواع المعارف الحقة ويهذب بالتربية والآداب فاذا تم هذا للمرء اتى بإعمال تامة الحسن رائقة الصنع ، رائعة الابداع ،

ما وهب الله لامرئ هبةً احسن من عقله ومن ادبه

هما حياة الفتى فان فقدا ففقده للحياة اليف به !

وتحدث في مقال آخر نشره في المجلة نفسها عن العدل العام ، وكيف انه بالعدل قامت السماء والارض ، فقال : " فبالعدل تخصب الارض ، وتثمر الاموال ، وتنظم الاحوال وتدر الارزاق ، ويزول الشقاق ، وبه يستقيم الدين ، ويقوى حبله المتين ، وذلك أن الشرع لا يحفظ إلا بالسلطان الذي يحرسه ويذب عن حرمه ، كما أن السلطان لا بقاء له إلا بالدين القويم إذ هو طريق العدل المستقيم

فالدين بالملك يقوى والملك بالدين يبقى

فاذا قاد الامة راعيها بازمّته ، ونهج شرعته ، اتصلت الاسباب ، وتفتحت الابواب ، وسهل كل عسير في الزمن اليسير ، وراجت الامور ، وذهبت الشرور ، ووافى السرور ، والتأمت القلوب ، وانجلت الخطوب ، وغرست في الافئدة ، وصمدت على مر الايام ، سيرته " [٢] .

ويقول علي مبارك : " لا يخفى أن تربية الملل – أي الشعوب – امر صعب يلزم لها زمن طويل لان هناك عوائد قديمة ، واخلاقا راسخة في الاذهان ذميمة ، وافكارا فاسدة ، واعتقادات كاسدة ، فلا تزول بمجرد بعض التجددات ، بل تبقى عند الشيوخ ومن قرب منهم في السن إلى الممات ، بل ربما ورثها عنهم بعض الراشدين من الشبان ، فلا تنعدم بالكلية إلا بعد انقراض جميع هؤلاء أو اكثرهم ، فعلى حكم العقل يلزم التربص إلى انقضاء ثلاثة اجيال ، أي مائة عام أو مائة وخمسين عام " [٣] .

تأسيسا على ما تقدم يمكن القول أن علي مبارك يكاد يكون داعية جهير الصوت إلى الحياة الاوربية والى نمط من السلوك الذي يعرفه من حياتهم ، فهو يشرح بإسهاب طويل نظام

---

[١] سورة إبراهيم ، الآية : من ٣٣ إلى ٣٤ .

[٢] علي مبارك ، العدل ، مجلة الازهر ، العدد محرم ١٣٨١هـ / حزيران عام ١٩٦١م ، ص١٤٠ ، نقلا عن محمود الشرقاوي و عبد الله المشد ، علي مبارك حياته ودعوته واثاره ، المصدر السابق ، ص١٨٣ .

[٣] علي مبارك ، علم الدين ، الجزء الأول ، المصدر السابق ، ص٣١٨ .

(المسرح الاوربي) ويشيد بفائدته في التهذيب والتربية وضرورته لحياة الناس في الثقافة والترفية والتعليم واتخاذ العبرة ، وكذلك يشرح بالتفصيل انماط الحياة الاوربية في الحديث والحركة واللباس ، وآدابهم في الاجتماع والطعام [١] ، يمكن القول أن من الدعوات التي يعتقد ان علي مبارك سبق بها عصره هي ثمره من ثمرات تعليمه الاوربي واتصاله بالحياة الغربية ، هو انكاره على أهل الشرق انسياقهم إلى ما يدعوهم إليه (أهل الزهد والورع) من الانصراف عن الجد والكد والعمل الدائب والسعي القوي المثابر [٢] .

وكان لهؤلاء الدعاة في القرن التاسع عشر من السطوة والسيطرة على مشاعر الناس وعواطفهم ما لا نستطيع أن ندرك مداه ، لذلك نجد دعوته للتمرد على سطوة هؤلاء وسيطرتهم دعوة قائمة على العبارة اللينة والاشارة البينة [٣] ، ودعا علي مبارك إلى فهم الأدب الاوربي ومستحدثات فنونه في الفكر والانتاج الذهني كالقصة والتمثيل ، ولم تكن دعوته إلى هذا الأدب والفن دعوة مجردة ، بل كان يصحبها العمل الجدي ، فنجد في ترجمته (محمد افندي عثمان الونائي) وهو احد معاصريه الذين استكتبهم تاريخ حياتهم وضمنها كتاب الخطط التوفيقية ، نجد في هذه الترجمة أن صاحبها نقل إلى العربية كتاب قصص (لافونتين) المشهور في الأدب الفرنسي وسماه (العيون اليواقظ في الامثال والمواعظ) ، وهذا الكتاب (لافونتين) كما تعرف قصص صناعها على السنة الحيوان ، كما ترجم الونائي القصة التي عرفها قرّاء العربية بعد ذلك من ترجمة السيد مصطفى لطفي المنفلوطي وهو (بول وفرجيني) وخلع الونائي على بطليها اسمين عربيين طريفين قريبين من اسمي بطليها فسمى ترجمته لهذه القصة (قيول وورد جنة) [٤] .

٥. الوطنية :

الوطن : محل الإنسان ، واوطنت الارض ، اتخذتها وطنا [٥] ، أن مفهوم الوطن عند بعض المفكرين الذين سبقوه أو الذين عاصروه هو كما يأتي :

أ- مفهوم الوطن عند رفاعة رافع الطهطاوي : ويعد اول مفكر مصري في العصر الحديث ، إذ لديه البدايات الجنينية لفكرة الوطنية ، فقد تعرض لفكرة الوطنية المصرية في كتابه الأول (تلخيص الابريز في تلخيص باريز عام ١٨٣٤م) ، وكتب بيتا من الشعر يقول فيه :

---

[١] محمود الشرقاوي و عبد الله المشد ، علي مبارك حياته ودعوته واثاره ، المصدر السابق ، ص١٦٤ .

[٢] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٤٠ .

[٣] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، ص٤٥-٤٧ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، الجزء التاسع عشر ، ص ٦٤ – ٦٥ .

[٥] أبي الحسين الرازي ، معجم مقاييس اللغة ، المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٦٣٦ .

لئن طلقت باريسا ثلاث فما هذا لغير وصال مصر [١]

وقد قدم تعريفا للوطن والوطنية يقول فيه : " أن الوطن هو عش الإنسان الذي فيه درج ومنه خرج وجمع أسرته ومقطع سرته ، وهو البلد الذي نشأته وتربته ، وغذاؤه وهواؤه ، ورباه فسيحة ، وحلت عنه التمائم " [٢] ، فوطنيته ولاء قوي للأرض التي ولد فيها ونشأ عليها ، بيد ان محور الوطنية عنده هي مصر ، التي اصبح حبه لها ثمرة لتجربته الوطنية التي عاشها مشاركا بفكره وعمله ومشاعره ، فهي كنانة الله في ارضه [٣] .

ب- مفهوم الوطن عند جمال الدين الافغاني : ميز الافغاني بين نوعين من الوطنية ، الأول : وهو الذي رفضه ولم يعرفه ، ذلك المعنى الضيق الذي يجعل صاحبه حبيس اقليم من الاقاليم ، أو متعصبا مفرط التعصب لامة من الامم دون سائر ابناء النوع الانساني على الوجه العموم ، والثاني : وهو الذي امن به ودعا إليه وهو ذلك المفهوم الانساني للوطنية الذي يجعل منها دائرة تسبق دائرة العقيدة الروحية التي تعقبها في الاتساع الدائرة الانسانية الشاملة لمجموع بني الإنسان .

ج- مفهوم الوطنية عند الشيخ محمد عبده [٤] : فهو يعتقد : " أن الوطن في اللغة محل الإنسان مطلقا ، فهو السكن بمعنى أن نقول استوطن القوم هذه الارض وتوطنوها أي اتخذوها مسكنا " ، فالأرض المشتركة عند الشيخ محمد عبده هي اساس رابطة الوطن ، وهنا يتفق الشيخ محمد عبده مع رفاعة رافع الطهطاوي بربط حق المواطنة بكفالة الحقوق والواجبات السياسية [٥] .

---

[١] رفاعة رافع الطهطاوي ، تلخيص الابريز في تلخيص باريز ، طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٥٨م ، ص١٠٥ .

[٢] روضة المدارس ، العدد ٢١ ، السنة الخامسة ، ١٨٧٤م ، ص١٦ .

[٣] عبد الكريم حسين ، اتجاهات التحديث عند المفكر العربي رفاعة رافع الطهطاوي ، المصدر السابق ، ص٨٦ .

[٤] محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥م) : ولد في قرية في محلة نصر ، وكان ابوه فلاحا ، انتسب إلى الازهر ، ثم تتلمذ على يد جمال الدين الافغاني ، تقلد بعض المناصب العلمية بين التدريس في المدارس الاميرية والتحرير في الوقائع المصرية ، والكتابة في الدوائر الرسمية ، تم نفيه إلى سوريا في ايام الاحتلال البريطاني ، وانشأ جريدة العروة الوثقى في باريس ، كان بارعا في العلوم الدينية والعقلية والفلسفية ، كان زعيم نهضة اصلاحية ، اهم كتبه الإسلامية والنصرانية . ينظر : جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ص٢٩٩ ؛ حميد الجميلي واخرون ، موسوعة أعلام العرب في القرن التاسع عشر والعشرون ، الجزء الأول ، بيت الحكمة ، (بغداد – ط١ ٢٠٠٠) ، ص٤٨١ .

[٥] محمد عبده ، جريدة الوقائع المصرية ، العدد ١٤٨٢ ، عام ١٨٨١م ، نقلا عن فاروق أبو زيد ، الفكر الليبرالي في الصحافة المصرية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ص٦٧ .

د- مفهوم الوطنية عند احمد لطفي السيد [١] : فيعرفه على انه : " مركز المصلحة العامة لجماعة متضامنين يشعرون بحاجاتهم إلى التعاون في دفع الضار وجلب النافع وربما صح أن نقول بدل قولنا (مركز المصلحة) انه (آلة المصلحة) ومتى تعطلت الوظيفة في هذا المركز أو هذه الالة فقدها الاسم وبطل التشبث بذكراه " .

هـ-مفهوم الوطنية عند علي مبارك : لم تكن الوطنية عند علي مبارك تعصبا ، ضيق الافق لإقليم من الاقاليم أو وطن من الاوطان حتى ولو كان الوطن هو مصر التي اخلص لها واحبها ، وانما الوطنية عنده موقف يصدر صاحبه من عشق للحضارة فيندفع عاشقا لموطنها ومهدها ، من هنا كانت الوطنية عنده كما تمثلت في حبه لمصر موقفاً حضاريا ونزعه لا تعصبا ضيق الافق لإقليم من الاقاليم [٢] .

وتبدو اهمية فكر علي مبارك في الوطنية بوصفه احد مفكري الوطنية في تراثنا الحديث ، اولئك الذين كان الطهطاوي رائدهم في اعادة مصطلح (الوطنية) ثانية إلى ادبنا السياسي وقاموسنا الفكري بعد أن اهملته عصورنا الوسطى لاسيما (المملوكية والعثمانية) عندما قسمت البشر على اسس دينية ، وأسقطت حدود الاوطان والقوميات والحضارات ، فجاءت هذه المدرسة المستنيرة الحديثة للتحدث عن (الوطن) وعن علاقة (المواطنة) التي تجمع ابناء الامة الواحدة ، وتؤلف بينهم بصرف النظر عن المذاهب والأديان التي يتمذهبون ولها يدينون – فكانت طورنا جديدا في الفكر ، عكس الطور الجديد الذي دخل فيه الإنسان العربي طور العصر الحديث [٣] .

ويقول علي مبارك في الوطنية : " أن المدافعة عن الوطن واجبة على العموم لا فرق فيها بين مالك ومملوك وشريف وصعلوك ! ... ولقد صح الحكم بان مصر كانت ينبوع علوم الدنيا ، ومعدن كثير من خيراتها ، وان اهلها هم الذين اوصلوا نوع الإنسان إلى أن تنقاد إليه اثار القدرة الاهلية ! ... والمصريون هم اقرب الناس إلى الاصلاح واسرعهم تقدما في سبيل الفلاح ، اذا وجدوا حاملا على ذلك ... وقديما قيل : من علامات الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقه ، والى

---

[١] احمد لطفي السيد (١٨٧٢ – ١٩٦٣م) : ولد في قرية برفين وهو من رواد الفكر المصري المعاصر ، حاصل على بكالوريوس في الحقوق عام ١٨٩٤م ، شارك في الكفاح الوطني ، وتقلد منصب رئيس مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٥م ، كما تم تعيينه وزيرا للخارجية في وزارة اسماعيل صدقي ، توفي عام ١٩٦٣م . ينظر : حسين فوزي النجار ، احمد لطفي السيد ، سلسلة الاعلام ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥م ، ص١٧ – ٣٠ .

[٢] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ٢٢ .

[٣] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، ص٢٩-٣٠ .

مسقط راسها مشتاقة ! " [1] ، ويمكن القول أن الوطنية عند علي مبارك موقف يعبر عنه ويجسده العطاء ، عطاء المواطن لوطنه مهما اختلفت وتعددت صور هذا العطاء ، لانها قد نبعت من العطاء ، عطاء الوطن غير المحدود للذين اقلتهم ارضه واظلتهم سماؤه للمواطنين ، فهي علاقة (جدلية ... متبادلة) ، ومن ثم فانها عنده مرتكزة إلى فلسفة تحكمها ، بل وتحكم كل ظواهر هذا الكون الذي نعيش فيه ... فبقدر ما تعطي السماء الارض ، تعطي الارض السماء ، وعلى قدر هبة الواهب يجب أن يقدم الموهوب له البديل والمقابل والجزاء ، وهكذا وجبت الوطنية ، أي استحق الوطن أن يسدد له الابناء بعض الدين الذي داينهم به منذ المولد ، بل وقبل أن تشرق عليهم شمس الميلاد ... انها تعبير عن قانون الوحدة والتفاعل والتأثير والتأثر في هذا الوجود .

ويعد علي مبارك الوطنية عطاء تجعل (الوطني) متسقا مع القانون الذي يحكم ظواهر الكون وقواه ومكوناته ، اما غيره فهو الشاذ الناشز ، الخارج عن قانون الحياة والاحياء ، بل وعن سنّة الجمادات والنباتات ، والحنين إلى الوطن مظهر معبر عن هذه القوة التي تمتلك الإنسان قوة (الوطنية) ففي الغربة يهيم الشيخ (علم الدين) عندما يتذكر وطنه ، وليس ذلك بالامر الغريب [2] .

ويضيف علي مبارك في فهمه للوطنية قائلا : " وحتى الذين اصابت الوطنية عندهم العلل والامراض ، فمالوا إلى الغزاة الفرنسيين عندما قدموا تحت قيادة بونابرت عام ١٧٩٨م فدخلوا تحت طاعة الفرنسيين وانظموا اليهم ، من القبط المصريين ونصارى الشام ومن بقي من المماليك الذين كانوا بمصر قبل دخول الفرنسيين اليها ، ثم رحلوا مع الغزاة المنسحبين عام ١٨٠١م عندما راوا أهل مصر يتوعدون كل من دخل زمرة الفرنساوية بالقتل وبغيره ، حتى هؤلاء المرضى يلتقي الشيخ (علم الدين) ببعض منهم في رحلته بمرسيليا وباريس فيشهد ندمهم وعودة (الوطنية) صحيحة معافاة إلى قلوبهم وعقولهم فيحدثونه كيف أن حب الوطن لا يبرح من بالنا وافكارنا لا تفتر عن ذكر اهلنا ولو كنا نعلم الغيب لما كان الذي كان [3] .

---

[1] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ٢٣ – ٢٤ .

[2] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ٢٥ .

[3] المصدر نفسه ، ص ٢٦ – ٢٧ .

المبحث الثاني : علي مبارك وواجهات الاصلاح الحديثة :

ادرك علي مبارك أن الاصلاح الذي ينشده كان لابد من تحقيقه من ادوات ووسائل يمكن بواسطتها الوصول إلى الهدف المنشود إلا وهو تطور المجتمع ووصوله إلى حالة من التقدم والرقي ، ونتيجة لدراسته في فرنسا واطلاعه المباشر على التطور والتقدم الحاصل فيها ومقارنةً مع واقع شعبه في تلك المرحلة الزمنية في القرن التاسع عشر ، وادرك أن خير وسيلة لتحقيق ما يصبو إليه هو اعتماد ادوات ووسائل يمكن بها تحقيق ذلك الهدف الكبير ، ووجد أن اول تلك الوسائل هو الترجمة ثم الصحافة ثم التاريخ ، وسنتناول هذه الوسائل على النحو اللاتي :

١. الترجمة :

بدأت في عهد محمد علي باشا ، الذي ادرك منذ اللحظة الاولى أن التطور الذي تشهده اوربا كان نتيجة الإلمام بالعلوم والمعارف الكثيرة ، فقد اتجه محمد علي إلى استخدام الموظفون الأجانب ، لكنه كان يدرك مدى الاثار السلبية التي يخلفها الأجانب على هيكل الدولة إذ انهم أرهقوا ميزانية الدولة ، بسبب النفقات التي تنفق عليهم ، فهم يتقاضون مرتبات باهظة كما أن كثيرا منهم يجهلون اللغة العربية فيتعين لهم مترجمون ليكونوا عونا لهم في عملهم [١] ، ورأى علي مبارك أن علوم الغرب وحكمته وخططه قد سيطرت كلها أو معظمها في كتبه التي وضعها علماؤه ومؤلفوه ، فكانت الخطوة الاولى أن يمهد السبل لترجمة الكثير من هذه الكتب إلى العربية أو التركية ،

---

[١] جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، دار الفكر العربي ، (مصر – ١٩٥١) ، ص٧ .

ليسهل على ابناء البلاد الاطلاع عليها والافادة منها ، فقد عهد بذلك لكثير من الاجانب بترجمة بعض الكتب ، غير أنهم كانوا يتلكئون أو يهملون عملهم حتى ليتم احدهم عمل ستة اشهر في خمس سنوات [١] .

واستعان علي مبارك في بادئ الأمر بالايطاليين لان الايطالية كانت لغة المشرق في ذلك الوقت ، ثم بالفرنسية ، فقد ترجمة إلى العربية كتب مدرسية وادبيات فنية ، كما ترجمت الكثير من الكتب إلى اللغة التركية ، وبالرغم من ذلك فقد كان عدد هؤلاء المترجمين قليلا ، وخبرتهم محدودة ، وكذلك عدد الكتب المترجمة لا يفي بالغرض [٢] .

وراح مبارك يلتمس طريقة أخرى لينقل بها علوم الغرب إلى بلده ، فأوفد عدداً من أهل البلاد إلى اوربا ، ليتمكنوا من الدراسة والاطلاع على علوم الغرب وبلغة البلاد التي يوفدون اليها ، حتى إذا عادوا إلى مصر تمكنوا من الاحلال محل الاجانب في الوظائف المختلفة ، وفي تعليم ما درسوه لابناء امتهم ، وفي ترجمة الكتب الغربية ، ولذلك فقد ارسل محمد علي البعثات إلى اوربا الواحدة بعد الاخرى ، قد عاد الكثير من اعضاء هذه البعثات وافادوا الفائدة الكبرى ، وحققوا اغراض محمد علي وحملوا العبء عن الاجانب [٣] ، وكان محمد علي لا يعهد إلى اعضاء البعثات باي عمل إلا اذا استوثق من مهاراتهم ، وكان مقياسه في ذلك أن يقوم كل منهم بترجمة كتاب في الفن الذي اختص فيه ، واما الذين درسوا الصناعة فكان يختبرهم في اختصاصهم حتى اذا اظهروا مهارة وكفاءة استغنى عن خدمات الاجانب واحل محلهم ابناء البلد في الوظائف .

ولشدة اهتمام محمد علي بهذا الأمر فقد كان يؤكد في رسائله إلى طلاب البعثات على ضرورة ترجمة الكتب التي يدرسونها إلى العربية وارسالها إلى مصر ، كما كان يطلع على التقارير التي تعد عن طلاب البعثات ولاسيما فيما يتعلق بأعمال الترجمة [٤] ، ونشطت حركة الترجمة بفضل جهود طلاب البعثات ولرغبة محمد علي في معرفة الاوربيين والاطلاع على مؤلفاتهم

---

[١] احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، القاهرة ، ١٩٣٨م ، ص٣٢٨-٣٣٢ .

[٢] ز.ل. ليفين ، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر ، ترجمة : بشير السباعي ، دار ابن خلدون ، (بيروت – ط١ ١٩٧٨) ، ص٢٢ .

[٣] جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، المصدر السابق ، ص٩ .

[٤] محمد فؤاد شكري واخرون ، بناء دولة مصر محمد علي (السياسة الداخلية) ، دار الفكر العربي ، (القاهرة – ط١ ١٩٤٨) ، ص١١٠ .

العلمية والادبية ونشر الحضارة الغربية ، فقد وصف عصره من جهة النهضة العلمية بأنه عصر الترجمة والتعريب [١] .

وبدأ محمد علي بالتفكير في الناحية الاخرى من الاصلاح فارسل في المدة (١٨٠٩ – ١٨١٦م) بعثات مختلفة إلى ايطاليا ، فالإصلاح يعتمد على ركنين اساسيين في سياسة محمد علي باشا ألا وهما البعثات والمدارس ، فانشأ المدارس الواحدة بعد الاخرى حسب حاجة البلاد لها ، وكذلك تحديد اللغات الاجنبية التي تدرس في هذه المدارس ، والاشارة إلى من تولى ادارة المدارس والتعليم فيها من الاجانب والى جهود كل مدرسة في الترجمة، ومن هذه المدارس هي[٢] :

١. المدارس الطبية :

كان محمد علي باشا قد بدأ بتشكيل الجيش الجديد بعد عام ١٨١٥م ، فقد اقتدى بالجيوش الاوربية في تشكيل جيشه ، وكانت العادة أن يلتحق عدد من الاطباء بكل فرقة من الجيش ، وان تنشأ لهذه الفرق المستشفيات الثابتة والمتنقلة ، وفي عام ١٨٢٥م استدعى محمد علي باشا الدكتور الفرنسي (كلوت بك) ليكون طبيبا ورئيسا لجراحي الجيش المصري ، وقد سعى هذا الرجل منذ التحاقه بالخدمة للقضاء على سيطرة الايطاليين واحلال الفرنسيين محلهم [٣] .

ومن المدارس الطبية التي شكلت في مصر هي :

أ- مدرسة الطب البشري : أنشأت عام (١٢٤٢هـ / ١٨٢٧م) .

ب- مدرسة الصيدلة : أنشأت عام (١٢٤٥هـ / ١٨٣٠م) .

ج- مدرسة الولادة : أنشأت عام (١٢٤٧هـ / ١٨٣٢م) .

د- مدرسة الطب البيطري : أنشأت عام (١٢٤٣هـ / ١٨٢٨م) [٤] .

٢. المدارس الفنية :

---

[١] جاك تاجر ، حركة الترجمة في مصر خلال القرن التاسع عشر ، القاهرة ، د.ت ، ص١٠٦ .

[٢] جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، المصدر السابق ، ص١٦ .

[٣] كلوت بك ، لمحة عامة عن مصر ، ترجمة : محمد مسعود ، ج٢ ، مطبعة أبو الهول ، القاهرة ، ب.د ، ص٥٧٩ – ٥٨٠ .

[4] Bowring , op cit, p 140 .

أ- المدارس الزراعية : انشأت عام (١٢٤٨هـ / ١٨٣٣م) .

ب- المدارس الهندسية : وكان اولها مدرسة المهندسخانة بالقلعة ، وقد أنشأت عام (١٢٣١هـ / ١٨١٥م) .

٣. المدارس الصناعية :

أ- مدرسة الكيمياء : أنشأت عام (١٢٤٧هـ / ١٨٣١م) .

ب- مدرسة المعادن : انشأت عام (١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م) .

ج- مدرسة العمليات أو الفنون والصنائع : انشأت عام (١٢٥٢هـ / ١٨٣٧م) [١] .

٤. المدارس الحربية :

أ- مدرسة اسوان : انشأت عندما فكر محمد علي بتأليف جيشه .

ب- مدرسة اركان الحرب : أنشات في تشرين الاول عام (١٢٤١هـ / ١٨٢٥م) .

ج- مدرسة البيادة : أُنشات في الخانقاه في ايلول عام (١٢٣٢هـ / ١٨١٦م) .

د- مدرسة السواري : انشات في الجيزة في ذي القعدة عام (١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م).

هـ- مدرسة الطوبجية : انشات في طرة في عام (١٢٤٧هـ / ١٨٣١م) .

و- المدارس البحرية : انشات في عهد محمد علي باشا ولكنها الغيت بعد عام ١٨٣٦م [٢] .

وبقي الشيء الآخر والمهم الذي اخذ محمد علي يفكر في ايجاد حل له وهو ايجاد المترجمين ، ولم يكن في المصريين من يصلح للقيام بهذا العمل غير (عثمان نور الدين) احد اعضاء البعثة الاولى ، فعينه عام (١٢٣٧هـ / ١٨٢١م) امينا للمكتبة الموجودة في قصر اسماعيل باشا في بولاق ، وألحق به بعض المترجمين ليترجموا كتب الفنون الحربية وسائر الصنائع ، وبعض التلاميذ ليدرسوا الهندسة واللغات العربية والتركية والايطالية [٣] ، ولم يستطع (عثمان نور الدين) من القيام بهذه الاعمال وحده ، ولم تكن المدارس الجديدة قد انشأت لتخرج من

---

[١] جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، المصدر السابق ، ص٢٨ .

[2] Hamant,op,cit,t.H.p 165 .

[٣] وثائق عابدين ، دفتر ١١ (معية) رقم ٢٥٣ ، في ٨ ربيع الثاني ١٢٣٨هـ ، نقلا عن جمال الدين الشبال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، المصدر السابق ، ص٧١ .

يستطيع الترجمة ، وكان محمد علي يرى أن هناك كتبا اوربية تنير له سبيل الانشاء والتكوين ، ولابد من ترجمتها فاستعان بمن يستطيع الترجمة من السوريين المقيمين في مصر [١] ، وقد كان للترجمة ثلاثة اجيال ، فالجيل الأول يتمثل بالسوريين الموجودين في مصر وهم قليلو العدد ومحدودو المعرفة والخبرة ، واما الجيل الثاني فيتمثل بخريجي المدارس واعضاء البعثات يقوم بالترجمة كعمل اضافي إلى جانب العمل الاساسي وهو التدريس أو الحكم أو العلاج الطبي ، ولهذا كان لابد من ايجاد جيل ثالث متخصص في الترجمة ، فأنشات لذلك مدرسة الالسن ، فكان خريجوها الجيل الثالث من المترجمين [٢] ، واهم المترجمين السوريين هم : (الأب أنطوان رفاييل زاخور) [٣] ، و (يوحنا عنحوري) [٤] ، و (جورج فيدال) [٥] ، و (أوغسطين سكاكيني) [٦] ، و (يعقوب) [١] ، و (يوسف فرعون) [٢] .

---

[١] جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، المصدر نفسه ، ص٧٢ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٧٢ .

[٣] الاب انطوان رفاييل زاخور : وهو اول المترجمين السوريين ، وذو شخصية فذه ، فقد رافق الحملة الفرنسية على مصر ، وكانت له جهود في الترجمتين الرسمية والعلمية ، فلم يرحل مع الحملة كما رحل غيره من السوريين بل بقي في مصر نحو سنتين اشتغل فيها سكرتير لرئيس طائفته الدينية الاب باسيليوس عطا الله ، عاد رفاييل إلى مصر عام ١٨١٦م ، واتصل بمحمد علي ، إذ كان محمد علي يمهد السبيل لنقل علوم الغرب فقد كلفه محمد علي بان يضع قاموسا للغتين العربية والايطالية . لمزيد من المعلومات ينظر : جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، ص٤٤ .

[٤] يوحنا عنحوري : وهو من المترجمين السوريين ومن اسرة عريقة من الاسر السورية ، فقد سافر إلى ايطاليا وتعلم فيها ، وكان يجيد اللغتين العربية والايطالية وكذلك فقد احتل المركز السامي بعد رفاييل في مدرسة الطب المصرية ، واحتل المركز الأول بعد وفاة رفاييل ، وقد ترجم سبعة كتب طبية منها (القول الصريح في علم التشريح) ، و (بتولوجية أي رسالة في الطب البشري) ، و (رسالة في علم الجراحة) وغيرها من الترجمات . لمزيد من المعلومات ينظر : جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، ص٦٠ .

[٥] جورج فيدال : وهو سوري من مدينة حلب ، وقد التحق بمدرسة الطب عند انشائها وعمره (٣٢) عام ، فقد كان فيدال يترجم من الفرنسية إلى العربية ، وقد اختص بترجمة كتب الاستاذ برنار ، (قانون الصحة) و (المنحة في سياسة حفظ الصحة) . لمزيد من المعلومات ينظر : جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، ص٧٨ .

[٦] أوغسطين سكاكيني : سوري الاصل من مدينة دمشق ، فقد اقام مدة من الزمن في مارسيليا ثم سافر إلى تونس وتزوج من سيدة فرنسية هناك ، ثم سافر إلى مصر ، وعين مترجما في مدرسة الطب ، وترجم من الفرنسية إلى

وقد شملت حركة الترجمة مختلف المجالات إلا أن مجالي الطب والهندسة اخذا نصيبا كبيرا في حركة الترجمة ، وكانت بجهود عدد من طلاب البعثة العلمية الذين درسوا الطب والهندسة ثم عينوا كمدرسين ومساعدي مدرستين في مدرستي الطب والهندسة ، ومن أشهر هؤلاء اثنان في مجال الطب هما (علي هيبة ، والشيخ محمد الدشطوطي) اللذين كانا ضمن بعثة عام ١٨٢٦م إلى فرنسا ، كما أن هناك طائفة أخرى من المترجمين في مجال العلوم الرياضية مثل (محمد بيومي) ، و (إبراهيم رمضان) ، و (احمد دقله) وغيرهم [٣] .

وقد نظرت الحكومة المصرية إلى العبء الملقى على عاتق المترجمين المصريين من طلاب البعثات ، فقد قررت انشاء مدرسة للترجمة في عام ١٨٣٥م سميت (مدرسة الالسن) لتخريج مترجمين كخدمة المصالح والمدارس الحكومية ، كما اوكل محمد علي مهمة الاشراف في هذه المدرسة إلى رفاعة رافع الطهطاوي ، فقد زاد عدد الكتب التي ترجمت في هذه المدرسة حتى وصلت إلى الفي عمل علمي في مجالات مختلفة [٤] ، وبلغت الكتب المترجمة في الفنون الحربية والبحرية (١١١) كتابا ، وفي مجال الطب ترجم (٣٤) كتابا ، وفي مجال الطب البيطري ترجم (١٢) كتابا ، وفي العلوم الرياضية بفروعها المختلفة فقد ترجم (٣١) كتابا [٥] ، وكان لهذه المدرسة الفضل الكبير في تغذية المثقفين المصريين بمكتبة وافية شملت اهم المراجع

العربية كتاب (العمالة الطبية فيما لابد منه لحكماء الجهادية) من تأليف (كلوت بك) . لمزيد من المعلومات ينظر : جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، ص٩١ .

[١] يعقوب : وهو واحد من المترجمين السوريين ، فقد ترجم كتابين عن الفرنسية إلى العربية هما (دستور الاعمال الاقرباذبنية لحكماء الديار المصرية) و (كتاب الاقراباذين) ولم تكن له جهود في الترجمة في السنوات الاولى من تاريخ مدرسة الطب ، وانما الحق بها بعد خروج فيدال وسكاكيني . لمزيد من المعلومات ينظر : جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، ص٩٧ .

[٢] يوسف فرعون : وقد قام بالتدريس في مدرسة الطب البيطري في عام ١٨٢٨م ، وكان يترجم الدروس التي يلقيها الاساتذة ، وكان على معرفة بالفرنسية والايطالية . لمزيد من المعلومات ينظر : جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، ص١٠١ .

[٣] محمد فؤاد شكري واخرون ، المصدر السابق ، ص١١١ .

[٤] اكمل الدين احسان اوغلو ، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ترجمة : صالح سعداوي ، ج١ ، استانبول ، ١٩٩٩م ، ص٣٨ .

[٥] شبل بدران ، التعليم والتحديث ، (دراسة في تاريخ ونظام التعليم في مصر) ، المصدر السابق ، ص٢١ .

الاساسية في التاريخ والأدب والعلوم السياسية ، كما وفرت الحد الادنى من الثقافة للمثقفين ، ورسخت في نفوسهم اهم المبادئ التقدمية التي بنيت عليها الحضارة الاوربية الحديثة [١] .

ويعود الفضل الاكبر للترجمة على عهد محمد علي الى رفاعة الطهطاوي ، فقد سخر ما تعمله في باريس وما طالعه من كتب العلوم وكتب الرحلات والعلوم الاخرى ، واتصالاته بكبار المستشرقين الفرنسيين امثال (سلفستر دي ساسي – (Silvester de Sact) (١٧٥٨ – ١٨٣٨م) ، إذ سخر ذلك في عمله في مدرسة الالسن [٢] ، كما اسهم بترجمة كتب كثيرة ومراجع عدة ، وقام بتصحيح بعض الكتب بعد ترجمتها ، وكان رفاعة قبل أن يعود إلى مصر قد قام بنقل ١٢ رسالة في مختلف العلوم والفنون من الفرنسية إلى العربية [٣] .

واهم الكتب المترجمة كتاب (تاريخ كارل الثاني عشر) ، إذ ترجم إلى العربية عام ١٨٤١م ، وفي عام ١٨٤٢م ظهرت ترجمة عربية لكتاب (روبيرتسون – Roberteson) (تاريخ كارل الخامس) ، وفي عام١٨٤٩م ترجم إلى العربية كتاب (تاريخ بطرس الاكبر) لـ (فولتير – Voltaire) [٤] ، ويمكن القول إن الحديث عن الترجمة كأداة من ادوات الاصلاح يقودنا إلى معرفة طريقة رفاعة الطهطاوي في الترجمة ، وكيفية تعريب المصطلحات ومن ثم اسلوبه فيها ، فقد امتاز بطريقة جديدة في الترجمة تجاوز بها ما كان سائدا قبله ، إذ كان المترجمون السوريون الذين سبقوه يرافقهم شيوخ الازهر ، لاختيار الالفاظ والمصطلحات العلمية العربية ، وبعد ذلك الاشتقاقات وصياغة الجمل ، وكان الاثنان يجلسان معا ، فيأخذ المترجم بترجمة جملة جملة ثم يتبعه المصحح ، ثم يتفقان على الصيغة النهائية للجملة ، لذلك كانت عباراتهم بحاجة إلى الدقة في صحة الموضوع والاسلوب [٥] .

وقد تجاوز رفاعة الطهطاوي وتلاميذه في الالسن تلك الطريقة لما كانوا يتمتعون به من معرفة كبيرة بقواعد اللغة العربية ، واهم ما امتازوا به هو عدم اتخاذهم مبدأ التخصص في علم من العلوم في الترجمة وانما ترجموا لكل العلوم والمعارف ، إلا أن قسما من تلاميذه اخذوا بمبدأ التخصص في الاخير ، ولم يكتف رفاعة الطهطاوي في بعض الاحيان بالترجمة الكاملة لبعض

---

[١] لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري الحديث ، (الفكر السياسي والاجتماعي) ، الجزء الأول ، دار الهلال ، (القاهرة – ط١ ١٩٦٩) ، ص١٠٤ .

[٢] محمد فؤاد شكري واخرون ، المصدر السابق ، ص١١٥ .

[٣] عبد الكريم الشباني ، اتجاهات التحديث عند رفاعة رافع الطهطاوي ، المصدر السابق ، ص١٢٤ .

[٤] ز.ل. ليفين ، المصدر السابق ، ص٣١ – ٣٢ .

[٥] عبد الكريم الشباني ، المصدر السابق ، ص ١٢٤–١٢٥ .

الكتب بل يضيف اليها فصولا من كتب أخرى وكثيرا ما تكون من مؤلفات عربية ، لكي يتمكن من اخراج مؤلف كامل من ناحية الموضوع والمادة العلمية [١] ، واستخدم رفاعة الطهطاوي طريقة حذف بعض الجمل والعبارات ، وقد تطرق إلى المقالات في بعض الكتب التي يجد فيها عدم الدقة العلمية ، والاساءة إلى الاسلام والعرب ، وقد ظهر ذلك في كتاب (قلائد المفاخر في غريب عوائد الاوائل والاواخر) لـ (ديبينج) [٢] ، واستعان رفاعة الطهطاوي في ترجماته بثقافته الواسعة بكتابة مقدمة للكتب المترجمة والتعليق على بعض نصوصها ، وظهر له ذلك في ترجمة القوانين والدستور الفرنسي لكي تعطي المعنى الكامل للقارئ ، إذ لم يكتف بترجمة النص الحرفي لها [٣] .

اما من حيث المصطلحات فقد عانى رفاعة الطهطاوي في كيفية تعريبها للاختلاف الكبير بين اللغتين العربية والفرنسية من حيث الخلفيات الاجتماعية والثقافية، مما قاده إلى البحث عن سبيل لحل تلك الصعوبة ، فوجد في تكوين قاموس لتلك المصطلحات عن كل كتاب يترجم ، وبدأ بهذا المشروع عند وجوده في فرنسا إلا أن مشروعه لم ينجز إلا بعد عودته إلى مصر ، ونفذه مع ترجمته لكتاب (قلائد المفاخر) [٤] ، ونجح رفاعة الطهطاوي من خلال الترجمة في تطويع اللغة العربية للأفكار والتصورات الجديدة وان يقوم بوظيفة (مجمع لغوي) يضع المعاني المستحدثة أو يشتق لها مقابلات عربية ، ويعرب ما يضطر إلى تعريبه من مصطلحات جديدة ، وبهذا وضع الأساس الأول في التطور الحديث للغة العربية [٥] .

يتبين ما تقدم أن حركة الترجمة التي تزعمها رفاعة الطهطاوي قد ساهمت بشكل كبير في ازدهار اللغة العربية وتطويرها ، إذ زودت اللغة العربية بالكثير من المصطلحات الجديدة والمستعربة مما ساعد على نموها وتطورها فضلا إلى العناية والاهتمام بتكوين القواميس لهذه المصطلحات من الفرنسية إلى العربية التي خلقت الحاجة إلى اعادة طبع ونشر القواميس العربية القديمة [٦] ، ولم تقف جهود الترجمة عند رفاعة الطهطاوي وانما لمع مفكر جديد أعطى حقل

---

[١] مالطبرون ، التعريبات الشافية لمريد الجغرافية ، تعريب رفاعة الطهطاوي ، المطبعة الخديوية ببولاق ، ١٢٥٠هـ ، ص٥ .

[٢] ديبينج ، قلائد المفاخر في غريب عوائد الاوائل والاواخر ، تعريب رفاعة الطهطاوي ، بولاق ، ١٢٤٩هـ ، ص٣.

[٣] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي ، ج١ ، (بيروت – ط١ ١٩٧٣) ، ص٩٥ .

[٤] ديبينج ، قلائد المفاخر ، المصدر السابق ، ص٢ .

[٥] محمد خلف الله احمد ، معالم التطور الحديث في اللغة العربية وادابها ، المصدر السابق ، ص٢٠ .

[٦] جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، المصدر السابق ، ص٢٢٤ .

الترجمة أهمية كبيرة وعناية فائقة وهو المفكر العربي علي مبارك ، فقد نالت الترجمة من عناية علي مبارك الشيء الكثير من خلال تشجيعه الدائم لحركة الترجمة والتأليف ، فقد كان كثيرا ما يعهد إلى بعض الاساتذة بترجمة بعض الكتب التي يرى فيها فائدة علمية لطلاب العلم ومريديه ، وكان كثيرا ما يشجع على التأليف في بعض النواحي العلمية التي كان يرى فيها النفع نفعا للنهضة العلمية واجلاء لفكرة غامضة أو شرحا لموضوع مفيد [١] ، وانشأ لديوان المدارس مطبعة لطبع الكتب المدرسية لينتفع بها التلاميذ الذين يتبعون الديوان ، وقد ساهمت هذه المطابع في نشر التعليم ، وسهلت نيل موارده لطلابه [٢] ، وشارك علي مبارك في حركة الترجمة مع (محمد افندي ابن احمد عبد الرزاق) فقد ترجما كتاب(خلاصة تاريخ العرب)الذي الفه العالم(سيدو –Sedeio)[٣]، إذ ترجم بعض فصوله (محمد افندي ابن احمد عبد الرزاق) أحد المترجمين بقلم الترجمة ديوان المعارف ، وأحد معلمي اللغة الفرنسية في ذلك العهد ، وترجم البعض الآخر وراجع الكتاب كله علي مبارك ، وهذا واضح من مقدمة الكتاب التي قال فيها [٤] : " انه لنفاسة هذا الكتاب اردت نشره بين ابناء الوطن ، وانا ناظر على ديوان المعارف عام (١٢٨٥هـ / ١٨٦٩م) المرحوم محمد افندي ابن احمد عبد الرزاق ، أحد المترجمين بقلم ترجمة الديوان ومعلمي اللغة الفرنسية بالمدراس الملكية المصرية فترجمه ، ثم امرت اساتذة بقراءته فقرءوه واعلنوا بفائدة طبعه ، فامرت بطبعه ، ثم تخليت عن نظارة الديوان فوقف الطبع ، وحفظت الترجمة في الكتبخانة الخديوية ، ثم عدت إلى نظارة الديوان عام (١٣٠٥هـ / ١٨٨٩م) فوجدت به ابوابا لم تترجم ، واخرى لم تستوف حقها من الترجمة ، فترجمنا ذلك وصححنا الكتاب ، وقابلناه على الاصل كلمة كلمة ، ثم كلفنا به العالم التحرير الشيخ عبد الله ابن العلامة المرحوم الشيخ السيد الشرقاوي الشرشيمي المتوفى عام (١٢٨٨هـ/١٨٧٢م) ، وامرنا أن ينشئه انشاءً عربيا فصيحا ، فاخذ ينشئ ويقرا علينا ما كتبه بخطه ، ثم صححنا أسماء البقاع والرجال ، وقابلناها على الاصل الافرنجي وسميناه (خلاصة تاريخ العرب) ، فجاء بحمد الله كتابا مبارك الطالع ، ترتاح له المسامع ، كما أن شموس النجاح عليه طوالع ، لم يدع كبيرة ولا صغيرة من تاريخ العرب إلا احصاها ، ولا شاردة من شوارد فضلهم إلا ردها لاهلها وكشف القناع عن محياها مع النزاهة عن وصمة العيب والتبرئة عن مثل ما يأتي

---

[١] سعيد زايد ، علي مبارك واعماله ، المصدر السابق ، ص٨٩ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٩٠ .

[٣] وهو مستشرق فرنسي من مؤرخي القرن التاسع عشر ، وهو مستشرق منصف للعرب وتاريخهم وحضارتهم ، وقد ترجم المرحوم الاستاذ عادل زغير هذا الكتاب مرة أخرى تحت عنوان (تاريخ العرب العام) ينظر : علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٥٨ .

[٤] سعيد زايد ، المصدر السابق ، ص٩١ .

بـه الكثيـر مـن المـؤرخين رجمـا بالغيـب ، ورجـائي بـه أن يكـون لابنـاء الشـرق وعلـى الخصـوص المصريين دليلا مرشدا يروي لهم من محاسن ابائهم الاولين حديث محمد (ص) لا يزال مدى الايام مخلدا " [١] ، ويتكون هذا الكتاب من (٣١٤) صفحة من القطع المتوسط ، وطبع في مطبعة محمد افندي بحوش قدم عام (١٣٠٩هـ / ١٨٩٣م) .

وبذلك أسهمت حركة الترجمة اسهاما فاعلا في نقل علوم الغرب ، وعرّفت الكاتب العربي الناشئ ببعض الفنون الادبية المستحدثة كالمسرحية والقصة ، مما اسهمت في تكوين طبقة الكتّاب المجددين ، كما ترك الكتاب المترجم أثرا في اسلوب التعبير [٢] .

وقد كشفت حركة الترجمة عن امكانيات جديدة في اللغة العربية استفاد منها الاديب بما اوضحت له قدرته على التعبير عن الافكار الجديدة [٣] ، في ذات الوقت سجل لحركة الترجمة على عهد طلاب البعثات ايجابيات كثيرة ، إذ أن بعض المترجمين كان يلجأ إلى الحاق معاجم وقواميس صغيرة بالكتب التي يترجمونها إلى اللغة العربية ، لتفسير بعض الألفاظ الغربية والمصطلحات العلمية ، كما كان المترجمون يعمدون إلى المؤلفات العربية القديمة فيستمدون منها العون في ترجمة المصطلحات العلمية ، وما لم يجدوا له مقابلا في تلك المؤلفات عرّبوه وصاغوه صياغة عربية [٤] ، وأدت حركة الترجمة دورا كبيرا في خدمة اللغة العربية ، واخذت هذه اللغة تنمو وتشتد حتى استطاعت بعد زمن قصير أن تقضي على اللغة التركية في مؤسسات الدولة ، ثم تصير لغة الأدب الحي الذي ينبض بالقوة ويعبر عن الحضارة الحديثة [٥] ، اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان حركة الترجمة ليست مجرد عملية اكاديمية او عملية تعريب المصطلحات لتكوين قاموس ، وانما هي مشكلة وضع العربية في المكان الذي يتطلبه مقامها ، كلفه لامه واحدة لا تشاركها فيه لغة اخرى .

٢. الصحافة :

---

[١] المصدر نفسه ، ص٩٢ .

[٢] اديب تصور ، مقدمة لدراسة الفكر السياسي العربي في مائة عام : من كتاب الفكر العربي في مائة عام ، بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية المنعقدة في تشرين الثاني ١٩٦٦م في الجامعة الامريكية في بيروت ، الدار الشرقية للطباعة ، ١٩٦٧م ، ص٦١ .

[٣] إبراهيم عبده و دربه شفيق ، تطور النهضة النسائية في مصر من عهد محمد علي إلى عهد فاروق ، مطبعة التوكل ، (مصر – ١٩٤٥) ، ص١٠ .

[٤] محمد رفعت ، التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة ، دار المعارف ، (مصر – ١٩٦٤) ، ص٥٦ .

[٥] عمر الدسوقي ، في الأدب العربي ، ج١ ، دار الكتاب العربي ، (بيروت–ط٧ ١٩٦٦) ، ص٥٧ .

لقد ادت الصحافة دورها الكبير في النهضة العربية الحديثة ، فظهرت مع بوادرها وارتبطت بها واصبحت بمرور الزمن عاملا فعالا في ازدهارها ، حيث مثلت الجسر الى نهضتنا الحديثة لانها ملتقى ارباب الفكر والادب ، وكان لها تاريخ في مصر فقد كانت جريدة (الوقائع المصرية) اقدم جريدة للحكومة المصرية أنشأها محمد علي عام ١٨٢٨م ، وقد قامت فكرة الوقائع على الدعاية الواسعة لمحمد علي وجهوده في سبيل الاصلاح والنهوض في البلاد ، وان كانت تضم موضوعات أخرى كالبحوث العلمية واذاعة أنباء الجيش وترقيات الضباط ، والاشادة بانتصاراتهم [١] ، وقد عمل في تحرير هذه الجريدة بعض رجالات العصر كرفاعة رافع الطهطاوي ، وادهم بك مدير المدارس ، وقد اقسمتها اللغتان التركية والعربية ، وتغلبت اللغة التركية في البداية بعدها تغلبت اللغة العربية إلى أن صدرت كل منهما في صورة منفصلة ، ثم خصّ محمد علي الجيش بجريدة له سميت (الجريدة العسكرية) ، فما كان للوقائع المصرية من أن تنشر تنقلاته وترقيات ضباطه ، بيد انها لم تلم بكل ما يتصل بحياة جيش يبلغ زهاء ثلاثمائة الف جندي وضابط ، لذلك تم تكوين الجريدة العسكرية التي طبعت في مطبعة ديوان الجهادية في عام ١٨٣٣م [٢] .

وعندما جاء عصر عباس وسعيد اصاب الحياة المصرية من الركود الشيء الكثير ، فاغلق ديوان المدارس واغلقت المصانع والمعامل ، ثم كان من الطبيعي أن تتوقف الوقائع المصرية والجريدة العسكرية [٣] ، فقد لقيت الوقائع من الضيق في عهد عباس ما حجبها عن القرّاء معظم ايام حكمه ، واراد سعيد أن يتخلص من مطبعة بولاق وتكاليفها بعد أن قامت بالاعباء الملقاة عليها خير قيام منذ انشائها متحدية كثيرا من الصعاب ، فلقت المطبعة على عهده عناء اثر في نشاطها واضطرت إلى التوقف من تموز عام ١٨٦١م إلى آب عام ١٨٦٢م [٤] ، وتعطلت الوقائع المصرية سنة كاملة بوقف مطبعة بولاق ثم عادت إلى الحياة مرة أخرى ، واصبحت الوقائع هيئة غير رسمية ، وعندما جاء الخديوي اسماعيل اشترى المطبعة الاميرية من صاحبها ووضع للصحافة الرسمية تاريخا يظهر تاريخها في عهد اسلافه جميعا ، ويجدد مناحيها ، وتعد الوقائع المصرية في عصر إسماعيل سجلا يصور حياة مصر السياسية والاجتماعية في هذا العصر [٥] ، ويرجع اهتمام

---

[١] جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج٤ ، دار الهلال ، بلا ، ص٥٢ ؛ عبد اللطيف احمد حمزة ، الصحافة المصرية في مائة عام ، وزارة الثقافة ، المكتبة الثقافية ، ١٩٦٧ ، ص١٣ – ١٤ .

[٢] إبراهيم عبده، تطور الصحافة المصرية واثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٤٤م، ص٤٣ .

[٣] دي طرازي ، الفيكونب فيليب ، تاريخ الصحافة العربية ، ج١ ، (بيروت – ١٩١٣) ، ص٤٩ .

[٤] اشراف دانيال كرسيليوس واخرون ، دراسات في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني (اعمال الندوة العلمية التي اقامتها هيئة فوليرايت بالقاهرة)، دار الافاق العربية ، القاهرة ، ١٩٩٦م ، ص١٦٣ .

[٥] عبد الرحمن الرافعي ، عصر اسماعيل ، ج١ ، (القاهرة – ١٩٣٢) ، ص٢٦٠ .

اسماعيل بالوقائع بسبب مواجهة صحيفة (اجبت – L Egypte) له فور توليه الحكم ، وكان (نطوان موريس) قد انشاها في الاسكندرية في عام ١٨٦٣م فأخذت تقاوم افكاره وتصف مشروعاته وتنبه الاجانب إلى سوء نواياه نحوهم ، فكان الاهتمام بالوقائع المصرية لكي يستطيع الوقوف بوجه (ليجيت) [١] ، وقد اسهمت عوامل كثيرة في تطوير الصحافة المصرية منها الازمة المصرية العثمانية ، إذ نبهت الراي العام في مصر ، إذ لم تكن الدولة العثمانية راضية عن تصرفات الخديوي اسماعيل فأخذت تتدد بأعماله لتنال من هيبته [٢] .

وقد اتهمت الحكومة العثمانية صراحة الخديوي اسماعيل بأنه اثقل الولاية بالنفقات الباهظة الناشئة من سياحاته الكثيرة في اوربا ، إذ استنتجت (جريدة البروجرية) الفرنسية التي تصدر في مصر من هذا الحادث فقالت : " أن العرب المصريين بدأوا يهتمون بالسياسة وانهم يترقبون الأخبار الواردة من الاستانة ، ويعلقون عليها ويتباحثون في موضوع النزاع ، وبذلك بدأ يتكون الراي العام عند المصريين " [٣] ، وكان لتشجيع الخديوي اسماعيل أثر في ظهور الصحافة الحرة ، لانه اراد دعم موقفه امام اتهام السلطان العثماني له ، كما اراد من هذه الحرية في محاربة التدخل الاجنبي ، فقد ادت هذه الحرية إلى صدور عدة صحف وصل عددها خلال المدة ما بين سنتي ١٨٧١ – ١٨٨٢م إلى ما يقارب من (٥٨) جريدة ومجلة عربية [٤] .

واقدم صحيفة مصرية بعد الوقائع هي (يعسوب الطب) وهي مجلة كانت تقصر عنايتها على العلوم الطبية ، ظهرت في القاهرة عام ١٨٦٥م لصاحبها محمد علي باشا الحكيم رئيس الاطباء في مصر وابراهيم السوقي [٥] ، وهي الاولى من نوعها باللغة العربية ، وكانت تطبع في مطبعة بولاق الاميرية على نفقة الحكومة ، ولكن هذه الصحيفة لم تعمر طويلا ، وكانت صدى لنشاط الحكومة في النواحي الطبية [٦] ، ونشأت في عصر اسماعيل الصحافة الشعبية بتوجيه منه

---

[١] خليل صابات ، سامي عزيز ،بونان لبيب،حرية الصحافة في مصر ١٧٩٨–١٩٢٤م، القاهرة،١٩٧٣، ص٢٥ .

[٢] الازمة المصرية العثمانية : ظهرت بسبب مخاوف السلطان العثماني تجاه اطماع الخديوي اسماعيل ورغبته في اعلان استقلاله عن الدولة العثمانية ، لاسيما اشتراك الخديوي في مؤتمر النقد الذي عقدته باريس عام ١٨٦٧م دون الرجوع إلى السلطان ، وقيامه بسحب الجنود من كريت رغم الحاح الدولة العثمانية على ابقائهم ، كما قام بارسال وزيره (نوبار باشا) إلى اوربا لاجراء مفاوضات مع حكومتها من اجل الاصلاح القضائي ، كما أن سفر الخديوي إلى اوربا عام ١٨٦٩م لدعوة ملوكها وحكامها لحضور حفل افتتاح قناة السويس ، زاد من= =غضب السلطان العثماني عليه ، ينظر : محمد فؤاد شكري ، مصر والسودان تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، مصر ١٩٥٨م ، ص١٠٨ – ١٠٩ .

[٣] محمد صبري السوربوتي ، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٦م ، ص١٤٣ – ١٤٤ .

[٤] محمود متولي ، دراسات في تاريخ مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي ،مصر –ط١ ، ص٤٩٢ .

[٥] عبد اللطيف احمد حمزة ، الصحافة المصرية في مائة عام ، المصدر السابق ، ص١٩ .

[٦] الفيكونت فيليب دي طرازي ، تاريخ الصحافة العربية ، المصدر السابق ، ص٦٧ .

، وتنحصر الصحافة الشعبية في ذلك الوقت في جريدتي وادي النيل ونزهة الافكار ، وجريدة (وادي النيل) وهي مجلة سياسية علمية ادبية انشاها عام ١٨٦٦م عبد الله أبو السعود ناظر المدرسة الكلية التي اسسها محمد علي باشا في القاهرة ، وكانت تصدر مرتين في الاسبوع ، والحقيقة أن جريدة وادي النيل كانت جريدة شعبية اسما رسمية فعلا ، ويقول الدكتور إبراهيم عبده : " ازدحمت معظم صفحاتها بأخبار الخديوي ورجال حكومته " ، ولولا انها اعلنت شعبيتها لظن متصفحها انها صحيفة رسمية ، فهي صورة للوقائع في تفكيرها واتجاهاتها ، يعرف اسلوبها الادبي رواية الخبر ويتعلق محررها بالسمع فهي تحاكي الوقائع وتخطو على اثرها في الشكل والموضوع معا [١] .

وعاشت هذه الجريدة اثنتي عشر سنة حتى تعطلت عام١٨٧٨م بوفاة صاحبها، واما الصحيفة الثانية فهي جريدة (نزهة الافكار) وهي اسبوعية ظهرت في القاهرة عام ١٨٦٩م،وقد انشاها إبراهيم بك المويلحي ومحمد بك عثمان جلال،ولم يصدر منها إلا عددان ثم عطلها اسماعيل بنصيحة شاهين باشا وزير الحربية، إذ حذره عواقب لهجتها وما تؤدي إليه من اثارة الخواطر وذلك رغم الطابع الادبي الذي امتازت به [٢] ، وقد بدأت الصحافة الشعبية اولا اسمية فقط في وادي النيل وحينما تحولت شعبية حرة فعلا في نزهة الافكار الغاها الخديوي بعد عددها الثاني ، والى جانب الصحافة الشعبية وجدت أيضا مجلة ثقافية انشأها مفكرنا علي مبارك هي مجلة (روضة المدارس) في عام ١٨٧٠م ، وكان آنذاك مديرا لديوان المدارس ، فهي صحيفة ديوان المدارس تنفق عليها الحكومة ، وكان الغرض من انشائها النهوض باللغة العربية واحياء آدابها ونشر المعارف الحديثة [٣] .

وابتعدت المجلة عن الناحية السياسية كما تذكر المقدمة : " وقد تنزهت صحيفتنا هذه مما سوى ما يخص نشر فائدة علمية ومحمدة اثرية مما يقع عليه الاختيار ولا ضرر فيه ولا ضرار فليس من وظائفها تقييد الاحوال السياسية الوقتية والافعال الرئاسية والادارية " ، واما موضوعات هذه المجلة وكتابها فقد ذكرت المقدمة انه : " قد تكفل لها عدد من العلماء والاساتذة والفضلاء الجهابذة بامداد رسائل مؤلفة جديدة ونبذ مصنفه مفيدة من فنون وعلوم مختلفة ومسامرات من مستحسن الحكايات والأخبار مقتطفة وبعض تراجم من لغات كثيرة واخراجها في قالب سهل من اساليب العربية ، وصار كل منهم يرسم عضو تأسيسي يتشكل به جسم هذه الصحيفة مندوبا من

---

[١] إبراهيم عبده،تطور الصحافة المصرية واثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية،المصدر السابق،ص٧٦–٧٧ .

[٢] عبد اللطيف حمزة ، الصحافة المصرية في مائة عام ، المصدر السابق ، ص٢٩ .

[٣] إبراهيم عبده،تطور الصحافة المصرية واثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية، المصدر السابق،ص٦١–٦٢ .

طرف الديوان لرفع شعاراتها " [1] ، وقد كتب في هذه المجلة الكثير من العلماء منهم (احمد افندي نده) ومجال تخصصه الطبيعة والكيمياء ، و (عبد الله بك فكري) ومجال تخصصه الأدب ، و (المستر بروكش) ناظر مدرسة اللسان المصري القديم ومجال تخصصه التاريخ القديم ، و (اسماعيل بك الفلكي) مجال تخصصه علم الفلك ، بعد ان اسندت رئاسة هذه المجلة إلى رفاعة الطهطاوي ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس ، وقد تولى تحرير مجلة (روضة المدارس) علي بك فهمي رفاعة ابن الطهطاوي ، وكان مدرسا للإنشاء في مدرسة الالسن وقتئذ [2] .

وقد احتوت هذه المجلة إلى جانب بعض قصائد الشعر والقصص القصيرة والمقالات العلمية على مؤلفات هؤلاء العلماء تنشر فيها فصلا فصلا ، فاذا اكتملت هذه الفصول كونت كتابا مفيدا في أي علم من العلوم العلمية أو الادبية ولم يظهر فهرست لهذه الموضوعات إلا ابتداء من العدد الثالث ، وقد نشر في العدد الأول من هذه المجلة على سبيل المثال بعض فصول من الكتب الاتية : (حقائق الأخبار في اوصاف البحار) لعلي مبارك ، و (اثار الافكار ونثورة الازهار) لعبد الله بك فكري ، و (الصحة التامة والمنحة العامة) لمحمد بدر افندي مدرس علم الامراض الباطنية بالمدرسة الطبية ، و (المباحث البينات فيما يتعلق بالبنات) لمحمد افندي ندا المدرس بالمدرسة الطبية .

وكانت روضة المدارس ميدانا رحبا من ميادين الفكر والأدب يتبارى فيه اولئك الأدباء والعلماء بموضوعاتهم الطريفة واساليبهم الرفيعة في الأدب والاجتماع والتاريخ والفلك والرياضيات ، وكانت تصدر حافلة بذلك مرتين في كل شهر ، وكانت توزع مجانا على التلاميذ فعودتهم ملكة المطالعة والبحث ، وفتحت صحائفها للبالغين منهم فكان ذلك يشجعهم ويدفع هممهم إلى البحوث والمجهودات المستقلة عن دروسهم [3] .

ودأب علي باشا مبارك على أن يضم الكتاب للروضة حتى بعد صدورها ، كما ارسل الديوان إلى المدارس يطلب منها أن يبادر النظار والاساتذة بأرسال ما يرون نشره وذلك اولا بأول

---

[1] روضة المدارس،السنة الاولى،العدد الأول،السبت ١٥ محرم ١٢٨٧هـ/١٧ نيسان ١٨٧٠م، ص٥ – ٦ ، نقلا عن دانيال كريسيلوس ، دراسات في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني ، ترجمة : حمزة عبد العزيز و محمد حسام الدين ، دار الافاق العربية ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص١٦٧ .

[2] عبد الرحمن الرافعي ، عصر اسماعيل ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٤٦ .

[3] إبراهيم عبده ، تطور الصحافة المصرية واثرها في النهضتين الفكرية والاجتماعية ، المصدر السابق ، ص٦٢ .

لديوان المدارس ، ويقوم الديوان بأرساله إلى الصحيفة [١] ، وليس ادل على قيمتها الادبية والعلمية من أن يطلب قلم الوقائع من ديوان المدارس نسختين أو ثلاث منها مجانا باسم العلم لأخذ بعض موادها لإعلانها بصحف الوقائع المصرية [٢] .

وكان لعلي مبارك الفضل الكبير في انشاء هذه المجلة في عهد الخديوي اسماعيل ، حيث عمل علي مبارك على اقناع الخديوي بضرورة انشاء مجلة علمية تعنى بالشؤون المدرسية وتعمل على احياء اللغة العربية ونشر البحوث العلمية للأساتذة لتصبح بوتقة التي فيها كل العناصر الثقافية والعلمية والادبية والفنية ، وكانت روضة المدارس تصدر مرتين في الشهر ويطبع من كل عدد منها ٣٥٠ نسخة زيدت فيما بعد إلى سبعمائة ، وقد استمرت الروضة في صدورها ثمان سنوات افادت فيها ابناء الوطن فائدة جليلة ، فهي اول مجلة مصرية تعنى بالعلوم والآداب إلى جانب العناية بشؤون المدرستين واخبار الامتحانات والحفلات الخاصة بها ، وكذلك الاعلانات عن بيع الكتب وفتح المدارس ، ولاشك أن وجود هذه المجلة في عصر اسماعيل رغم ابتعادها كلية عن السياسة ، فانها كانت لها تأثيراتها الثقافية العميقة على تقديم جيل من القراء والدراسين والباحثين في عصر اسماعيل .

وكان اسماعيل يعتقد أو اواخر عهده أن من الافضل منح الصحافة حرية تامة لتساعده ضد التدخل الاجنبي ، ولم يفكر قط في أن هذه الصحافة ستقوم بنقد تصرفاته الشخصية واسرافه وطريقته في الحكم ، وكانت الصحف في الوقت نفسه تهتم بالسياسة الخارجية وقد ادى ذلك إلى تحطيم الحواجز والسدود امام التفكير المصري السياسي ومكنه ذلك من متابعة الاحداث السياسية العالمية ، وقد ترك اسماعيل الحرية للصحفيين في كتابة المقالات عندما كان يريد مساعدة من الصحافة ، ولكنه ما كاد يشعر بشيء من استعادة القوة امام الدول الاوربية حتى يصدر امره بمعاقبة الصحفيين واغلاق صحفهم [٣] ، وصرح اسماعيل في ايار عام ١٨٧٩م بان مجلس النواب ينظر بعين الاعتبار لحرية الصحافة وانها وسيلة الاتصال بالاهالي ، وكذلك سيفتح مجلس الشورى

---

[١] دار الوثائق ، دفتر ٤٢٨ ، ج٤ ، صادر الفروع والدواوين بديوان المدارس ، ص٩ ، رقم ٣٦٦ ، إلى حضرة مصطفى بك وهبي ناظر اقلام الداخلية في ٢٧ محرم عام ١٢٨٧هـ / ٢٩ نيسان عام ١٨٧٠م ؛ دفتر ٤٢٨ ، ج٤ ، ص٤٧ ، رقم ٣٨٠ ، إلى حضرة محمد افندي عثمان مترجم ديوان البحرية بالاسكندرية ، في ٧ صفر عام ١٢٨٧هـ / ٩ ايار ١٨٧٠م ، نقلا عن دانيال كريسيلوس ، دراسات في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني ، المصدر السابق ، ص١٦٦ .

[٢] دار الوثائق ، دفتر ٤٣٣ ، ج٣ ، وارد ديوان المدارس ، ص٢ ، رقم ١٨ ، من قلم الوقائع إلى ديوان المدارس ، في ٣ صفر عام ١٢٨٧هـ / ٥ ايار ١٨٧٠م .

[٣] سامي عزيز ، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزي ، (القاهرة – ١٩٦٨م) ، ص٢٤ – ٢٩ .

ابوابه امام أصحاب الصحف حتى تصبح اعمال ذلك المجلس ظاهرة امام الناس ، ولكن الظروف السياسية التي ادت إلى خلع اسماعيل وضعت حدا لتلك الغاية التي نادى بها اسماعيل قبل أن يوضع تحقيقها موضع التجربة ، وقد تجاوزت الصحف في عهد اسماعيل الثلاثين صحيفة بين عربية واجنبية، وبين جريدة ومجلة ، ومن بينها ما كان له مع الحكومة مواقفا لتأييد أو المناهضة ، بالرغم من الصعاب الكثيرة التي واجهتها ، وبالرغم من التوزيع الضئيل للصحف الواقعة تحت رقابة شديدة ، فان نسخ الصحف كانت تتناولها الايادي ، وسرعان ما استطاع الاهالي معرفة ما يقرؤون بين السطور ، مما ادى إلى نهضة ثقافية واسعة في عصر اسماعيل [١] .

٣. التاريخ :

يعد التاريخ علم كسائر العلوم الأخرى يعوزه ما يعوز العلوم الاخرى من طب وهندسة وفقه وغيرها ، وانه لابد لصاحبه أن ينشأ نشأة علمية خالصة يتربى فيها على الشروط الفنية التي يقتضيها أي علم ، اذن التاريخ دراية ثم رواية [٢] ، ويقوم التاريخ على الاثار التي خلفتها عقول السلف أو ايديهم ، فاذا محا الزمن بعض هذه الاثار ، أو زلت معالمها فقد محا التاريخ ، وكانت كأنها لم توجد وبفقدها يجهل التاريخ عصرها ورجالها ، لهذا يرى المؤرخون لزاما في اعناقهم قبل كل شيء أن يتفرغوا للبحث والتفتيش عن شتى الاثار التي تخلفت عن السلف التي نصطلح عليها اسم الاصول [٣] .

ويعد رفاعة رافع الطهطاوي خير من اتجه بالكتابة التاريخية الصحيحة في القرن التاسع عشر ، فقد استطاع أن يخطو خطوة كبيرة في طرح المادة العلمية الصحيحة واستخدام المنهج العلمي متجاوزا ما كان سائدا في تلك الحقبة من عصره والحقبة التي سبقته والتي كانت تسودها الخرافات والاباطيل ، لانها كانت تمثل الوثنية في العبادة ، فقد استطاع رفاعة الطهطاوي من أن يتجاوز تلك الخرافات والمزاعم الخاطئة ، فضلا عن ذلك تجاوز المؤرخين الذين سبقوه في كتابة التاريخ المصري ، والقائم على كتابة التاريخ بطريقة الحوليات ، بعد ان فهم التاريخ المصري فهما جديدا ، ونظر إليه النظرة الشاملة مدركا أن التاريخ مستمر ، وان الحضارة المصرية سلسلة متواصلة الحلقات [٤] ، واتخذ رفاعة الطهطاوي من التاريخ اداة مهمة ورئيسة من ادوات الاصلاح

---

[١] خليل صابات وسامي عزيز ويونان لبيب ، حرية الصحافة في مصر ١٧٩٨ – ١٩٢٤ ، المصدر السابق ، ص٣٢ .

[٢] اسد رستم ، مصطلح التاريخ ، المكتبة المصرية ، (بيروت – ط١ ٢٠٠٢) ، ص١٣ .

[٣] المصدر نفسه ، ص١٢ .

[٤] عبد الكريم الشباني ، اتجاهات التحديث عند المفكر رفاعة الطهطاوي ، المصدر السابق ، ص١٤٠ .

الذي بواسطته تمكن من اكتشاف الذات العربية التي حققت له اصالته بالواقع وعدم التنكر له ، وعدم الانبهار بأوربا بكل قيمها وعلومها ، وبالتالي ساعده التاريخ في صياغة وتبلور مفهوم الاصلاح لديه أو الذي قام على اساس التوفيق بين علوم الغرب وتراث وطنه وأمته [١] .

وقد جاء علي مبارك بعد رفاعة الطهطاوي فنهج المنهج العلمي الذي سار عليه الطهطاوي في كتاباته التاريخية ، فاستطاع من أن يسير على هذا المنوال بعين ناقدة وعقل فاحص والمنهج العلمي في تميز الصواب من الخطأ عندما يعرض لروايات المؤرخين ، مسلما بالاضافات التي منحها له عصره وميزته بها ثقافته ، وذلك بعد أن احاط بآثار من سبقه من كبار المؤرخين الذين كتبوا في مختلف الفروع والفنون التي عرض لها فيما كتب من تاريخ [٢] .

ويتجلى اثر التكوين العلمي لثقافة علي مبارك في دراسته لتكوين وادي النيل في كتابه (نخبة الفكر) فيعرض لنا تكوين وادي النيل بواسطة النهر وطميه على مر العصور ، فطرح القوانين العلمية والحقائق الجيولوجية المتعلقة بطبيعة التربة ، والمواد التي يحملها ماء النيل في قبضاته ، ويتخذ من كل هذه الحقائق ادوات لتحديد زمن التكوين وأدواره وكيفيته ، فيؤسس النشأة والعمران على حقائق علمية وما اكتشف من نظريات [٣] ، الامر الذي وصفه المؤرخون ضمن المدرسة المستنيرة من المؤرخين الذين اعطوا اهمية كبيرة للعامل الاجتماعي في رصد العوامل المحركة للتاريخ ، فاقترب اقترابا كبيرا من المنهج العلمي والاجتماعي بالتاريخ [٤] ، وقد شهد القرن التاسع عشر بداية ظهور حركات جديدة في مجال الكتابات التاريخية ، بعد ان ادت المؤثرات الجديدة دورها في هذه الحركات ، إذ كان الانفتاح على اوربا ، كما كان لظهور الطباعة والصحافة وازدياد انتشار الكتب والتقدم الواسع في علم الاثار وما نجم عنه من ازدياد معلومات المؤرخين ، واشتداد الوعي العربي ، ونمو الشعور القومي اثره الفكري في تشجيع حركة التأليف التاريخي ، فقد تنوعت الموضوعات التاريخية في تلك الحقبة ، وكذلك عودة مدارس الكتابة والتأليف من جديد ، وان رائد هذه الكتابة التاريخية في مصر هو رفاعة الطهطاوي ، إذ كان (الجبرتي) يمثل المدرسة التاريخية في القرن الثامن عشر ، فان الطهطاوي يمثلها بحق في القرن التاسع عشر [٥] .

---

[١] المصدر نفسه ، ص١٤٦ .

[٢] علي مبارك ، نخبة الفكر في تكوين نيل مصر ، المصدر السابق ، ص ٢٧-٢٨ .

[٣] المصدر نفسه ، ص ٢٨ .

[٤] محمود الشرقاوي و عبد الله المشد ، علي مبارك حياته ودعوته وآثاره ، المصدر السابق ، ص ١١٩ .

[٥] عماد عبد السلام رؤوف ، محاضرات كتابة التاريخ العربي في العصر العثماني ، المصدر السابق ، ص٢٠ .

وأدى الاطلاع الواسع لعلي مبارك على المصادر التاريخية الفرنسية والمترجمة إلى أن يتأثر بموضوعات الكتابة ومناهجها في اوربا ، ويعد كتاب رفاعة الطهطاوي (انوار توفيق الجليل في اخبار مصر وتوفيق بني اسماعيل) اول نقله مفهوم الامة التاريخي لدى المؤرخين المصريين والعرب عامة ، ففي هذا المؤلف واصل الطهطاوي تبيين تاريخ مصر القديم والوسيط والحديث معتبرا اياه حلقة متصلة في سلسلة واحدة من تاريخ مصر ، وحافزا ليقظة الحركة الوطنية في مصر ، فقد اعطى الطهطاوي لسيرة الرسول (صلى الله عليه واله) التقليدية مضمونا جديدا ، ففي كتابه (نهاية الايجار في سيرة ساكن الحجاز) تحدث فيه عن اسس الحكومة الإسلامية وواجباتها في عصر الرسول (صلى الله عليه واله) بمعنى انه اضاف إلى السيرة بعدا اجتماعيا جديدا بفرضه واقع التطور الحاصل في نظم الدولة في مصر وقتئذ [١] .

وحتمت التغييرات الاجتماعية التي مرت بها مصر في ذلك الوقت الاستمرار في هذا النهج الذي شرع به الطهطاوي ، فاستمر الاهتمام بتاريخ الدول القديمة السابقة على الاسلام ، واصبحت مصادره هي معطيات علم الاثار بالدرجة الاولى ، وقد ظهر في هذا الاتجاه (صالح مجدي) احد تلاميذ الطهطاوي وتطور بشكل كبير وواضح في كتاب (الخطط التوفيقية) لعلي مبارك ، فتحدث فيه عن تاريخ كل مدينة منذ اقدم العصور ووصف ما بها من مساجد ، وكنائس ، وأديرة ، ومدارس ، وحمامات...الخ ، وقد ذكر ما اصاب هذه المنشات من تطور خلال العصور ، ولم يجد علي مبارك حرجا في ايراد التفاصيل عن تاريخ مصر القديم معتمدا على ما حصل لعلم الاثار من تقدم في ذلك الوقت لاسيما حل رموز اللغة الهيروغليفية ، وكانت مصادره ما كان ينشر باللغة الفرنسية فضلا عن المصادر العربية التقليدية [٢] .

وقد سار علي مبارك المؤرخ على هذا النحو فيما كتب من تاريخ ، ففي كتابه (نخبة الفكر في تدبير نيل مصر) وعلاقتها بنهر النيل والحضارة التي نشأت على ضفافه ، والاطوار التي مرت بها اجتماعيا وسياسيا وحضاريا ، والقاعدة المادية للمجتمع وعلاقتها بالأبنية العلوية فيه ، جعلت جميع ذلك وحدة موضوعية هي عنده الموضوع الذي يؤرخ له ، فاذا كان لواء الريادة في مدرسة التاريخ الحديث قد عقد للطهطاوي ، فهو قد أرخ في الستينات ، بينما ارخ علي مبارك في السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر [٣] ، ويرى الدكتور محمد عمارة أن علي مبارك قد سبق الطهطاوي بالفصول التي كتبها في التاريخ بكتابه (علم الدين) الذي ألفه في نهاية

---

[١] عبد الكريم حسين ، اتجاهات التحديث ، المصدر السابق ، ص٢٠ .

[٢] عماد عبد السلام رؤوف ، محاضرات التاريخ العربي ، المصدر السابق ، ص٢١ .

[٣] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

الخمسينات من القرن التاسع عشر ، فان علي مبارك قد تميز بضخامة ما ترك من اثار فكرية في علم التاريخ ، كما امتاز كذلك بانفراده بالتأليف في (الخطط) منذ عصر المقريزي (٧٦٦ – ٨٤٥هـ / ١٣٦٤ – ١٤٤٢م) حتى القرن التاسع عشر ، بل ولا يزال فريدا ووحيدا في هذا الميدان حتى الان .

ولم ينفرد علي مبارك فقط باقتحام هذا الميدان ، ويتفرد فيه منذ عصر المقريزي ، بل كان اضافة جديدة ومتميزة لمؤرخي (الخطط) في تراثنا العربي وتاريخنا الاسلامي الطويل ، فهو مهندس يحقق بعلم الهندسة اقوال القدماء ورواياتهم عن الاثار والعمائر والمنشات ، وكذلك صاحب حاسة نقدية يقارن بالماثورات ، ويحقق المرويات ، ويرشح اصح الاقوال والاستنتاجات ، وهو شاهد عملي أيضا ، ينزل بنفسه أو بمن استعان بهم إلى ارض الواقع فيحقق على الطبيعة روايات المؤرخين [١] .

ويعد علي مبارك خير من استفاد من موسوعة (وصف مصر) بعد رفاعة الطهطاوي ، وهذه الموسوعة وضعها علماء الحملة الفرنسية الذين صحبوا بونابرت وجيوشه ، ودونوا فيه بالكلمة ، والرسم ، والخارطة ، تاريخ مصر واثارها وحضارتها ومجتمعها وانسانها منذ اقدم العصور ، بل لجأ إلى علماء اللغة المصرية القديمة فاستفتاهم فيما غمض عليه من بعض وقائع تاريخها القديم [٢] ، ويمكن أن نجد في علي مبارك المؤرخ عددا من السمات التي تجعلنا نضعه ضمن المدرسة المستنيرة من المؤرخين الذين أعطوا العامل الاجتماعي اهمية كبيرة في رصدهم للعوامل المحركة للتاريخ ، فاقتربوا اقترابا شديدا مما نسميه اليوم بالمنهج العلمي والاجتماعي في التاريخ .

وادرك علي مبارك ادراكا جيدا دور العوامل المادية وفي مقدمتها الضرورات الانسانية في صناعة مظاهر التقدم الفكري والحضاري في المجتمعات ، فالسبب الاساسي والأصلي في انتقال الإنسان بقوة فكره وغزارة عقله ، من حالة إلى حالة ومن فكرة إلى فكرة ، حتى وصل إلى ما نراه اليوم في مختلف فروع العلم والمعرفة ، والسبب الاساسي في ذلك التطور والارتقاء الفكري هو ضرورات الإنسان واحتياجاته وميله لحب الانتفاع والوقاية الشخصية [٣] .

ويرى أن للبيئة المادية وعوامل الاقاليم التي ينشأ ويعيش فيها الإنسان دورا مهما وحاسما في تكوين وتلوين الابنية العلوية التي تحكم سلوك هذا الإنسان بما فيها من الطباع والاخلاق

---

[١] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

[٢] علي مبارك ، علم الدين ، المصدر السابق ، المسامرة (٣٤) (شذرات) ، الخطط ، الجزء الثاني ، ص ١٦ ، ٣٣ ، ٥٩ ، ١١٢ ، ١٢٠ .

[٣] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٤٩٠ .

والعادات ، وهو يعد هذه الحقيقة قانونا عاما في جميع جهات الارض لا يختلف ابدا : " وهذا قانون عام في جميع جهات الارض ، فكل سكان بقعة من مبدأ اتخاذهم لها مقرا ووطنا قد تخيلوا حتى اهتدوا إلى ما يوافق احوالهم بالنسبة لهذه البقعة ، ومن ثم كانت الطباع والاخلاق والعادات متولدة من طبيعة قطر الجهة ، واما ما زاد فطارئ من اختلاط سكان كل بقعة بمن جاورها " [١] .

ويمكن القول أن علي مبارك الذي عرض في كتاباته التاريخية لآثار مصر القديمة العظيمة المعجزة قد اتخذ في تفسيره لأسباب اقامتها وامكانيات بُناتها ومؤهلات تشيدهم لها الموقف العلمي الذي يجتذب الاعجاب والاكبار ، فقبله نسب كثير من المؤرخين اقامة هذه الاثار الخالدة إلى الجن والشياطين عندما راوها فائقة ومتفوقة عن قدرات العلم والعمارة في العصور التي كتبوا فيها ، وبعده حتى عصرنا الراهن ، ينسبها كتّاب إلى قوم قد هبطوا من السماء ، فأقاموها ، ثم عادوا ثانية إلى السماء ، واما علي مبارك فانه يفسر ذلك الاعجاز العلمي والمعماري والحضاري الذي تجسده هذه الاثار تفسيرا علميا وانسانيا ، يقبله العقل المستنير ويزداد به ايمانا بقدرات العلم وامكانيات الإنسان [٢] .

ولم يلجأ علي مبارك إلى نسبة ذلك التقدم إلى الجن والشياطين ، كما فعل كثير من المؤرخين القدامى ، ولا إلى الذين هبطوا من السماء ، كما يفعل مروجو الخرافة المحدثون ، وانما اختار التفسير الانساني والعلمي لتلك الظاهرة الباحثة عن تفسير ، فقال : ((أن الانسانية التي سبقت حادث الطوفان كانت قد بلغت في الحضارة شوطا كبيرا وشانا بعيدا ، وان في تكذيب الناس قبل الطوفان لكثير من الرسل والأنبياء الذين دعوهم إلى دين الله ، لدليل على أن هؤلاء المكذبين قد بلغوا من العلم والتقدم ما جعلهم على درجة من الاعتزاز والغرور الذي جعلهم يحاجون المرسلين ويسفهون دعوات الأنبياء)) [٣] ، وتوحي قصة الطوفان بان النبي نوح (عليه السلام) وقومه قد وضعوا الوسائل والسبل التي تغلبوا بها على مخاطرة المدمرة وبأسه الشديد ، وفي ذلك دليل على بلوغ انسانية ما قبل الطوفان في العلم والمعرفة شأنا كبيرا ، واذا كان النبي نوح (عليه السلام) وقومه قد أنقذوا من الطوفان من كل زوجين اثنين ، وحفظوا من الغرق بذور كل النباتات ، واجناس كل الطيور والهوام والحشرات وسائر الاحياء ، أفلا يكون المنطق مع القول بانهم قد حفظوا ثمرات العلوم والمعارف وأسرار التقدم الذي بلغته الإنسانية في ذلك الحين .

---

[١] المصدر نفسه ، ص٦٣٤ .

[٢] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٢٥ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٢٢٦ .

ويضيف علي مبارك عن هذا الموضوع قائلا : " ولابد أن تكون الحضارة بمكوناتها وعلومها ، قد نجت مع نوح وقومه من دمار الطوفان ، ولابد أن تكون هذه العلوم قد عادت إلى النمو والازدهار بعد الاستقرار والانتشار الذي اعقب الطوفان ، ولابد أن تكون مصر القديمة بحضارتها وتقدمها المعجز احدى ثمرات تلك العلوم التي جاءت اليها من حضارة ما قبل الطوفان عبر الذين نجوا من الغرق فيه " [١] .

وعندما يعرض علي مبارك المؤرخ ، بالتفسير لظاهرة النمو والازدهار الذي تحقق لبقايا هذه العلوم والمعارف على ارض مصر القديمة بالذات ، وللاسباب التي جعلت هذه الارض مهدا لنشأة علوم كثيرة والوصول إلى تطبيقات مدهشة يعود إلى القانون الذي نبهنا إلى عموميته وهو : انبعاث التقدم العلمي والحضاري من احتياجات الإنسان وصلاح البيئة التي يقطنها لذلك ، فمصر بلد زراعي ، لانه قد تكوّن ونشأ من النيل وفي ارتباط به ، ومن ثم كانت الزراعة والفلاحة هي الباعث على التقدم والاختراع والفكر والتفكير ، وهي الوعاء الذي رعى وطور كل فروع هذا الميدان ، فضرورات الإنسان المصري القديم ، واعتماده في سد حاجات هذه الضرورات على الفلاحة ، هو الذي اوصله وقاده إلى اكتشاف تلك المعارف والعلوم وتنميتها ، بل وهو الذي قاده إلى اكتشاف القوة الالهية الفاعلة في هذا الكون ، فعرفها وعرف الدين والتدين ، وسلك سبيل التوحيد ، فالدين هو الآخر معرفة وصل اليها الإنسان عبر العلوم والمعارف التي انشأها وحكم تطورها ، قانون انبعاث المعارف ونموها من ضرورة استجابة الإنسان لما لذاته ومجتمعه من احتياجات [٢] ، ويعرض علي مبارك لهذه الحقيقة الهامة عندما يتحدث عن المؤثرات الاساسية التي تشكل ادراكات الإنسان والهاماته واخلاقياته وعاداته ، فعنده أن : " كل ما يكون للانسان من ادراكات والهامات واخلاق وعادات واعمال انما هي امور مكتسبة واردة عليه من قوة خارجة عنه وانفعالات تنطبع في ذاته من المؤثرات المكتنفة به واذا استقرانا احوال الإنسان وامعنا النظر في انواع عوارضه وجدنا المسلطات عليه في ادراكه وسائر احواله تنحصر في ثلاثة امور :

اولا : طبيعة البقعة التي نشأ فيها ، وكيفية عيشه في الارض التي تولد منها .

ثانيا : الدين الذي يسوقه إلى سعادته وكماله بحسب ذاته .

ثالثا : الحكومة السياسية التي تسوسه ، وتوقفه عند حده في تصرفاته [٣] .

---

[١] المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ – ٢٣٠ .

[٢] محمد عمارة ، علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ، المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

[٣] علي مبارك ، نخبة الفكر في تدبير نيل مصر ، المصدر السابق ، الباب الثالث ، ص ١٧١ .

ويمكن أن تلمح عند علي مبارك المؤرخ مكانا عليا لمعيار (الاستقلال) الوطني بين المعايير التي حكمت الازدهار أو التخلف في البلاد ، وهو في هذا الباب يتقدم قلة من المؤرخين التي اهتمت اهتماما شديدا بهذا العامل ، وابصرت دوره في صنع احداث التاريخ التي مرت بالمجتمعات ، فالعدل عنده شرط للعمارة والتقدم ، ويستحيل أن تقوم العمارة ويثمر التقدم مع فقد الاستقلال ! ، وقد تميز علي مبارك بالجرأة عندما طبق هذا القانون والمعيار فأبصر سلبيات الفتح العربي الاسلامي على عمران مصر ، ولكنه كان بريئا كل البراءة من اية شائبة للتعصب ضد العروبة أو الاسلام ، لانه قد مجّد عصور استقلال مصر الإسلامية عندما اعان فيها الاستقلال مع العدل النسبي على ازدهار العمران ، وفي موقفه هذا لا ينطلق من مقولات فكرية مسبقة ، وانما وهو المهندس ينطلق من دراسته لثروة مصر وعمرانها ، وصلاح زراعتها ومصادر غلتها ، ويتخذ خراجها ودخل حكومتها مؤشرا في هذا الميدان [١] ، وكان المنهج الذي التزم به علي مبارك المؤرخ سببا إلى رفضه الكثير من الخرافات والمقولات التي شاعت على ألسنة العامة دون أن يكون لها سند قوي أو حقيقي من التاريخ الصحيح ، وقد كانت مصر ولا تزال مسرحا لكثير من هذه المقولات التي ربما نشأ بعضها وعاش وانتشر لأسباب سياسية تعلقت بالصراعات والمنافسات بين الاسر العربية المسلمة التي اقتتلت على الخلافة ، أو بين اقاليم الامبراطورية العربية الإسلامية ، فيقف مع حقائق التاريخ ويرفض بل وينقد المزاعم والاوهام ، فهو يرى في القول بدفن (عبد الرحمن بن عوف) في مصر " زعما يزعمه الناس وليس كذلك " [٢] ، وينكر علي مبارك أن يكون (سيدي سارية الجبل) قد دفن في مصر ، رغم أن (ابن جبير) قد ذكر مشهده في رحلته ، ويقول : " ولم نر في كتب التواريخ الصحيحة أن سيدنا سارية جاء إلى مصر ، فضلا عن انه مات بها؟ "[٣]، وينكر علي مبارك أيضا وجود جثمان (زين العابدين علي بن الحسين) (عليهما السلام) في مصر ، ويصف ذلك الاعتقاد بأنه وهم ، فليس قبره في مصر ، بل في البقيع في المدينة المنورة [٤] ، وهو ينكر وجود جثمان السيدة (زينب بنت علي بن أبي طالب) (عليهما السلام) في مصر ، ويقول : " اني لم أرَ في كتب التواريخ أن السيدة زينب بنت علي (ع) جاءت إلى مصر في الحياة أو بعد الممات! "، ويتبع تلك المقولات الشائعة بالتشكيك والتفنيد [٥] ، ويستهجن علي مبارك البدع التي تشاع في عصره وقبله وينكر تلك الخرافات ، ويقول : " وظاهر

---

[١] علي مبارك،نخبة الفكر في تدبير مصر،المصدر السابق،الباب الأول،فصل فيما يتعلق بالنيل وفروعه،ص١٠٥.

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، الجزء الخامس ، ص١٢٣ .

[٣] المصدر نفسه ، الجزء الخامس ، ص١٤ . عن (جامع سيدي سارية) .

[٤] المصدر نفسه ، ص٦ . عن (جامع ومشهد زين العابدين (ع)) .

[٥] المصدر نفسه ، عن الحديث عن الجامع الزينبي وجامع الكروي و جامع سيدي عقبة .

أن جميع هذه البدع لم يرد بها سنّة ولا شرع ، ويأباها العقل والانسانية ... انها اعتقاد فاسد من عقل كاسد ، يوقع صاحبه في الضلال ، ويؤديه إلى الاضلال ، وهي فعل قبيح وليس بصحيح ، وقد عمدت به البلوى في عصرنا بهذا القطر المصري ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " [1] ، يتضح مما سبق ان علي مبارك قد اهتم بالتاريخ لقيمته كعلم مكنه من تعزيز شخصية مصر وعمقها الحضاري بعد ان ادرك حاجة عصره للكتابة التاريخية التي وظفها كأداة للإصلاح وبها تمكن من تأجيج الروح الوطنية .

الفصل الرابع

علي مبارك والتحليل الموضوعي لكتابه الخطط التوفيقية

المبحث الأول : الهدف من كتابه الخطط

المبحث الثاني : منهجيه في الكتابة

---

[1] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، ج١ ، المصدر السابق ، ص١٣٧ .

المبحث الثالث : المصادر التي اعتمدها في كتابه

المبحث الأول : الهدف من كتابه الخطط :

يعد فن تأليف الخطط فن مصري اصيل ، نشأ في مصر الإسلامية ، وفيها دون ، وفي الامصار الإسلامية نما وترعرع [١] ، واول من ألّف فيه (الكندي) [٢] ، ولم يمض قرن بعد ذلك حتى يظهر فيه مؤلف أو اكثر يكتبون في خطط مصر ، وكان اخرهم (تقي الدين المقريزي) الذي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي [٣] ، وتعد (الخطط التوفيقية) من المؤلفات النادرة في حجمها وفنها ، فقد كتبه علي مبارك في عشرين جزء ، واستعان على ما انجزه بما كتب القدماء ، وما اضاف المحدثون والمعاصرون ، وما امتلك هو من اضافة عقلية وعلمية بوصفه مهندسا يجيد استقراء الارقام ويحسن استخدام المنهج الرياضي في النقد والمقارنات .

---

[١] جمال الدين الشيال ، التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٥٨م ، ص١٠٥ .

[٢] الكندي : ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي (١٨٥-٢٦٦هـ / ٨٠٥-٨٧٣م) علّامة عربي ، برع في الفلك والفلسفة والكيمياء والفيزياء والرياضيات وعلم النفس والمنطق ، ويعرف عند الغرب باللاتينية (Alkindus) ، واشتهر بجهوده في تعريف العرب المسلمين . ينظر : احمد فؤاد الاهواني ، الكندي فيلسوف العرب ، المؤسسة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة ١٩٦٨) ، ص١٧٦ .

[٣] المقريزي ، : (٧٦٦ – ٨٤٥هـ / ١٣٦٤ – ١٤٤٢م) وهو تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر محمد المعروف بالمقريزي ، وكان قد بيّن خطط القاهرة في زمانه اتم البيان واوضح معالم مدنها وقراها الشهيرة ابدع ايضاح ، وذكر تواريخ اعاظمها من العلماء والاعيان وما وصل من احوال اهلها في زمنه حتى بلغ مبلغ انتفع به الناس النفع العملي ، لمزيد من المعلومات ينظر: علي مبارك،الخطط التوفيقية،ج١،المصدر السابق،ص١ .

ونطالع في هذا الكتاب ما كتب الاقدمون مع النقد والتفسير ، ونقف على خلاصة آراء علماء الحملة الفرنسية ورسوماتهم التي تضمنها اثرهم العملاق (وصف مصر) ، إذ يسميه علي مبارك بـ (خارطة الفرنساوية) ، فتجلت فيه عناصر المنهج الذي اتبعه علي مبارك في كتابة التاريخ ، واهمية هذا الفن في التاريخ لحياة المجتمع اذا اخذنا بنظر الاعتبار تأثره بالمنهج العلمي الغربي الذي درسه في فرنسا .

وكان لواء الريادة في مدرسة التاريخ الحديث قد عقد للطهطاوي الذي كان اول المؤرخين المحدثين ، لان الكثرة الساحقة من مؤرخي العربية الذين سبقوه كانوا يكتبون التاريخ على اساس الحوليات ، فكل سنة يدون تاريخها وترصد احداثها ، ثم تأتي احداث السنة التالية وهكذا ، اما الطهطاوي فقد تناول التاريخ كما يتناوله مؤرخو المدرسة الحديثة ، فتاريخ مصر عنده عصور وحقب سياسية وحضارية وليس حوليات [١] .

وقد أرخ الطهطاوي في ستينات القرن التاسع عشر ، بينما أرخ علي مبارك في السبعينات والثمانينات من ذلك القرن التاسع عشر ، كما امتاز علي مبارك بانفراده بالتأليف في (الخطط) منذ عصر المقريزي ، بل ولا يزال فريدا ووحيدا في هذا الميدان حتى الان ، ويعنى فن التاريخ في (الخطط) بالدرجة الاولى بتاريخ المدن ونشأتها وما فيها من شوارع وحارات ، ومساجد ، وزوايا ، وتكايا ، ومدارس ، واضرحة ، ومن نبغ فيها من العلماء ، وتوالى على حكمها من الامراء ، ومصادر عيش هذه المدن والبلاد [٢] ، وحِرف اهلها وصنائعهم ونقودهم ، ومقاييسهم ومكاييلهم وموازينهم ، وما قام بينهم وبين حاكميهم من صراعات ، وما شهدت تلك المدن والبلاد من اوقات رخاء وازدهار ، وما اصابها من محن وامراض واوبئة ومجاعات ... الخ ، فان هذا الفن من فنون التاريخ والوانه يضع يدنا على القسمات الاساسية التي تكون القاعدة المادية للمجتمع [٣] .

ويتحدث علي مبارك عن الاسباب التي حملته على كتابة (الخطط) أن : "
مدينة القاهرة المعزية التي هي دار الحكومة الخديوية قد كثر ذكرها في كتب الخطط والتواريخ والسير ، ووصف ما كان بها من المباني والبساتين وهي الان غيرها في تلك الازمان لتغيرها عما كانت زمن الفاطميين الذين اختطوها بتغير الدول وتقلب الازمنة ، وكانت تارة يؤثر فيها الزيادة وتارة النقصان ، فتُرى احيانا زاهرة زاهية وطورا واهنة واهية ، ولم تر منا معشر ابنائها من يهدينا إلى تلك التقلبات اسباب هاتيك الانتقالات ، ويدلنا على ما فيها من الاثار فنجوس خلالها ولا

---

[١] عبد الكريم حسين الشباني ، المصدر السابق ، ص١٤٨ .

[٢] عماد عبد السلام رؤوف ، محاضرات كتاب التاريخ العربي في العصر العثماني ، المصدر السابق ، ص٢٠ .

[٣] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، مج١ ، ص١٤٩ .

نعرف احوالها ، ونجوب اقطاعها ولا ندري من وضعها ، وقد خطها العلامة المقريزي لوقته واطال القول فيما فيها من المباني والمزارع ، وتكلم عن الحوادث والرجال ، ولكن بعده كم من امور مرت فدمرت وغبر جرت فغيّرت ، حتى ذهب اكثر مما اسهب في شرحه كليا وزال حتى صار نسيا منسيا ، وكم من اثار خيرية صار نفعها مندثرا مهجورا ومصانع وصنائع قد اندثرت كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وكم من تلال كانت عمارات شاهقة ، ووهاد كانت بساتين معجبة فائقة وقبور مزوية في جوانب الحارات ومشاهد متباعدة في الفلوات اطلق عليها العامة أسماء كاذبة كقولهم " هذا ضريح الاربعين مثلا " ، وكم من مساجد نسبوها لغير من بناها ، ومعابد اسندوها لمن لم يكن راها ، والحقيقة انها قبور ملوك عظام ، أو معابد سادات كرام أو مساجد امراء فخام مع أن معرفة ذلك حق علينا ، إذ لا يليق بنا جهل بلادنا والتهاون بمعرفة اثار اسلافنا التي هي عبرة للمعتبر وذكرى للمذكر ، فهم وان مضوا لسبيلهم فقد تركوا لنا ما يحثنا على اقتفاء اثارهم وان نصنع لوقتنا ما صنعوه لوقتهم ، وان نجدّ في طرق الافادة كما جدّوا ، دعتني نفسي لتأليف كتاب واف بما لمصر من قديم وحديث متضمن لذكر مبانيها الدائرة والموجودة وما يتبع ذلك من اخبار اربابها ، وذكر نيلها ومنافعه وكيفية تصرفاته ومواضعه " [1] .

وبذلك فان اسباب كتابة الخطط عند علي مبارك تتجلى في مجموعة من النقاط الاتية :

١. الهدف من كتابة الخطط هو تسجيل لتاريخ مدينة القاهرة التي لم يكتب عن تاريخها الحالي الذي عاشه والذي يرى فيه علامة مضيئة في تاريخ مصر والوطن العربي .
٢. تاريخ المدينة لم يكن يؤرخ لحقبة معينة فقط ، وانما في هدفه سلسلة لتاريخ مدينة متصل الحلقات عبرت عنه تلك المدينة العريقة بعطائها عبر التاريخ ، فتاريخها لم ينقطع رغم مرورها بمراحل سابقة قد قل اثرها الحضاري .
٣. الهدف منها هو (عبرة للمعتبر وذكرى للمذكر) اي درس تاريخي لتوظيف المعرفة التاريخية لتلك المدينة العربية لتقتدي بها الاجيال اللاحقة وتعطي واقعا للتغيير والعطاء لتلك الاجيال للاستمرار في عطاءها .
٤. لم يقتصر التأليف على ذكر جانب واحد من تاريخ المدينة ، بل شمل كل الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية لها ، الامر الذي يجعلها تصل الى مستوى علم الموسوعات الحديثة .

---

[1] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

٥. شكل التاريخ لديه جزءً حيويا وانعطافه تاريخية مهمة في المدرسة التاريخية المصرية الحديثة بعد رفاعة الطهطاوي .

٦. اصبح التاريخ لدى مبارك (علم) معني بدور الاشخاص (الفرد) في الوقت الذي هو معني (بالمجتمع) كذلك هو معني بتجارب الامم ودراسة احوالها .

٧. اتسمت كتابته في تاريخ الخطط بالدقة العلمية والموضوعية ، فقد استقصى الحوادث وتحفظه في ذكرها ، فضلا الى انه عاش كثيرا من الاحداث التي دونها والتي تنم عن حبه لوطنه مصر وشعبها الذي اعطى كتابته صورة زاهية جدا .

وقد سار علي مبارك في تأليفه (الخطط) على المنهج العلمي للتاريخ في القرن التاسع عشر ، وهو المنهج الذي اتبعه رفاعة الطهطاوي ويقوم على حشد الاسانيد والمصادر والوثائق قديمها وحديثها على اختلاف الوانها فيما نسميه بالطريقة التراكمية أو المنهج التراكمي ، وهي بتوخيها للدقة والامانة في النقل والرواية لا تستطيع أن تتجنب الخطأ ، فنراه يذكر من الغرائب ما لا يقبله المنهج التحليلي الحديث ، إذ يذكر مثلا عن (جبل سرنديب) نقلا عن (ابن بطوطه) أن به قدم ادم (عليه السلام) ، وينقل عن (هيرودوت) أن عدد العمال الذين اقاموا الاهرام كانوا (ثلاثمائة وستين الفا) ، أو ينقل النص كما هو دون تعديل ، فنراه يذكر (لويس التاسع) قائد الحملة الصليبية على دمياط والمنصورة بأنه (روا دفرنسي) ، كما دعاه المقريزي من غير أن يشير إلى اسمه ، ويسمي (أبا الهول) (الصنم) كما سماه المقريزي من قبل [١] .

ويبدو أن الطريقة التراكمية على ما فيها من عيوب قد اصبحت الاساس لعملية التجميع التاريخي الذي يسبق الفحص والتمحيص بما تحشده من مصادر امام المؤرخ ، وكان علي مبارك جمّاعا ماهرا ، وذاكرة تعي الجزئيات كما تعي الكليات ، فأفاد من الكتب القديمة والحديثة على السواء ورجع إلى الوثائق والمحفوظات وحجج الاوقاف والمصادر الاخرى كافة ، واضاف إلى تاريخ مصر القديم ما كشفت عنه آخر البحوث الاثرية ، ويشير إلى ذلك فيقول : " أن اكثر الاثار القديمة كالاهرام والبرابي وغيرها مما بقى من اعمال الامم الماضية والقرون الحالية لم يكن الغرض من ذكرها إلا لكونها من عجائب الدنيا ، ومعلوم أن الكتابة الطبرية المعروفة بـ (الهيروجليفية) لم تتكشف حقيقتها إلا في هذا القرن ، فقد وقف الافرنج على حقائقها من الكتابات الباقية على جدران

---

[١] حسين فوزي النجار ، علي مبارك أبو التعليم ، المصدر السابق ، ص ١٣٧ – ١٣٨ .

الاثار المصرية والمباني الفرعونية ، واخذوا مجدّين اليوم في توسيع دائرة علمها ، فالتزمت أن اطالع ما كتب بخصوص تلك الاثار وألخص ما فيه الفائدة من غير إطالة ولا اكثار " [١] .

وجاءت تسمية هذا المؤلف بـ (الخطط التوفيقية) رغبة من علي مبارك بأهدائه إلى الخديوي توفيق الذي كان معجبا به لرعايته للعلم وعنايته بالمثقفين ، وتوطيده لأسس حكومة مصرية لها مقوماتها الذاتية المستقلة ، في حين أُعجب الاخير بعلم علي مبارك واسلوبه وقدرته على التنظيم والادارة [٢] ، واما عن بدأ تأليفه لهذا الكتاب فقد ألّفه في عهد الخديوي توفيق كما تذكر المقدمة ، وصفحات أخرى من الكتاب ، ويرجح بعض المؤرخين أن السنوات التي اعتزل فيها علي مبارك الوزارة لاسيما بعد قيام الثورة العرابية عام ١٨٨٢م ، وحتى عودته إلى الوسط السياسي في ٩ حزيران عام ١٨٨٨م ، زمنا لتأليف هذا الكتاب ، ففي العام الذي تولى فيه آخر وزاراته كان هو العام الذي طبع فيه الجزء الاخير ، وهو قد طبع عام (١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م) اثناء توليته لنظارة المعارف الاخيرة ، أي بعد حزيران عام ١٨٨٨م [٣] ، والدليل على ذلك ما وصفه مصحح الكتاب (محمد الحسيني) الذي يقول : " ... ذو السعادة علي باشا مبارك ، ناظر ديوان المعارف العمومية بالديار المصرية ... " .

واما الجزء الأول من الكتاب فقد طبع عام (١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م) أي أن طبع الاجزاء العشرين قد انجز خلال عامين ، وقد ادرك علي مبارك بعد تحسس الحاجات الحقيقية لواقع المجتمع المتخلف فكريا وحضاريا ، فسعى إلى كشف اسباب التخلف متخذا اصلاح الوسائل طريقا له ، مدركا حقيقة الحضارة الغربية والتقدم الغربي ، باعتبارها قامت في الاساس على الحضارة والتقدم العربي الاسلامي [٤] ، ويقول رفاعة الطهطاوي في كتابه (تخليص الابريز) في هذا الصدد انهم اعترفوا لنا بـ " باننا كنا اساتذتهم في سائر العلوم ، ويقدمنا عليهم ... والفضل للمتقدم " [٥] ، واهم الاسباب التي دعت علي مبارك الى كتابة الخطط هو الاصلاح اولا ، وأدل خطوات الاصلاح هو التعليم بعد ان ادرك ان اولى خطوات التعليم هو المؤسسة الاكبر الا وهي الازهر ، كما أن اعجابه بالتقدم الغربي لم يقده إلى التنكر من تراث أمته وحضارتها ، إذ أن الهدف

---

[١] المصدر نفسه ، ص ١٣٨ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٢٠ ، ص ١٦٦ .

[٣] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص٩٠ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٢٠ ، ص١٦٥ .

[٥] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي ، ج٩ ، المصدر السابق ، ص٥٣٠ .

من الاصلاح عند علي مبارك ينصب في كيفية العمل على النهوض بالامة ، لتلحق بأوربا في النهضة والتقدم ، والعلم هو الأساس الذي يجب الانطلاق منه .

وكان لعلي مبارك فلسفته الخاصة التي حكمت تفكيره وسعيه في هذا المشروع ، ذلك أن التعليم في مصر كان قد اتسم بالازدواجية منذ النهضة التعليمية المدنية التي قادها محمد علي ، وقد حاول محمد علي أن يصلح الأزهر ويطوره كي يُدخل مصر إلى العصر الحديث ، ويترك فكر العصور الوسطى المتخلف المليء بالخرافة والركاكة ، لكن شيوخ الازهر المحافظين ناصبوه العداء لأسباب اجتماعية واقتصادية ، فأحجم عن منازلتهم اتقاء لغضب الجماهير الخاضعة لسلطانهم التقليدي ، فأقام المدارس المدنية العصرية التي تجاوزت الازهر ، الذي ظل يعيش بكتبه الدراسية في عصر المماليك والعثمانيين ، واكتفت الحكومة بانتخاب طلاب من نجباء الازهر بين الحين والاخر ، كي يتحولوا إلى الدراسة في المدارس المدنية ، ليتخرجوا ذوي ثقافة مدنية عصرية لا علاقة لها بعلوم الدين وفنون التراث ، وهكذا نشأت الازدواجية في التعليم ، وظهرت في تلك الحقبة دعوات الرواد من امثال الطهطاوي ، لإصلاح الازهر وتطوير علومه ، وادخال العلوم الحديثة في برامجه التعليمية ، ولكنها ظلت مجرد دعوات ولم تطبق [١] .

وقد وصلت الدراسة في الأزهر في نظر علي مبارك إلى حد من التخلف يستدعي السعي الجاد للإصلاح ، فالطلاب يتلقون دروسهم في ظروف غير صحية ، وهنا يرسم لنا لوحة فنية كئيبة فيقول : " فانك ، عند جلوسهم للدروس ، لا تكاد تمر بينهم ، لتلاصقهم ، بل قد يتدافعون ويتنازعون في المجالس ، ويكون لهم دويّ شديد ، ويدركون الحر في الشتاء من تجاور الاجسام وكثرة الانفاس ! ويكون لهم في الصف روائح غير مقبولة ، يلهيهم عنها اجتهادهم واشتغالهم بالتحصيل !! ... " [٢] ، ولم يقف علي مبارك عند موقف الدولة التقليدي من التعليم ، وقنع مرغما بترك الازهر على حاله واستسلم لازدواجية التعليم ، وانما فكر واقدم على انشاء مؤسسة تعليمية جديدة تضم خير ما في الازهر بعد تطويره وتحديثه إلى جانب ما في التعليم المدني العصري من علوم وفنون ... فأسس مؤسسة تلغي ازدواجية التعليم ، ذات المخاطر على عقل الامة وشخصيتها الموحدة ، وهذه المؤسسة هي (دار العلوم) [٣] ، في ذات الوقت أدرك أن هيكل الدولة ونظامها ومؤسساتها بحاجة إلى اصلاح ، وهو واحدا من كوكبه المفكرين المصريين الذين اسهموا في بناء

---

[١] المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٥٣٣-٥٣٦ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص٢٧ .

[٣] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لعلي مبارك ، المصدر السابق ، ج١ ، ص١٨٨ .

تجربة مصر الحديثة من خلال جهاز الدولة المدني الجديد الذي عرفته البلاد منذ حكم محمد علي عام ١٨٠٥م .

ويبدو أن علينا أن نعي الحقيقة الهامة التي تقول : " أن جهاز الدولة هذا كان هو اداة الاستنارة والتقدم والتطور الوحيدة في البلاد حتى سبعينات القرن التاسع عشر، ولم يكن هناك مكان لمصلح خارج هذا الجهاز يستطيع أن يمارس منه أية دعوة من دعوات الاستنارة والاصلاح ، لا لان الدولة تستبد فتمنع الدعوة للإصلاح من خارج جهازها ، وإنما لان الملابسات التي صاحبت سير البلاد إلى عصر اليقظة والتنوير قد فرضت أن يكون سيرها عبر انجازات جهاز الدولة ... " [١] ، وكان لجهاز الدولة مظالم وتجاوزات ، وكان من ابرز عيوب الدولة يومئذ أنها كانت حكومة فردية على النمط الذي ابتلى به الشرق في كثير من عصور تاريخه الطويل ، فكان الطابع الفردي طاغيا في اتخاذ القرار وتنفيذه ، وفي اختيار البدائل والمفاضلة بينها ، الأمر الذي جعل الاصلاحات احيانا مذاقا مرّ في افواه المستفيدين منها ، وقد بدا واضحا انحياز علي مبارك للنظام الجمهوري ، وللملكية المقيدة بالقوانين والشرائع من خلال ذمّه الملكية المطلقة وحكم الفرد الذي يحكم برأيه ويتصرف بهواه فيكون رأيه شريعة المملكة وحكمه قانونها [٢] ، ويمكن القول أن تقييد السلطة بالقانون ، وتقليد المناصب الحاكمة للعلماء والخبراء سيفتح باب الحرية في المجتمع واسعا امام المواطنين ، وهو الأمر الذي حبذه علي مبارك فكان من المعجبين بالنظام والحريات التي تتمتع بها باريس ، فأثمرت مجدها العلمي ورفعت صرحها الحضاري عاليا بين الامم ، وها هو يؤكد ذلك بقوله : " فلقد كانت باريز على غاية في التقدم ، وكثر فيها المؤلفون ، ورحل اليها كثير من أهل اوربا ، وخفف فيها شأن العقوبات فكان كل انسان يتكلم بحرية ، ويكتب ما شاء من احوال الخلق ، سواء كانت خصوصية أو عمومية ، سياسية أو دينية ، وظهر فيها رجال ذوو افكار ، فألفوا كتبا انتشرت في سائر الاقطار ، فانجلت عنهم غياهب الجهل ، وتميزوا على غيرهم بالعقل ! ... " [٣] .

وهنا يتبين الفكر النظري والعام لعلي مبارك في الدولة والسلطة والسلطان ، فهو مع الحكومة المقيدة بالقانون والشريعة ، وضد السلطة المطلقة والفردية ، وهو فكر نظري صاغه في ظل تجربة سياسية تميزت الدولة فيها بالجنوح الشديد إلى الحكم الفردي ، ومن ثم فانه اسهم اسهاما فعّالا وجريئا في نقد سلطة الفرد المطلقة وتقييد السلطان وسلطاته بالقانون .

---

[١] المصدر نفسه ، ص٢١٤ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٢٢١ .

[٣] علي مبارك ، علم الدين ، المسامرة الحادية والثمانون (باريس) ، ج٣ ، ص٩٧ .

وكان علي مبارك في هذا الرأي مع مصلحي عصره والجيل الذي بدأ برفاعة الطهطاوي الذين رأوا من المجتمع البرجوازي المستنير المهمة التي يجب الكفاح من اجل الانتقال بالبلاد إليها ، لان النجاح فيها يعني التخلص من بقايا العصور الوسطى ، وتحقيق النموذج الاوربي ، سواء في التنمية الاقتصادية أو الاجتماعية أو في الاستنارة والتنوير ، دونما تعارض مع المواريث الثابتة وغير الدخيلة في تراثنا الفكري والديني [١] .

المبحث الثاني : منهجيته في كتابة الخطط

لم يقتصر دور علي مبارك على الكتابة في تاريخ مصر الحديث ، بل تطرق إلى تاريخها السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، وكتب أيضا في السير والتراجم ، وتاريخ العلوم ، والآداب ، والعقائد ، والمدن ، وفي تاريخ الفنون ، وأهتم بالمراحل السابقة بالعهد الحديث فكتب في العصور الإسلامية المتأخرة ، ومن هنا نجده لم يخص هذه العصور بدراسات مستقلة ، كما فعل عند بحثه في العصر الحديث ، على الرغم من تقديره البالغ لأهمية دراسة العصور الإسلامية في مصر [٢] .

وقد كان تناوله وبحثه بالعصور المذكورة يمثل في نظره مقدمة اساسية لابد منها لدراسة أي مظهر من مظاهر السياسة والحضارة في مصر الحديثة ، إذ لا يمكن لأي باحث من دراسة تطور مصر ما لم يرجع إلى المراحل السابقة ، فكان دخوله في مجال الدراسات الإسلامية لم يكن مقصودا لذاته بقدر ما كان يمثل وسيلة لفهم ما جرى بعد العصور الإسلامية من حوادث وظواهر مختلفة ، ويعد تاريخ مصر فيما بين حكم الدولة الفاطمية وبين الاحتلال البريطاني صفحة غامضة من صفحات التاريخ فلم تترك وراءها سوى معلومات متفرقة على خلاف العصور الإسلامية التي

---

[١] محمد عمارة ، الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي (الفكر الاجتماعي لرفاعة الطهطاوي) ، ج١ ، المصدر السابق ، ص١٧٥ – ١٩٩ .

[٢] حسين فوزي النجار ، المصدر السابق ، ص٩٩ .

تركت آثارا كثيرة تدل عليها ، مع أن دراسة هذه الحقبة من الزمن مهمة جدا لانها شاهد على حالة الامة قبل سقوط دولتها ، واسباب ذلك السقوط ، وما آلت إليه من جرّائه ، كذلك أفصحت عن الأسباب التي حالت دون النهوض العربي الإسلامي من خلال هذه الحقبة الطويلة حتى النهضة العربية اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين [١] .

ولم يكن من السهل البحث في هذه الحقبة بسبب قلة المصادر وتفرقها وصعوبة الحصول عليها وكذلك صعوبة الوصول إلى المصادر ، من هنا نقدّر لعلي مبارك انه اختار الطريق الصعب في البحث التاريخي ، إذ يقول : " دعتني نفسي لتأليف كتاب وافٍ بما لمصر من قديم وحديث متضمن لذكر مبانيها الدائرة الموجودة وما يتبع ذلك من اخبار ارسابها وذكر نيلها ومنافعه وكيفية تصرفاته ومواضعه ، ولكني رأيت هذا المشروع صعب المسلك لما يحتاج إليه من مراجعة كتب كثيرة في هذا الشأن ومناظرة رسوم القديم والجديد من تلك الازمان " [٢] ،

وقد عالجت الخطط التوفيقية الكثير من الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لمصر ، ابتداءً من استيلاء الفاطميين عليها الى نهاية حكم الخديوي توفيق ، فقد تناول الجزء الاول من الخطط التوفيقية مواضيع شتى في السياسة ومن تولى حكم مصر ابتداءً من عام (٣٥٨ – ١٣٠٥هـ) ، كما تناول هذا الجزء الفتن والاضطرابات والمشاكل التي واجهتها مصر خلال تلك الحقبة [٣] .

اما الجزء الثاني فقد تناول الحياة الاجتماعية في مصر ، كذلك استعرض فيه بشكل مفصل لجميع شوارع وحارات ودروب وحمامات وما يتبع ذلك من اسواق ، كما عرض فيه لاهم الشخصيات المعروفة في تلك الحقبة ، وترجم لحياتهم بشيء من التفصيل ، وقد كانت جميع ما كتبه علي مبارك مرتبة على حروف الهجاء [٤] ، اما الجزء الثالث فقد اكمل حديثه عن الشوارع ، وكذلك الجوامع والزوايا والمدارس والاضرحة والاسبلة والكنائس والمكاتب والحمامات والوكائل والدور ، كذلك ترجم لأهم الشخصيات آنذاك [٥] .

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ص٦١ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٢ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ص٣ .

[٤] المصدر نفسه ، الجزء الثاني ، ص٢ .

[٥] المصدر نفسه ، الجزء الثالث ، ص٤ .

وخصص الجزء الرابع لذكر جوامع القاهرة بالتفصيل وحسب حروف المعجم ابتداءً من الالف وانتهاءً بحرف الراء [١] ، واما الجزء الخامس فقد اكمل علي مبارك الحديث عن الجوامع من حرف الزاي الى حرف الياء مع ترجمة لاهم واشهر الشخصيات المعروفة آنذاك ، وبهذا الجزء قد انهى علي مبارك الحديث عن ذكر الجوامع التي كانت بالقاهرة ، وبهذا الجزء يكون قد انهى علي مبارك حديثه عن مدينة القاهرة المعزية [٢] ، اما الجزء السادس من الخطط فقد كان الحديث فيه يتناول عدد المدارس والزوايا والترجمات والمساجد والخوانق والتكايا والسبل والحمامات والكنائس الموجودة في القاهرة في تلك الحقبة [٣] ، وخصص الجزء السابع للحديث عن مدينة الاسكندرية ، فيقول في هذا الصدد : " لم يوجد في البلاد من المدن الشهيرة التي حفظ المؤرخون حوادثها وقيدوها في كتبهم مثل مدينة الاسكندرية وان لم يبقى من اثارها القديمة الا القليل ، ولعل سبب حفظهم لحوادثها واطنابهم في اثارها اهمية موقعها عند من حكموا الديار المصرية " ، فقد تحدث فيه بشيء من التفصيل عن من تولى حكم المدينة من الملوك ، وكذلك الجوامع ودور بناء السفن وسكة الحديد وكذلك ترجم وافية لاعيان ووجهاء المدينة المعروفين آنذاك [٤] .

واوضح الجزء الثامن اهم المدن المصرية ، وكذلك اهم الشخصيات المعروفة من علماء دين واعيان وتجار ، مثل ترجمة الشيخ حسن الجبرتي والد المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي ، وكذلك ذكر فيه اهم العادات والتقاليد في تلك المدن وابتدء فيه بذكر جميع المدن المصرية التي تبدأ بحرف الالف [٥] ، وتطرق الجزء التاسع للمدن المصرية التي تبدء بحرف الباء ، ومن هذه المدن هي مدينة بابل المصرية ، وكذلك مدينة باقور ، ومدينة بلقس وغيرها من المدن التي تبدء بحرف الباء ، كما ترجم لرجال هذه المدن المشهورين [٦] .

واكمل علي مبارك في الجزء العاشر الحديث عن المدن التي تبدء بحرف الباء ، وفي هذا الجزء تناول حرف التاء والثاء والجيم والحاء والخاء والدال ، مثل مدينة البهنسا ومدينة التبين ، ومدينة الثعبانية ، ومدينة الجزة ، ومدينة حجازة ، وخان يونس ودار البقر ، كما وعرض لاهم الشخصيات وترجم لحياتهم ، وقد جاء في (١١٠) صفحة من القطع المتوسط [٧] ، في حين

---

[١] المصدر نفسه ، الجزء الرابع ، ص٢ .

[٢] المصدر نفسه ، الجزء الخامس ، ص٥ .

[٣] المصدر نفسه ، الجزء السادس ، ص٤ .

[٤] المصدر نفسه ، الجزء السابع ، ص٣ .

[٥] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، الجزء ٨ ، ص٤ .

[٦] المصدر نفسه ، الجزء ٩ ، ص٦ .

[٧] المصدر نفسه ، الجزء ١٠ .

خصص الجزء الحادي عشر تكملة للأحرف كالدال والذال والراء والزاي مثل مدينة الدر ، ومدينة دقهله ، ودلتا ، ومدينة ذروة ، ومدينة الراشدية ، وكذلك مدينة الزاوية ، كما ترجم لاهم الرجال في تلك المدن مثل ترجمت حياة محمد بك الالفي ، والشيخ عبد القادر الدشطوطي وغيرهم ، وقد كان في (١٠٣) صفحة من القطع المتوسط [١] ، اما الجزء الثاني عشر ، فخصصه للمدن التي تبدء بحرفي السين والشين ، مثل مدينة السجاعية ، ومدينة السرو وغيرها ، وكذلك حرف الشين مثل مدينة شابور ، ومدينة شيرى دمنهور وغيرها ، كما عرف برجال المدن التي تبدء بحرفي السين والشين آنذاك ، وكذلك ذكر العادات والتقاليد السائدة عندهم ، وقد جاء هذا الجزء في (١٥٥) صفحة من القطع المتوسط [٢] .

وجاء الجزء الثالث تكملة للحروف (الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء) ، وما هي تلك المدن التي تبدء بهذه الحروف مثل مدينة الصالحية ، ومدينة الضبعية ، ومدينة طرا ، ومدينة الظاهرية ، كما ذكر اهم الحوادث التي حصلت آنذاك واهم الرجال ، وقد جاء هذا الجزء في (٩٤) صفحة من القطع المتوسط [٣] ، اما الجزء الرابع عشر فقد خصصه للمدن التي تبدء بحرف العين والغين والفاء والقاف ، ومن هذه المدن علي سبيل المثال مدينة العائد ، ومدينة الغرافة ، ومدينة فارس ، ومدينة القلزم ، كما عرف برجال المدينة ، وما حصل في تلك المدن من الاحداث المهمة ، وقد جاء هذا الجزء في (١٤٧) صفحة من القطع المتوسط [٤] .

والجزء الخامس عشر فقد حدثنا علي مبارك عن المدن التي تبدء بحروف (الكاف ، واللام ، والميم) مثل مدينة كانوب ، ومدينة لفانه ، ومدنية مجدول ، كما وذكر اهم الاحداث التي جرت بها كركوب السلطان سليم من مصر متوجها الى القسطنطينية ، كما وترجم لاهم الرجال مثل (ترجمة لحياة المسعودي صاحب كتاب مروج الذهب) ، وترجم لحياة الشيخ محمد المرصفي وابنه الشيخ احمد الجلبي وغيرهم كثيرون ، وقد تالف هذا الجزء من (١٠٥) صفحة من القطع المتوسط [٥] ، ويعرف في الجزء السادس عشر اهم المدن التي تبدء بحرف الميم فقط ، مثل مدينة منف وتاريخها القديم ، كما وتناول في هذ الجزء عن الاهرام ومأخذها واسمائها ، ومن قام ببناء الاهرام وفي تاريخ بناءها وعددها وكل ما يتعلق بها من تفاصيل ، كما ترجم للكثير من رجالات

---

[١] المصدر نفسه ، الجزء ١١ .

[٢] المصدر نفسه ، الجزء ١٢ .

[٣] المصدر نفسه ، الجزء ١٣ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، الجزء ١٤ .

[٥] المصدر نفسه ، الجزء ١٥ .

المدن التي تبدء بحرف الميم المشهورين آنذاك مثل ترجمة لحياة احمد باشا الخائن وسبب قتله ، وكذلك ترجم لحياة الشيخ محمد العروسي ، والشيخ مصطفى العروسي ، واهم الاحداث التي حصلت ، وقد جاء هذا الجزء في (٩٥) صفحة من القطع المتوسط [١] .

اما الجزء السابع عشر فقد تحدث فيه عن المدن التي تبدء بحروف (النون ، والهاء ، والواو ، والياء) ، مثل مدينة نارادوس ، ومدينة الهلة ، ومدينة الوراق ، وقرية اليهودية ، وكذلك وصف لنا ما كان في هذه المدن من اثار ، وذكر لنا القبائل في هذه المدن ، وقد جاء هذا الجزء ليكمل فيه علي مبارك ذكر جميع ما كان في مصر من مدن وقرى وضواحي ، وقد تكون هذا الجزء من (٦٩) صفحة من القطع المتوسط [٢] ، في حين اورد في الجزء الثامن عشر مقاييس النيل منذ ايام قدماء المصريين ، فقد تكلم فيه عن اقدم مقياس عمل في زمن سيدنا يوسف (عليه السلام) وكذلك ذكر المقاييس التي عملت للنيل منذ اقدم الازمنة ولغاية عصر علي مبارك ، كما ذكر فيه مواسم الفيضانات وما يتعرض له النيل من حوادث ، كما تكلم عن وصف السفن في النيل ، وقد جاء هذا الجزء في (١٣٩) صفحة من القطع المتوسط [٣] .

اما الجزء التاسع عشر فقد خصصه علي مبارك للترع والرياح ومنشات الري في مصر انذاك ، اذ يقول : " ان هذا الجزء للرياحات والباصر والخلجان والترع بالمديريات بالوجه البحري والقبلي لوادي النيل بمصر " ، وكذلك بيان مناسيب هذه الرياح ، ومن هذه الترع مثلا ترعة القاصد ، وترعة سميم وغيرها ، وكذلك فصل لنا الترع في المديريات الاتية : (مديرية القلوبية) ، و (مديرية الشرقية) ، و (مديرية الدقهلية) ، و (بيان الترع والاباصر في مديرية البحرية) ، و (مديرية قنا) ، و (مديرية جرجا) ، و (مديرية اسيوط) ، و (مديرية بني سويف) ، و (مديرية الفيوم) ، واخيرا (مديرية الجيزة) ، وقد تكون هذا الجزء من (١٤٧) صفحة من القطع المتوسط [٤] ، وتكفل الجزء العشرون بدراسة الدراهم والدنانير وشكل النقود وهيئاتها وما يتبع ذلك قديما وحديثا ، اذ شرح فيه شكل النقود ، كما فصل في الصور والكتابة التي ترسم وتنقش على النقود الاسلامية ، كذلك تطرق الى موضوع ضرب النقود بالاسلام ، كما وضع جداول بقيمة العملة آنذاك مع العملات الاجنبية الاخرى ، كما بين اختلاف قيم النقود وغيرها وبين اثمانها

---

[١] المصدر نفسه ، الجزء ١٦ .

[٢] المصدر نفسه ، الجزء ١٧ .

[٣] المصدر نفسه ، الجزء ١٨ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، الجزء ١٩ .

والغلاء والرخاء على تعاقب السنين من عام (٨٧هـ / ١٢٩٦هـ) ، وقد جاء هذا الجزء في (١٧١) صفحة من القطع المتوسط [١] .

وباستقراء التوليفة الجمعية للخطط نجد انها تمحورت في عدة اتجاهات علمية من خلالها اعطي علي مبارك تصورا علميا للجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية لمصر الحضارة التي عبر عنها عبر الاجزاء بتاريخ المدينة اولا ثم تاريخ الظواهر الاخرى ثانيا وهي كالاتي :

١. التاريخ السياسي :

نتيجة للدراسة التي قضاها في فرنسا ، فكان من الطبيعي ان يكون لها اثرها في كتاباته التاريخية بالرغم من تخصصاته العلمية الصرفة ، فالمنهج العلمي الذي درسه ، قد اثر في معالجه للجوانب الفكرية في كتابة التاريخ ومن بين تلك المعالجات السياسية ، فهو قد ارخ للتاريخ السياسي لحكم الدولة الفاطمية ، وبمجيء الفاطميين عام (٣٥٨هـ) استقلت مصر استقلالا تاما ، وصارت القاهرة عاصمتهم ومقر الخلافة .

وكانت الادارة في عهد الفاطميين تدار بواسطة الدواوين التي يطلق عليها اسم (الوظائف الديوانية) ، اذ استعان الخليفة الفاطمي في ادارة مصر بحكومة معقدة التركيب ، كثيرة الدواوين ، ذات عدد كبير من الموظفين وعلى راسهم (الوزير) ، فمن دواوين الحكومة الفاطمية آنذاك ، ديوان الانشاء (اشبه بوزارة الخارجية في وقتنا الحاضر ، وديوان بيت المال ، وديوان الجيش ، وديوان الاحباس ، وديوان الرواتب ، وديوان خزائن الكسوة والطراز [٢] .

واخذ الفاطميين بمبدأ نظام الوراثة منذ نشأت دولتهم ، اي انتقال الامامة من الاب الى الابن ، لكن بعض الاحداث حملتهم على الخروج عن هذا المبدأ ، فحاول الخليفة بأمر الله ان يحرم ابنه ابا الحسن علي الذي تولى فيما بعد باسم الظاهر ، وعهد بها الى ابن عمه ، لكن هذه المحاولة فشلت وخلفه ابنه الظاهر [٣] ، وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بالقاب كثيرة منها (الخليفة الفاطمي ، او العلوي ، او امير المؤمنين) ، كما ويعد الخليفة راس الدولة ، فتشمل سلطته السياسية قيادة الجيش ، وهو راس السلطة التنفيذية الذي يعين الوزراء والولاة الامراء وسائر الموظفين ، ويقطع الاقطاعات ، وهو القاضي الاعلى (راس القضاء) ، كما تركز سيادته الدينية بذكر اسمه على المنابر ونقش اسمه على السكة والطراز ، وتسمى الوزارة عند الفاطميين (بالرتبة)

---

[١] المصدر نفسه ، الجزء ٢٠ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٤-٨ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٨ .

فيقول علي مبارك : " ان الوزارة في الدولة الفاطمية كانت في ارباب السيوف تارة وفي ارباب الاقلام تارة اخرى " [١] .

وكانت مدة استيلاء الفاطميين على ارض مصر (٢٠٩) عام ، وذلك من مدة دخول جوهر القائد [٢] ، وتأسيسه مدينة القاهرة عام (٣٥٨هـ) الى انقراض دولتهم بموت اخر خلفائهم عام (٥٦٧ هـ) ، فاصبح عدد خلفائهم احد عشر خليفة ، بعد تعرضت مصر خلال مدة حكمهم الى الكثير من الحروب التي خاضها الخلفاء الفاطميين بسبب الاضطرابات والفتن التي تحصل آنذاك [٣] ، ولم تكن هناك رؤية علمية تتطرق للنظام السياسي وطبيعته وتركيبته السياسية في عهد الدولة الفاطمية ، كذلك لم نرى تحديد المرجعية السياسية لنظام الحكم في الدولة الفاطمية ، اكتفى بعرض نظام الدولة المتمثل بالخليفة ومن يساعده ، فقد كان للخليفة شخص يساعده في إدارة أمور الدولة ، ويدعى هذا الشخص (الوزير) إذ تقع على عاتقه مهمة إدارة الدولة من جميع الجوانب .

وعند زوال الدولة الفاطمية استقرت بمصر (الدولة الايوبية) التي هي دولة الاكراد [٤] ، اذ دبت الخلافات والتناحر في مصر وكان منصب الوزارة في الدولة الفاطمية محط انظار عدد من قادة الجيش الذين تنافسوا للحصول عليه ، مما ادى بهم الى الاستنجاد بالدول الاخرى ، فاحدهم استنجد بملك دمشق الذي يدعى (نور الدين زنكي) ليعيده الى منصبه ، واستنجد الاخر بملك بيت المقدس الصليبي الذي يدعى (عموري) ، واستجاب كل من نور الدين محمود زنكي وعموري نداء من استنجد بهم ، فارسل نور الدين عام (٥٥٩هـ) حملة من دمشق بقيادة اسد الدين شيركوه ، ومعه ابن اخيه صلاح الدين الايوبي ، وكان في السابع والعشرين من عمره ، وكان احد قادة الجيش في دمشق ، وحضر الصليبيون الى مصر بقيادة (عموري) ، وتتابعت الحملات على مصر من نور الدين وعموري .

---

[١] المصدر نفسه ، ص١٠-١٤ .

[٢] جوهر القائد : وهو قائد عسكر الفاطمية الذي سار بهم إلى ساحل الفسطاط يوم الثلاثاء الموافق ١٧ شعبان عام ٣٥٧هـ ، ونزل بحري الفسطاط في الارض التي فيها اليوم الجامع الازهر وبيت القاضي ، لمزيد من المعلومات ينظر : علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج١ ، المصدر السابق ، ص٤ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٨-٢٢ .

[٤] الايوبيون : او بنو ايوب ، هي اسرة حكمت اجزاء واسعة من المشرق العربي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، وقد تأسست الدولة الايوبية على يد السلطان صلاح الدين الايوبي في مصر ثم امتد حكمها الى اجزاء واسعة من الشام والحجاز وشمال العراق وجنوب اليمن وجنوب تركيا . لمزيد من المعلومات ينظر : علي مبارك ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٢ .

وارسل نور الدين عدة حملات حتى بلغ عددها ثلاثا ، وانتهى الامر بهزيمة الصليبيين وانتصار جيش نور الدين زنكي ، والقضاء على الوزيرين المتنافسين ، وتقليد اسد الدين شيركوه منصب الوزارة في (٥٦٤هـ) ، واصبح اسد الدين الحاكم الفعلي بالبلاد بعد ان اختاره العاضد وزيرا له ، ولقبه بالملك المنصور امير الجيوش ، وقلده جميع امور الدولة واظهر براعة في الحكم ، واستطاع ان يقبض على زمام الامور وان يوزع الاقطاعات على عساكره غير انه توفي بعد ان ظل في منصبه ما يقرب من ثلاثة اشهر ، وخلفه في منصبه ابن اخيه صلاح الدين الايوبي ، واستطاع صلاح الدين الايوبي انتزاع الخلافة من الفاطميين فنجح في عرقلة هجوم الصليبيين عام (٥٦٤هـ / ١١٦٩م) ، كما فرض نفسه وزيرا للعاضد الخليفة العاجز آنذاك ، فكان صلاح الدين هو الحاكم الفعلي للبلاد ، كما انضم اليه عدد من ابناء عشيرته من الشام ، وبهذا وضعت اركان الدولة الايوبية وتأسست فعليا ، وذلك عام (٥٦٧هـ / ١١٧١م) ، كما دعا خطباء الجوامع في القاهرة والفسطاط بإسقاط اسم العاضد من الخطبة ، وذكر اسم الخليفة الايوبي محله ، معلنا بذلك نهاية الخلافة الفاطمية ، وتبعية مصر للخلافة الفاطمية [١] .

وتولى الملك منهم بمصر ثمانية سلاطين ، ومدة ملكهم (٨٢) عام ، وبعد ان استقر الملك لهم ازالوا كل شعارات الفاطميين واباحوا سكنى القاهرة للخاص والعام ، وهدموا حارات العبيد ، واستمروا بالحكم الى عام (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) وكان نظام الحكم عندهم وراثيا [٢] ، ولما زالت دولة بني ايوب خلفها دولة (المماليك البحرية) [٣] وسموا بالمماليك لانهم مماليك الصالح نجم الدين ايوب كانوا معه في سجنه بالكرك وبقوا معه حتى خلص من سجنه في (١٧ رمضان ٦٣٧هـ) ، فلما ملك مصر دعاهم حين تفرق الاكراد وسماهم (البحرية) من اجل ذلك ، وكانوا نحو الالف كلهم اتراك ، وبدئوا حكمهم لمصر عام (٦٤٨هـ) ، اذ تولى الملك منهم على مصر عشرين ملك [٤] .

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٣-٢٤ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ص٢٥ .

[٣] المماليك : وهم من الرقيق البيض من اسرى الحروب أو الذين تم شرائهم من اسواق العبيد ، وتعود اصولهم إلى منطقة بحر قزوين وبلاد الكرج وجورجيا ، وقد جلبت اعداد كبيرة منهم إلى بلاد الشام ومصر ، فتغلغلوا في الكثير من الدول الإسلامية واستطاعوا من فرض سيطرتهم على بعض المدن المصرية . للمزيد من التفاصيل ينظر : وليد موير ، تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة محمود عابدين ، وسليم حسن ، (القاهرة ، ١٩٢٤) ، ص١٩٤ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٠-٤١ .

وكانت الدولة المملوكية منظمة من الناحية الادارية ، اذ ادخل المماليك اساليب جديدة للادارة ومصطلحات لم تكن موجودة في مصر ، فكان السلطان على قمة هرم السلطة ، وكان السلطان يرأس الدولة بتفويض من الخليفة العباسي في القاهرة انذاك ، وعندما حاصر التتار بغداد واحتلوها وقتلوا الخليفة المستعصم (ولي الظاهر بيبرس) الخلافة بدلا عنه في القاهرة لكي يعطي المماليك الشرعية في الحكم ، وبتفويض من الخليفة اصبح السلطان في يده كل شيء ومعه كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، فكان السلطان يعتمد في ذلك على قوة مماليكه وولائهم له وقدرتهم على كبح جماح مماليك الامراء الاخرين .

فلم تكن السلطنة في العصر المملوكي بالتوريث ولكن كان هناك ابناء سلاطين يورثوا الحكم ، اذ كانت العادة تحتم ان يجلس اولاد السلاطين على الحكم الى ان تهدأ الامور وبعد ذلك يخلعوا ويجلس بدلا عنهم امير قوي ، فقد كان نائب السلطان الحاكم الفعلي للبلاد ، فلم تكن السلطنة بالتوريث ولا بالتفويض الشعبي بل كانت بالتنافس على القوة وكثرة المماليك والسلاح والاقطاعيات [١] ، وكانت مصر في العصر المملوكي مقسمة الى عشرين قسم كل قسم يتولاه والي او امير ، وكان الوالي عبارة عن سلطان للمنطقة التي يحكمها ، وكان يطلق عليه اسم والي الشرطة او والي الحرب .

وقد كان للمماليك دور كبير ومهم في مصر في صد الغزو الصليبي ، اذ ظهر الصليبيين في المنصورة فهم المماليك ومعهم الاهالي وقد تصدوا لهم ولاحقوهم بنجاح واستطاعوا طردهم من المنطقة [٢] ، وقد آلت السلطة بعد زوال دولة المماليك البحرية إلى دولة (المماليك الجراكسة) وذلك عام (٧٨٤هـ) ، وسموا بذلك نسبة إلى ملكهم السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن آنص ، وهو جركسي الجنس ، أُخذ من بلاد الجركس وبيع في بلاد القريم ، وقد حكم مصر منهم خمس وعشرون سلطان ، واستمر ملكهم إلى عام (٩٢٣هـ) [٣] ، وبذلك فقد حكموا مصر ما يقارب (١٢١ عام) .

واستولت على مصر بعد انتهاء دولة المماليك الجراكسة الدولة العلية العثمانية، إذ حضرت عساكر العثمانيين بعد أن ضعفت سلطة الجراكسة على مصر ، إذ كانت الفتن قائمة بين مصر والدولة العلية ، وحضرت العساكر العثمانية عام (٩٢٣هـ) واشتعلت نيران الحرب بينهم ، وكانت مدتها أربعة ايام قتل فيها نحو عشرة الالف نفس ، ولمّا تم الأمر للعثمانيين واستولوا على مصر

---

[١] المصدر نفسه ، ص٤١ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٤١-٤٢ .

[٣] المصدر نفسه ، ص ٤٠ – ٥٥ .

اخذوا يفتشون على امراء الجراكسة فكل من وجدوه منهم قتلوه ونهبوا منزلة ، ومكث السلطان سليم بالديار المصرية ثمانية شهور يرتب امورها ويمهد قواعدها ثم بعد ذلك رحل إلى القسطنطينية [١] ، ولم تنتهي الفتن والاضطرابات في مصر بدخول العثمانيين اليها ، وانما استمر هذا الحال إلى أن دخلت عام (١٠١٧هـ) فحصلت (وقعة الصناجق) [٢] ، وكذلك (وقعة الزرب) [٣] ، ولم تتوقف الامور عند هذا الحد وانما حدثت عام (١١٩٩هـ) كارثة عمت مصر وهي مرض الطاعون فكانت هذه الايام ليس لها مثيل في الشدائد ، لما حصل فيها من الغلاء والفناء والفتن وقصور النيل وتواتر المصادرات والمظالم ، حتى هلك الحرث والنسل وقلّ الزرع واشتد الكري وتشتت الفلاحين حتى خربت اغلب بلاد الريف ، وتطرق علي مبارك لأوضاع مصر عند تعرضها للغزو الفرنسي ، وما حصل بها من جرّائه من تدهور وانهيار ، وذلك في عام (١٢١٣هـ / ١٧٩٨م) ، وقد كانت للحملة الفرنسية على مصر دوافع كثيرة جاء في مقدمتها الدوافع الاقتصادية ، اذ تمثل مصر بالنسبة للفرنسيين سوقا واسعا لتسويق وتصريف الفائض من الزيادة الهائلة في الانتاج ، فضلا عن انها ملتقى تجارات القارات الثلاث اسيا وافريقيا واوربا ، فضلا عن انها نقطة ارتكاز مهمة لضرب المصالح التجارية لبريطانيا في الهند [٤] .

وكانت هناك دوافع اخرى تتعلق بمصر نفسها ، ومنها ان احوال مصر الداخلية كانت تسير نحو الارتباك والتعقيد والاضطراب ، نتيجة تعسف الحكام المماليك وكثرة مظالمهم ونهبهم الاموال ، وتجاوزاتهم على التجار الاوربيين ، فأخذت فرنسا تحث سفرائها في استانبول لرفع شكاوى

---

[١] السلطان سليم : وهو السلطان العثماني (١٧٨٩ – ١٨٠٧م) ولد عام ١٧٦٢م ابن السلطان مصطفى الثالث ، تسلم عرش السلطنة اثر وفاة عمه السلطان عبد الحميد الاول ، وخلع عن العرش عام ١٨٠٧م . للمزيد من التفاصيل ينظر : هاملتون جب و هارولد يوين ، المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة : عبد المجيد القيسي ، (دمشق : دار المدى للثقافة والنشر ١٩٩٧م) ، القسم الاول ، ص٣٩٠ .

[٢] وقعة الصناجق : وهي وقعة هائلة حدثت عام ١٠١٧هـ في مصر انقسم فيها الامراء احزابا واشتعلت نيران الحرب في شوارع القاهرة وضواحيها وامتد ذلك إلى الاقاليم القبلية وجهز فيها الباشا الوالي عدة تجاريد حتى انتهت بقتل اغلب الامراء الفقارية نسبة إلى رئيسهم ذو الفقار وكان والي مصر آنذاك عمر باشا . لمزيد من التفاصيل ينظر : علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٧ .

[٣] وقعة الزرب : قام بها قوم حضروا من الشام اغلبهم اروام ودروز فانخرطوا في سلك العسكرية ، ووصل بعضهم إلى مناصب سامية ، وانظموا إلى محمد بيك حاكم جرجا ، وصاروا انصاره واخذوا في ظلم الناس واكثروا السلب والنهب حتى اشتكاهم الناس للوالي ، فاضطر إلى محاربتهم بالمدافع رغم تحصنهم وقاتلهم قتالا شديدا ، وكان ذلك عام ١٠٧٤هـ في عهد عمر باشا . لمزيد من التفاصيل ينظر : علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٧ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٦٠ – ٦٣ .

الى السلطان العثماني وطلبوا منه وقف تلك التجاوزات ، ، كما ارادت فرنسا ان تنتقم من المماليك الذين عملوا على تقريب البريطانيين على الفرنسيين ، فضلا عن رغبة فرنسا في ان تصبح مصر مستعمرة تابعة لها كما هو الحال بالنسبة لبريطانيا في مستعمرتها الهند [١] ، ويقول علي مبارك في هذا الصدد : " لم تمكث الفرنساوية بالديار المصرية زمنا طويلا فان مدتهم لا تزيد على ثلاث سنين ومع ذلك حصل فيها حوادث شتى وخرب بسببها كثير من بلاد الاقليم وتهدم كثير من دور القاهرة وفارقها كثير من السكان " [٢] .

وقد دخل الفرنسيون في محرم ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م الى ثغر الاسكندرية وبعد مناوشات حصلت بينهم وبين السلطان المملوكي مراد بيك ، تمكنوا خلالها من مطاردته في قرية الرحمانية من مديرية البحيرة انهزم على اثرها مراد بيك وحضر الى الانبابة وعمل بها متاريس ، وحضرت الفرنساوية في اثره وهجمت على تلك المتاريس ، واستمرت هذه المناوشات ثلاث ارباع الساعة تمكن خلالها الفرنسيين من السيطرة على الاسكندرية ، وبعدها تحركوا باتجاه القاهرة ، لكن الفرنسيين واجهوا مقاومة عنيفة ، منذ ان وطأة اقدامهم ارض مصر ، وقد تجلت تلك المقاومة في ابهى صورها وتوجت بقيام ثورتي القاهرة الاولى والثانية [٣] .

وقامت الكثير من الثورات ضد الفرنسيين وكان من اهمها ثورة (القاهرة الاولى) التي قامت في (٢١ تشرين الاول ١٧٩٨م) فكانت لها دوافع كثيرة ، ومنها الضرائب التي قام نابليون بفرضها والتي اثقلت كاهل الناس وعجزوا عن دفعها ، الى جانب اهمال الديوان من جانب نابليون الذي شرع في تأليف ديوان اخر ، استبعد منه علماء الدين من اجل ابعادهم عن شؤون السياسة خشية من ازدياد شوكتهم ومن بعدهم الشعب ، كما عمد نابليون الى عدم اشراك الشعب في الديوان الذي انشأه ، فشعر الشعب بالهوان وفقدان حقوقه ، فضلا عن الممارسات التي يقوم بها الفرنسيون من نهب وسلب ومصادرة دور المماليك وابناء الشعب ، وتماديهم في قتل من يخالفهم بالراي [٤] .

ويرى علي مبارك انها ثورة عفوية وتفتقد الى الكثير من المقومات الاساسية في التنظيم ، الا انها تعد نذير للفرنسيين بظهور بوادر الوعي القومي عند الشعب ودرسا عرفوا من خلاله انهم معرضين في اي وقت الى الجهاد ، اما الثورة الثانية التي قامت في مصر فهي ثورة القاهرة الثانية

---

[١] هربرت فشر ، تاريخ اوربا في العصر الحديث ، ترجمة : وديع الضيع وهاشم احمد نجيب ، دار المعارف (مصر – ١٩٦٤) ، ص٥٣ ؛ علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٦٠-٦٣ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٦١ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ص٦٠ .

[٤] المصدر نفسه ، ص٦١ .

التـــي انطلقـــت شـــرارتها مـــن حـــي بـــولاق فـــي (٢٠ اذار ١٨٠٠م) ، وانتهـــت هـــذه الثـــورة بهزيمـة الثوار ، بسبب تفوق المحتل بالعدة والعدد ، وكذلك تامر المماليك ضدهم وتعاونهم مع الفرنسيين ، وعلى الرغم من استبسال اهالي القاهرة في الدفاع عنها ووقوفهم صفا واحدا فان قوة الاسلحة الحديثة هي التي صنعت النصر للفرنسيين [١] .

وقد اثارت الحملة بعنف وهزت من الاعماق الحس الوطني والمشاعر القومية لدى المصريين خاصة والعرب عامة ، وحرضتهم ضد السلطة الحاكمة المتمثلة بالمماليك والعثمانيين ، وادت الحملة الفرنسية الى اصطدام قيم وانظمة المجتمع المصري التي كان قد حافظ عليها حتى نهاية القرن الثامن عشر بالعادات والتقاليد الاوربية ، بحيث ايقظت الاذهان الى انماط جديدة في الحكم ، وتفاعلت التغييرات منذ اول يوم نزلت فيه الحملة ارض مصر التي تمثلت بالمقاومة الشعبية المصرية للمحتل ، وهذا ما يدل على الروح الوطنية للمصريين ، اذ اصبح للمصريين ثقة بانفسهم لمواجهة الحاكم حق اختيار حاكمهم وتحديد نسبة الضرائب المفروضة عليهم والعمل برايهم ، ونجحت ارادة الراي العام في فرض تنحية الوالي العثماني وتولية محمد علي عام (١٨٠٥ – ١٨٤٠م) .

ولم يهدأ حال القاهرة بخروج الفرنسيين ، بل عم التعب والاضطراب جميع الخلق وتخرب الكثير من منازل القاهرة وضواحيها وقاسى الناس ولاسيما التجار من الغرامات والكلف ما لا يمكن وصفه إلى أن صدر الأمر بتولية المغفور له (محمد علي باشا) عام (١٢٢٠هـ) ، وكان قد تولى قبله اناس كثيرون ، ولكنهم لم يستطيعوا فرض الامن والاستقرار على البلاد [٢] ، واما النظام السياسي في عهد محمد علي باشا ، فقد ادرك محمد علي انه لا يمكن قيام دولة قوية إلا بوجود حكومة مركزية قوية ، ويقف عائق امام الحكومة هم المماليك ، وتم القضاء عليهم بمذبحة القلعة [٣] ، ثم بعد ذلك بدء يطبق النظام السياسي للدولة ، وجاء علي مبارك بشيء من التفصيل عن ولاية محمد علي باشا على مصر من عام (١٢٢٠ – ١٣٠٥هـ) (١٨٠٥ – ١٨٤٨م) ، وما تخلل ذلك من احداث وعوامل اسهمت في تثبيت دعائم الدولة فجاء موضحا بالتفصيل شكل الادارة ونوع الحكم وطبيعة التنظيم في مصر زمن محمد علي باشا ، وقد احدث محمد علي باشا

---

[١] المصدر نفسه ، ص٦٢ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوقيفية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٦٢ – ٦٣ .

[٣] مذبحة القلعة : وقعت هذه المذبحة عام ١٨١١م بين محمد علي باشا والمماليك في مصر وادت الى انتصار محمد علي على المماليك ، ينظر : عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، ج١ ، المصادر السابق ، ص٢٣ .

نهضة داخلية شملت جميع نواحي الحياة الادارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وقد ايقن منذ البداية اهمية القوة العسكرية ، من اجل الحفاظ على دعائم دولته ، كذلك كان يفكر منذ البداية في كيفية تكوين كيان عربي يتمثل بامبراطورية عربية بعيدة عن الامبراطورية العثمانية [١] .

ويرى الدكتور (احمد عزت عبد الكريم) أن محمد علي باشا قد عانى كثيرا وهو يتلمس الأدوات الصالحة لمعاونته في عملية البناء ، إذ كان يتلمسها في رجال من العهد القديم ، وكان يتلمسها في اخلاط من الغرباء الذين يتوسم فيهم المعرفة أو الخبرة من الاوربيين والارمن وغيرهم [٢] ، وقد ادرك أن البناء لن يقوى على رفعه إلا اهله ، فعمل على تكوين الادوات والاجهزة الصالحة للعمل من بين المصريين انفسهم ، فأنشأ المدارس ، كما انشأ الجيش ، وعلى هاتين القاعدتين (المدارس ، والجيش) المتمثلتان بالعلم والقوة ، قامت النهضة المصرية في القرن التاسع عشر ، ومنذ تقلد محمد علي باشا السلطة على مصر في (صفر ١٢٢٠هـ / ١٣ ايار عام ١٨٠٥م) بإرادة من زعماء الشعب ، لم ترسخ قدمه في الحكم بمجرد مبايعته أو صدور الفرمان المؤذن بتوليته ، فان الدسائس كانت تحيط به من كل جانب ، فكان الانكليز يسعون بمختلف الوسائل لرد السلطة إلى (محمد بك الألفي) [٣] ، وسعى العمال البريطانيون في الاستانة لدى الباب العالي في اسناد حكم مصر إلى (محمد بك الالفي) ، وقناصلهم في مصر يمدون المماليك بالمعونة ويحركهم الطمع في نفوسهم ويلقون في روعهم أن بريطانيا لا تدع صنائعها ولا تتخلى عنهم ، والمماليك من جهتهم كانوا يجمعون جموعهم لمحاربة محمد علي باشا [٤] ، وكانت الدولة العثمانية قد أصدرت فرمانا لبت به نداء الشعب المصري يقضي بعزل الوالي الذي ثار عليه الشعب وهو (خورشيد باشا) ، وتعيين محمد علي باشا واليا مكانه ، وقد اوفدت رسول يحمل فرمان التعيين ، إذ لم يكن هذا دليلا على اخلاص الباب العالي نحو مصر ، بل كان حلاً مؤقتاً تتفادى به ثورة الشعب المصري إلى أن تحين الفرصة لإعادة سيطرتها على مصر [٥] .

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٦٤ .

[٢] احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في مصر ، المصدر السابق ، ص ١ – ٩ .

[٣] محمد علي الالفي : وهو احد زعماء المماليك الذين تحالفوا مع بريطانيا من اجل فرض النفوذ والاستئثار باكبر قدر من النفوذ في مصر،وفي وقت كانت تعيش حالة من الفوضى والاضطراب السياسي اثر خروج الفرنسيين منها خلال المدة (١٨٠١ – ١٨٠٥) . لمزيد من المعلومات ينظر : عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٤٧ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٦٤ .

[٥] عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، دار المعارف ، (القاهرة ط٥ ١٩٨٩) ، ص٢٨ .

وأرسلت الدولة العثمانية بعد ذلك (قبطان باشا) في حملة عسكرية ، ليراقب الحالة في مصر ، ويتخذ من القرارات النهائية ما يجده لمصلحة الباب العالي ، إذ وصل (قبطان باشا) إلى مصر في (١٧ تموز عام ١٨٠٥م) ، في حين كان (خورشيد باشا) معتصما في القلعة ، وكانت مهمة (قبطان باشا) إخراج (خورشيد باشا) الوالي المعزول من القلعة ، إذ أن حكومة الباب العالي خولته السلطة المطلقة في تثبيت محمد علي في الولاية أو عزل عنها ، واخذ محمد علي باشا بالجد والحزم والتصدي لحل تلك المشاكل والفتن المتطاولة فشرع في استحالة قلوب مشايخ الازهر كالسيد (عمر مكرم ، والشيخ عبد الله الشرقاوي ، والدواخلي) حتى صاروا معه فجعل يحل عقد المشاكل بهم ، ويستعين برايهم على مهمات النوازل ، ولم يزل يعالج الامور بعقل ثابت وسياسة تامة حتى تفرد بالسلطة [١] ، ويتبين مما سبق أن زعماء الشعب وعلى رأسهم السيد (عمر مكرم) [٢] كان لهم نفوذ فعّال في ادارة الحكومة ، وقد عظم نفوذ السيد (عمر مكرم) في تلك السنوات ، ولا غرو فهو الذي اجلس محمد علي باشا على عرش مصر ، وكان في السنوات الأولى من حكمه احد أركان ذلك العرش [٣] ، وبعد تولي محمد علي باشا وانفراده بالحكم وتخلفه عن العهود والمواثيق التي اقسم على احترامها ، كان عليه أن يزيح (عمر مكرم) ثم نفيه إلى دمياط وطنطا ، فقد وجد محمد علي تشجيعا وتأييدا من مشايخ الأزهر للخلاص من (عمر مكرم) مقابل إنعامات يفرقها عليهم ، ثم بعد ذلك استردها منهم بعد أن استخدمهم في التآمر على زعيمهم ، وعندما ذهبوا إليه محتجين على إلغاء امتيازاتهم لم يجدوا منه سوى الطرد والاهانة [٤] .

وعندما نبحث في (تاريخ الجبرتي) عن سر ابعاد الزعيم (عمر مكرم) عن الحكم ، فاننا لا نجد جوابا واضحا رغم انه كان شاهد عيان على العصر ، بل نجده يبدي ارتياحا لإبعاد الزعيم عن الحياة السياسية بعد انقلاب محمد علي عليه ، لان (الجبرتي) كان ينقم على محمد علي إلغاء الامتيازات التي كان الجبرتي يتمتع ببعضها ، فقد انسجمت هذه النقمة على (عمر

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٦٥ .

[٢] عمر مكرم : (١٧٥٠-١٨٢٢) ولد في مدينة اسيوط ، وتعلم وتخرج في الازهر الشريف وكان اول ظهور له في ميدان السياسة عام ١٧٩١م ، كان له حضور كبير بين الناس ، حيث اصبح فيما بعد رجل الشعب الاوحد ، واحد من مشايخ الازهر الشريف في فترة دخول الفرنسيين الى مصر وعندما جاء محمد علي الى الحكم تنكر لوعوده التي قطعها للشعب فاصبح بينه وبين عمر مكرم عداوة ، ومن ثم عزله من منصبه ونفيه الى دمياط= =ومات هناك ، لمزيد من المعلومات ينظر : محمد فريد ابو حديد بيك ، زعيم مصر الاول السيد عمر مكرم ، دار الهلال ، مصر ، د.ت ، ص٥٣ .

[٣] عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، المصدر السابق ، ص٣٣ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص١٦٨ .

مكرم) لأنه في رأيه سبب البلوى التي جاءت بهذا الجندي الألباني إلى قمة الحكم ، ويرى المؤرخ (عبد الرحمن الرافعي) في تاريخه للحركة القومية أن محمد علي هو اول من استعان بالعامل القومي الذي ظهر على مسرح الاحداث السياسية ، وهو ثمرة من ثمرات الحركة القومية ، ودور من ادوارها التاريخية ، فقد اقترن ظهوره بظهور العامل القومي ، وكانت ولايته نتيجة لاختيار وكلاء الشعب ، ومناداتهم به واليه مختارا على مصر ، فقد برهن محمد علي بعد توليه الحكم بأنه اكبر صرح في القومية المصرية [١] .

ويعترف الرافعي هنا بان عصر محمد علي يمثل صفحة مجيدة من صحائف الحركة القومية ، ففيه نشأت الدولة المصرية الحديثة ، وفيه تحقق الاستقلال القومي ، وشيدت الدعائم الكفيلة بالقيام به ، وفيه تأسيس الجيش المصري الحديث ، والأسطول المصري ، والثقافة المصرية ، وفيه وضعت أسس النهضة العلمية والاقتصادية للبلاد، فهو عصر استقلال وحضارة وعمران[٢] .

وتناول علي مبارك في خططه موضوع الاتفاقيات والمعاهدات التي حصلت في عهد محمد علي التي كان أهمها (معاهدة كوتاهيه) ، إذ وقّعت هذه المعاهدة في (٤ ايار ١٨٣٣م) بين الدولة العثمانية ومصر ، إذ اصدر السلطان العثماني فرمانا ثبّت فيه حقوق محمد علي على مصر ، والجزيرة العربية ، والسودان ، وكريت ، وعيّنه حاكما على فلسطين ، وسوريا ، وكيليكيا ، وكان على محمد علي الجلاء عن الاناظول والاعتراف بسيادة السلطان العثماني ، وبذلك بقيت مصر تابعة للباب العالي [٣] .

وتناول بالبحث بعد ذلك معاهدة لندن ، إذ وقّعت انجلترا ، والنمسا ، وروسيا، وبروسيا ، وكذلك الدولة العثمانية على الاتفاقية التي قررت مصير محمد علي وممتلكاته ، وذلك في (١٥ تموز عام ١٨٤٠م) ، إذ طلبت الدول الكبرى من محمد علي قبول شروط اتفاقية لندن التي تتمحور حول الاتي [٤] :

١. تسلم محمد علي مقاليد الامور في مصر كملك وراثي .
٢. إناطة إدارة فلسطين (ولاية عكا) به كملك عليها مدى الحياة .

---

[١] عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٥ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٣٦ – ٣٧ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٥ ؛ لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، ، المصدر السابق ، ص١٢٩ .

[4] Henry Dod well, the founder of Modren Egypt : Astudy of Muhammad Ali , Cambridge : University press, 1967. p 10 .

وينظر : احمد عزت عبد الكريم ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، المصدر السابق ، ص٢٢٨ .

٣. إعادة جميع الممتلكات الأخرى إلى السلطان العثماني .

٤. في حالة عدم موافقة محمد علي على الشروط المقترحة خلال عشرة ايام يحتفظ بمصر وحدها .

٥. أن لم يوافق خلال عشرين يوما على هذه الشروط يُعمل على عزله [١] .

وتحدث علي مبارك عن آخر حقبة لحكم محمد علي باشا ، إذ اعتراه المرض الشديد حتى منعه عن القيام بشؤون القطر والنظر في احواله ، فجلس بعده على تخت الحكومة المصرية اكبر اولاده وهو (إبراهيم باشا) فصار خديويا بعده ، وجاء الفرمان السلطاني بذلك ، فنظر في احوال القطر النظر المحكم وعزم على فعل أشياء متينة يعود نفعها على القطر فوافته المنيّة ، وخلفه في الحكم ابن اخيه عباس باشا حلمي بن طوسون باشا ابن محمد علي بعد أن تنقل في ولايات الحكومة المصرية وولّى كثيرا من فروعها حتى ترشّح للخديوية فسار في شأن مصر بما فيه صلاح اهلها وانتظام أحوالها ، ثم توفي في تلك الاثناء محمد علي باشا في مدة حكم عباس باشا ، فكان عباس باشا يسير بالليل في أزقة مصر متخفيا ليعهد احوال اهلها ، وكذلك كان يحب الأولياء الصالحين ولاسيما أهل البيت (عليهم السلام) وبقي هكذا إلى أن توفي في قصره .

وتولى بعده عمه (محمد سعيد باشا) بن محمد علي ، وقد تولى قبل ذلك رياسة البحرية بعد تعلمه فنونها ، إذ كان محبا للجهادية مولعا بجمع العساكر المصرية ، وكان ملازما للعساكر ورقّى منهم الكثير ، وسار في امور مصر سيرا منتظما إلى أن توفي في الإسكندرية ، ودفن في مسجد النبي دانيال (عليه السلام) [٢] ، وتولى بعده الخديوي اسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن محمد علي ، وكان قبل ذلك متقلبا في مهمات ولايات الحكومة المصرية خبيرا بأحوالها شاربا من جميع مناهلها ، فسار في امر الحكومة المصرية سالكا سبيل التمدن والحضارة ، ناهجا منهج الترف والثروة والبهجة والنظارة ، فشرع في امور جمّة داخل القطر ومدنه توجب له زيادة التمدن حتى انتظمت القاهرة والاسكندرية في اسلوب جديد ازال عنها هيئتها الاولى فصارت تضاهي مدن اوربا وتواردت عليها وعلى جميع القطر الاغراب من كل جهة واتسع نطاق التجارة ، ولكن اثقلت كاهلها الديون فحصل شغب آخر مدته وشيء من الفتن حتى انفصل عن الحكم عام (١٢٩٦هـ) .

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٦ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ص ٧٦ .

وخلفه بعد ذلك في السنة نفسها (محمد توفيق ابن اسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي) ، وهكذا تبين من خلال عرض علي مبارك لولاية توفيق باشا بأنه من المعجبين به وبنظام الحكم الذي ساد في مصر ايامه ، ويعد علي مبارك من الموالين للخديوي توفيق والمساندين له [١] ، هكذا جاءت الخطط التوفيقية لتعالج وضعا سياسيا عاشته مصر خلال عدة فترات زمنية مختلفة في انظمتها واساليبها في الحكم ، فنرى صورة سياسية للحكم في مصر استطاع علي مبارك ايضاحها مرةً معجبا في حالة كون النظام السياسي قد قدم خدمات للشعب المصري ، وناقدا تارة اخرى ، وبين المدح والنقد برز لنا رؤى مبارك في تقييم الوضع السياسي .

٢. التاريخ الاجتماعي :

عند الحديث عن الواقع الاجتماعي لمصر ضمن حقبة زمنية طويلة اتسمت بالاضطراب وعدم الاستقرار ، أن يعرج علي مبارك على واقع بعض المدن المصرية ، لكي يعطينا صورة واضحة عن طبيعة ما يجب أن يكون عليه المجتمع حينذاك ، وقد ركز على عرض مفصل لمدينتين تعدان من اكبر المدن المصرية هما القاهرة والإسكندرية إلى جانب عرضه لجميع مدن مصر وما يتبعها من شوارع وحارات ودروب .

وقد تباينت مكونات المجتمع المصري خلال المدة من (٣٥٨ – ١٣٠٥هـ) تباين شديد بين مكوناته من شرائح وفئات سواء في داخل المدن أو في اطراف البلاد الأخرى ، فاغلب المدن المصرية احتل فيها الولاة والأمراء وقادة الجند مركز الصدارة في حكمها ، وهؤلاء تميزوا بقابليتهم في ادارة شؤون البلاد من جهة ، وسيطرتهم على اهم ثرواتها من جهة أخرى [٢] ، وسعى الفاطميون منذ استيلائهم على ارض مصر عام (٣٥٨هـ / ١٣٠٥م) إلى تجديد العمارات في القاهرة وضواحيها حتى اتسع نطاق العمارة ، وحظيت مدينة القاهرة بجانب كبير من الاحترام لانها مقر الخليفة ورجاله وعساكره ، بالإضافة إلى مدينة الفسطاط كونها هي العاصمة واليها ترد البضائع وتصدر عنها فكانت مقر الأعيان وارباب الثروة ورجال العلوم والصنائع والحرف [٣] .

وكانت الثروة آنذاك كبيرة والتجارة واسعة الأرجاء بسبب اتساع مُلك الفاطميين الذي امتد إلى أقصى بلاد الشام والمغرب ، فكانت تأتيها البضائع مما دخل تحت ملكهم ومن غيره ، وقد ساح في بلاد مصر بعد بناء القاهرة بخمسين سنة عالِم من الفرس يعرف باسم (الناصري خسرو) ، ووصف القاهرة والفسطاط ، فقال في رحلته المعروفة (سيفرنامة) : " أن الفسطاط تظهر من

---

[١] المصدر نفسه ، ص٧٧ .

[٢] عبد الغفار محمد حسين ، الدولة الحديثة في مصر ، ج١ ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٧م ، ص٣٨ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٨ .

بُعد كالجبل ، وفيها منازل من سبع طبقات فاكثر ، وسبعة جوامع كبار " ، وقال أيضا : " ولو وصفت ما فيها من آثار السعادة والثروة لكذبني الفُرس " ، وفي موضع آخر قال : " أن مدينة القاهرة قل أن يوجد مدينة لها شبيه في الدنيا ... " [١] ، وكانت للقاهرة في ذلك الوقت لها خمسة ابواب هي : باب النصر ، وباب الفتوح ، وباب القنطرة ، وباب زويلة ، وباب الخليج، ولم تكن محاطة بسور .

وبرزت فيها وظيفة (قاضي القضاة) إلى جانب الولاة والامراء ، إذ يتولى قاضي القضاة امر الجوامع والمساجد ، كذلك يتولى رسومها واحباسها والي امرها ، ولها ديوان مفرد ، وكانت تقام فيها الدروس وحلقات العلم ويحضرها رجال الدين والعلماء [٢] ، اما في عهد الدولة الأيوبية التي لم تأل جهدا في العمائر والإصلاحات مع وجود الخلافات والفتن آنذاك ، فأزالوا شعارات الفاطميين وسعوا في العمارات ولاسيما في مصر والقاهرة فأحدثوا فيها عمارات جليلة أوجبت اتساعها وزيادة اعتبارها وأباحوا سكن القاهرة للخاص والعام ، وكعادة الدولة التي تحكم تعمل على تغيير ملامح ونظم واساليب الدولة التي سبقتها ، وهكذا بالنسبة للدولة الايوبية فانها عملت على تغيير كل ما قامت به الدولة الفاطمية من منهج وسياسة وطرق واساليب التي وصلت الى حتى المذهب الديني [٣] ، واستمر العمران في مصر ولم يعيقه الفتن والحوادث والاضطرابات من دولة الفاطميين إلى دولة المماليك عن الاتساع والتقدم ، بل كان ما يتخرب بالفتن ونحوها يتم تعويضه ، فكانت العمائر في تلك الأزمان في جميع أنحاء البلاد [٤] .

وسعى المماليك في مراحل مختلفة من وجودهم في البلاد إلى إضفاء صفة الشرعية على حكمهم للبلاد عن طريق التحالفات والعلاقات الوطيدة مع عدد من رجال الدين ، فعندما اتسعت المنافسات واحتدم الصراع بين مراكز القوى في داخل البلاد سعوا إلى تعزيز مركزهم السياسي من خلال التحالف مع عدد من رجال ومشايخ الازهر الشريف ، لتأكيد استقلاليتهم عن السلطة المركزية في اسطنبول [٥] ، وقد بالغ امراء المماليك في ممارسة الطقوس الدينية امام الرأي العام المصري ، وكذلك إجلالهم لرموز الأزهر الشريف رغبة منهم في اظهار ولائهم للدين وأهله [٦] ،

---

[١] المصدر نفسه ، ص١١ .

[٢] المصدر نفسه ، ص١١ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ص٥٠ .

[٤] المصدر نفسه ، ص٥٦ .

[٥] علاوي عباس عبد ، عبد الرحمن الجبرتي ومنهجه في كتابة التاريخ ، اطروحة دكتوراه ، جامعة الكوفة ، كلية الاداب ، ص١٢ .

[٦] وليم سليمان ، القاهرة في مصر المملوكية ، مجلة الطليعة ، العدد الثاني ، القاهرة ، شباط ١٩٦٩م ، ص٥١ .

لانهم ادركوا اهمية فئة رجال الدين في المجتمع المصري التي شكلت ثقلا كبيرا معظمهم من كبار مشايخ الازهر الشريف ، فقد سعت هذه إلى قيادة ثورات وانتفاضات ضد الحكام والامراء من المماليك ، فتعرضوا في احيان كثيرة إلى سخط وبطش هؤلاء الامراء [١] .

وهناك فئة اجتماعية تمتعت بمركز رفيع في المجتمع المصري وهم فئة التجار ولاسيما في مدينتي القاهرة والاسكندرية ، فهناك أُسر امتهنت مهنة التجارة إلى درجة تمتع افرادها بموقع كبير ليس بالمستوى الاقتصادي فحسب وانما على المستوى الاجتماعي أيضا ، وكان يطلق على من يتزعم مشيخة التجار لقب (شاهبندر التجار) ، وكانت هذه الشخصية تتزعم التجار ولها دور كبير في فض الخلافات والمنازعات بينهم ، وكان لهذا المنصب صلاحيات في القضاء التجاري [٢] .

وساهمت هذه الفئة في تنشيط الحياة الاقتصادية في مصر ، لاسيما في سنوات الاستقرار السياسي في عهد الحكام الاقوياء ، كما توسعت التجارة ولم تقتصر التجارة على الداخلية منها وانما نشطت التجارة الخارجية مع الدول العربية ، كذلك مع دول اوربا ، فولدت هذه التجارة اسواق كثيرة مثل اسواق التوابل والبخور والصياغة وغيرها من الاسواق ، وهذا التوسع التجاري اوجد الحاجة إلى تنظيم العاملين فيه بنوع من التنظيمات النقابية اطلق عليه اسم (نظام الطوائف) [٣] .

واما الفئة الاكبر في المجتمع المصري فهم فئة الزراع وملاك الاراضي ، فقد شكل قطاع الزراعة الذي يعد من القطاعات الهامة في البلاد الفئة الاوسع في المجتمع المصري لما للزراعة من اهمية في النشاط الاقتصادي للبلاد وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فكان كل الملاكين هم من امراء المماليك ، ويأتي بعدهم ملاك محليين من اهالي القرى المصرية ، واستخدم

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٥١ – ٥٥ .

[٢] امين مصطفى عفيفي ، تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط٣ ١٩٥٤م ، ص٢٨٤ .

[٣] نظام الطوائف : ويقصد بالطائفة صنف أو حرفة ، وقد اطلقت الكثير من المصادر عليها تسمية النقابات ، إذ وفّرت هذه الطوائف الرعاية الاجتماعية والثقافية لرعاياها ، وبلغ عدد الطوائف في اواخر القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر (٧١) طائفة منها : النحاسين ، والطحانين غيرهما . للمزيد من التفاصيل ينظر : ليلى عبد اللطيف احمد ، دراسات في تاريخ ومؤرخين مصر والشام ابان العصر العثماني ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٨٠م) ، ص٥٨ – ٨٠ .

المماليك نظام تعسفي جائر ضد الفلاحين وهو نظام (السخرة) فضلا إلى الزام الفلاحين بدفع ضرائب باهظة أثقلت كاهلهم [١] .

نستنتج من ذلك ان علي مبارك قد اعطى صورة رائعة عن التركيبة الاجتماعية للمجتمع المصري التي اظهر من خلالها الفئات الاجتماعية للمجتمع ودورها في الحياة العامة المصرية انذاك ، اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان بعض تلك الفئات لاسيما علماء الدين قد ادت دورها حتى في القرن العشرين وهو الدور الذي عهد اليها في قيادة حركة الثورة للشعب المصري ضد الاستعمار وضد السلطة ، اما الجانب الثقافي في مدينة القاهرة فقد اشتملت على محلات العبادة وتشمل الجوامع والمدارس والزوايا والمساجد والرباطات والخوانق ، ويقول علي مبارك : " ان الجوامع الان هي مائتان واربعة وستون جامعا ، ودخل في ضمن الجوامع المدارس التي ذكرها المقريزي في خططه " .

ويقول المقريزي : " وهي سبعون مدرسة سوى ما ذكره من الجوامع وهي ثمانية وثمانون جامعا ، فمجموعها مع المدارس مائة وثمانية وخمسون " [٢] ، فيكون ما استجد في القاهرة من بعد المقريزي الى وقتنا هذا – اي زمن علي مبارك – مائة جامع وستة ، ويظهر مما ورد في الخطط ان الجوامع والمدارس لم تكثر الا في زمن السلاطين من الجراكسة عام (٥٦٠هـ) كانت لا تقام الجمعة في القاهرة ومصر الا في ثمانية جوامع هي : جامع عمر ، وجامع العسكر ، وجامع بن طولون بالقطائع ، والجامع الازهر بالقاهرة ، وجامع الحاكمي بالقاهرة ، وجامع المقس بالقاهرة ايضا ، وجامع الغرافة ، وجامع راشدة .

وقد كثر في زمن السلاطين من الجراكسة الرغبة في بناء الجوامع حتى بلغت في اخر مدتهم (مائة وثلاثين جامعا) تقام فيها الجمعة ، كان منها بمصر العتيقة عشرة ، وبالغرافة احد عشر ، وبجزيرة الروضة خمسة ، وبالحسينية اثنا عشر ، وعلى النيل خارج القاهرة اربعون ، وبين القاهرة ومصر ثلاثة وعشرون ، وبالقلعة اربعة ، وخارج القاهرة بالترب سبعة ، وداخل القاهرة سبعة عشر ، وكان كل من بني جامعا وقفه الله وقف عليه الاوقاف الدارة ورتب له الخدمة والمؤذنين والائمة وغير ذلك ، والان قد اندثر جميع المدارس وصارت جوامع ولم يبق محلا مختصا بالتدريس وللمدرسين فيه رواتب من جهة الحكومة والاوقاف الا الجامع الازهر [٣] .

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٢ ؛ أ.ب كلوت بك ، لمحة عامة عن مصر ، تعريب محمود مسعود ، (القاهرة: مطبعة أبي الهول، د.ت) ، ص ٥٤٦ – ٥٤٧ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٨٧ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ص٩٠ .

ولم تكن المدارس تعرف في الاسلام في زمن الصحابة والتابعين ، وانما حدثت بعد عام (اربعمائة من الهجرة) ، واول مدرسة بنيت في بغداد عام (٤٥٧هـ) ، ومصر كانت حينذاك في يد الفاطميين وهم شيعة اسماعيلية ، واول ما علم اقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس كان في خلافة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله في الجامع الازهر والوزير يعقوب بن كلس كان يقرأ درسا في دراه كان يقرأ فيه كتاب فقه على مذهبهم وعمل مجلسا بجامع عمرو ايضا [١] ، ولمّا صارت مصر الايوبية وتولى حكمها يوسف صلاح الدين ابطل مذهب الشيعة من جميع الديار المصرية واقام بها مذهبي الامام مالك والامام الشافعي، واول مدرسة حدثت بالديار المصرية كانت بجوار الجامع العتيق بناها صلاح الدين عام (٥٦٦هـ / ١١٧١م) وعرفت بالمدرسة الناصرية وكانت للشافعية ، وبني في السنة المذكورة المدرسة القمحية بقرب الناصرية للمالكية ، وبنى ايضا بالمدرسة السيوفية للشافعية ، وحذا حذو صلاح الدين خلفاؤه من الايوبية حتى صار عدد المدارس بعد زوال ملكهم خمس وعشرين مدرسة منها الخاصة بالشافعية سبعة ، وللمالكية ستة ، واربعة للحنفية ، وواحدة للحنابلة ، وتارة كان يدرس بالمدرسة مذهبان ، فكان للشافعية والمالكية اربعة مدارس ومثلها للشافعية والحنفية .

ولمّا تولى الملك بعدهم مماليكهم ساروا سير ساداتهم وحذو حذوهم امراؤهم واصحاب الاموال من الرجال والنساء حتى كمل عدد المدارس الى اخر حياة المقريزي خمسا واربعين مدرسة في نحو مائة وثمانين عام ، وصار في القاهرة سبعون مدرسة يدرس بها المذاهب الاربعة وبعضها كان مختصا بالصوفية ، وكان المماليك يتألقون في بناء تلك المدارس وزينتها وزخرفتها وترخيمها وتعمل لها الشبابيك من النحاس المكفت بالذهب والفضة وتصفح ابوابها بالتماس البديع ، وتعمل بها خزانة كتب بها عدة مصاحف والكتب في الحديث والفقه وغيرها من انواع العلوم ، وكان من المصاحف من طوله اربعة اشبار الى خمسة وعرضه قريب من ذلك ولها جلود من غاية الحسن معمولة من الباس الحرير [٢] .

وقد بدء منذ القرن التاسع الى القرن الثاني عشر – يعني مدة ثلاثة قرون – بدء اهمال امر المدارس وامتدت ايدي الاطماع الى اوقافها وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فاخذوا في مفارقتها وصار ذلك يزيد في كل عام عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد حتى انقطع التدريس فيها بالكلية وبيعت كتبها ونهبت

---

[١] المصدر نفسه ، ص٨٧ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ص٨٧ .

اثاثها [١] ، واخذت الحكومة في زمن جلوس محمد علي باشا على تخت الديار المصرية بالتشديد على حفظ ما بقى من تلك المباني ، وانشأت عدة مساجد في القاهرة وغيرها ، كما قام بترتيب ديوان الاوقاف لحفظ تلك المباني واوقافها والصرف عليها ووجه جلّ عنايته الى امر التربية فساعدت طلبة الازهر والمدرسين به فانتظم سير التعليم فيه وكثرت طلبة العلم في المذاهب الاربعة في مدته ومدة خلفاءه حتى بلغ عددهم في عام (١٢٩٠هـ / ١٨٧٤م) تسعة الالف واربعمائة وواحد واربعين طالبا ، وحنفية الف ومائة وواحد وثلاثون ، وحنابلة ثلاثون طالبا ، واما عدد المدرسين في المذاهب الاربعة فبلغ ثلاثمائة واربعة عشر والجاري صرفه الان من ديوان الاوقاف على الجامع الازهر ومن به من العلماء والطلبة الفان وخمسمائة وتسعة عشر جنيها [٢] .

ووجهت الحكومة انظارها الى انشاء مدارس لتربية الشبان ونشر العلوم والفنون والصنائع ، ففي محمد علي باشا انشأت مدرسة الطب في عام ١٢٤٢هـ ، وجلب لها تلاميذ من طلبة الازهر ، ورتب لها معلمين من بلاد الافرنجة ثم رتب المهندسخانة لتعليم العلوم الرياضية ومدرسة البحرية ومدرسة الزراعة واخرى لتعليم الالسن الاجنبية ، ومدرسة لتعليم الصنائع والحرف ، ومدرسة للموسيقى ، هذا فضلا عن المدارس العسكرية وهي مدرسة الطوبجي ، ومدرسة الخيالة ، ومدرسة البيادة ، فضلا عن المكاتب التي نظمها بالقاهرة والاسكندرية ومدن الاقاليم المصرية ، ولم يكتف محمد علي باشا بكل ذلك بل جعل يرسل الى البلاد الاجنبية الارسالات المتوالية من اذكياء الشبان للتبحر في المعارف وجعل لكل فن طائفة من الشبان [٣] .

وقد حذا حذوه خلفاء محمد علي باشا وساروا على منهجه وان كان في زمن سعيد باشا حصل فتور في سير التعليم ، ولكن لما تسلم الخديوي اسماعيل الحكم اخذ التعليم في سيره القديم ، ومن اهتمامه بأمر التربية زاد في النفقة عليه فاتسع نطاق التربية وزادت رغبة الناس في تربية اولادهم ، ولم يكتف الخديوي اسماعيل بالمدارس السالف ذكرها بل انشأ مدرسة للقوانين والشرائع وهي المعروفة بمدرسة الادارة ، ومدرسة لتربية الخواجات عرفت بدار العلوم اخذت تلامذتها من طلبة الجامع الازهر ، وهو اول من فتح مدرسة للبنات واخرى للخرس والعمليان الذكور والاناث ، وانشأ مدارس في مدة الاقاليم جعل فيها التعليم الى النسق الجاري في المدارس الميرية ، وانشأ جملة مكاتب اهلية في القاهرة والاسكندرية جرى التعليم فيها على النسق وجعل النفقة عليها

---

[١] المصدر نفسه ، ص٨٨ .

[٢] المصدر نفسه ، ٨٩ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٨٨ .

مما يتحصل من الاوقاف الخيرية بناءً على لائحة عملت لذلك وما يدفع اهالي الاولاد حسب اقتدارهم [١] .

واحتوت التركيبة السكانية للمجتمع المصري على قبائل بدوية كانت في أوج قوتها في القرن الثامن عشر ، إذ انها شكلت خطرا على المدن والارياف المصرية ، ولم تستطع قوات المماليك من درء خطرهم ، إذ فرضت هذه القبائل سيطرتها على بعض المناطق المصرية كالدلتا ومصر العليا بداية القرن الثامن عشر حتى أن الوالي العثماني آنذاك (مصطفى ابن احمد) لم يستطع من دفعهم عن تلك المناطق [٢] ، وأدت سيطرة هذه القبائل البدوية إلى قيام حكام المماليك بعقد عدة تحالفات مع بعض شيوخ البدو إدراكا منهم لأهمية قوة هذه القبائل لتنفيذ مخططاتهم في مواجهة خصومهم ، وكذلك توظيفهم لحماية طرق القوافل التجارية [٣] .

وضمت التركيبة الاجتماعية لمصر اقليات دينية كاليهودية ، والمسيحية ، والقبطية ، وتشير بعض المصادر إلى أن عدد اليهود في القاهرة وحدها ، تراوح ما بين ثلاثة الاف إلى خمسة الاف نسمة سكنوا جميعهم في حي خاص بهم يدعى (حي غيتو) ، وكانوا يمتهنون مهنة الصيرفة والمال ، وكذلك عملوا في دار سك النقود ، فاستعان بهم المماليك وبخبراتهم في جمع وتنظيم الضرائب [٤] ، اما المسيحيين الاقباط فقد اشارت الكثير من المصادر إلى أن عددهم يتراوح بين مائة وخمسين إلى مائتي نسمة ابان الغزو الفرنسي لمصر ، فانتشروا في الكثير من اقاليم القطر المصري [٥] .

تأسيسا على ما تقدم تعد القاهرة اكبر المدن المصرية في القرن الثامن عشر ، فهي تختلف في تنظيماتها العامة عن المدن الاخرى ، فكانت القاهرة يومذاك مقسمة إلى ثمانية خطط لكل خطة حواريها التي ترتبط مع بعضها البعض بشوارع رئيسة تتصل بها شبكة من الدروب الملتوية والمخترقة لهذه الحارة أو تلك الخطة ، ولكل حارة شيخ ونقيب ، يكون مسؤول عن ما يجري في حارته من قضايا إلى جانب عدد من الشطار والعباريين الذين يطلق عليهم لقب (الفتوة

---

[١] المصدر نفسه ، ص٨٩ .

[٢] وهو الوالي الذي تسلم ولاية مصر من المدة (مايس ١٧٥٥ – مايس ١٧٥٧) . للمزيد من التفاصيل ينظر : جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث ، ج٢ ، (القاهرة : مطبعة الهلال ، ط٢ ١٩١١م) ، ص٥٥ .

[٣] جان كلود جارسون ، ازدهار وانهيار حاضرة مصرية ، ترجمة : بشير السباعي ، (القاهرة – ١٩٧٧م) ، ص٣٤٥ .

[٤] عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الاثار في التراجم والأخبار ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٢١ ؛ طارق البشري ، المسلمون والاقباط في اطار الجماعة الوطنية ، (القاهرة : دار الوحدة ، ١٩٨٢م)، ص٢١ .

[٥] علاوي عباس ، عبد الرحمن الجبرتي ومنهجه في كتابة التاريخ ، المصدر السابق ، ص١٩ .

أو الفتوات) ، وكان موكل إليهم حماية حاراتهم من تعدي أو تجاوز الحارات الاخرى ، ولكن هؤلاء شكلوا عبئ في اوقات ضعف السلطة ، مما ادى بهم إلى استقلال النفوذ في إرهاق سكان الحارة بالضرائب المادية والمعنوية ولاسيما من أصحاب الحرف ، مما ادى إلى معاناة السكان وارهاق كواهلهم في ايام الكساد وضنك العيش [١] .

واستوطن في مصر إلى جانب هذه الاقليات عدد من الاجانب ولاسيما اليونان الذين اطلق عليهم (بالاروام) ، وكان عددهم ثلاثة الاف وخمسمائة نسمة عملوا في التجارة ، كما استوطن في مصر عدد من الارمن فضلا إلى جاليات أخرى اتخذت من المدن المصرية المطلة على البحر المتوسط مراكز لاستيطانها [٢] ، وكان عدد اهالي القاهرة على حسب التعداد الذي صار في (١٥ جمادي الثانية ١٢٩٩هـ / ٣ ايار ١٨٨٢م) هو عدد (٣٧٤٨٣٨) نسمة منهم اهالي (٣٥٢٤١٦) نسمة ، واعراب (٢٢٤٢٣) نسمة ، والاعراب هم [٣] :

	الاقليات	العدد
	اروام	٧٠٠٠
	فرنساوية	٥٠٠٠
	انجليز	١٠٠٠
	نمساوية	١٨٠٠
	المان	٤٥٠
	اعجام	٤٠٠
	تليانية	٣٣٦٧
	اورباوية من اجناس مختلفة	٢٣٠

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٣ .

[٢] اندريه ريمون ، المصريون والفرنسيون في القاهرة ١٧٩٨ – ١٨٠١م ، ترجمة : بشير السباعي ، (القاهرة ، ٢٠٠١) ، ص٥٩ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٩٨ .

	المجموع	١٩٢٤٧
	عرب ومغاربة وغير ذلك	٣١٧٥
	المجموع الكلي	٢٢٤٢٣

وفي التعداد الذي جرى في (محرم عام ١٢٨٩هـ / ١١ اذار ١٨٧٢م) ، كان عدد سكان القاهرة (٣٤٩٨٨٣) نسمة ، ومن هنا يظهر ان عدد اهالي القاهرة زاد في ظرف عشر سنين من ابتداءً الف ومائتين الى الف ومائتين وتسع وتسعين (٢٤٩٥٥) نسمة ، وبالتقريب خمس وعشرون الف نفس فيخص السنة الفان وخمسمائة نفس [١] .

وكان تعداد اهالي القاهرة في الخطط الفرنساوية عام (١٢١٣هـ / ١٧٩٨م) (مائتين وستين الف) نسمة ، فتكون الزيادة التي حصلت في ظرف ستة وثمانين عام هي (مائة وخمسة الف) نسمة ، فيخص السنة الف وثلاثمائة وسبع وثلاثون ، ويعلم من ذلك ان الرغبة في سكنى القاهرة كثرت ايام خلافة محمد علي باشا عما كانت عليه ، ولاسيما رغبة الافرنج في سكناها بعد انشاء السكك الحديدية ، واتمام خليج البرزخ ، وظهور خطة الاسماعيلية ، وتوزيع الغاز والماء فيها [٢] .

واما بالنسبة إلى مدينة الاسكندرية [٣] فيخبرنا علي مبارك عن تاريخها قائلا : " لم يوجد في مصر من المدن الشهيرة التي حفظ المؤرخون حوادثها وقيدوها في كتبهم مثل مدينة الاسكندرية وان لم يبق من اثارها القديمة الا القليل ، ولعل سبب حفظهم لحوادثها واطنابهم في اثارها اهمية موقعها عند من حكموا الديار المصرية وغيرهم بالنسبة للتجارة التي بلغت فيها درجة علائقها الغاية عند جميع الامم المتفرقة بسواحل البحر الابيض المتوسط " [٤] ، وصارت هذه الواسطة سببا في اتساع اطراف تخت المملكة ، اذ مدت شجرة العلوم فيها اغصانها واتسعت دائرة المعارف البشرية في مدارسها وانجلت غياهب الشك من ذلك الحين ، وصار كل سطر في صحائف اوراق كتب

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٩٨ .

[٢] المصدر نفسه .

[٣] الاسكندرية : بناها الاسكندر الأكبر عام (٣٣٢ ق.م) وتدعى الاسكندرية (بالمحصنة) ، إذ بنى الاسكندر ثلاث عشر مدينة وأطلق عليها اسمه ، ثم تغيرت أسماء هذه المدن واصبحت كل واحدة تحمل اسم جديد . لمزيد من التفاصيل ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الأول ، (بيروت: دار صادر ، ١٩٧٧م) ، ص ١٨٤ – ١٨٥ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢ .

التاريخ يكشف عن حقائق صحيحة بالنسبة لاحوال هذه المدينة وغيرها ، ويبين لنا اسباب خرابها وخراب ما حولها بذكر التقلبات والحوادث التي كانت تمتد من اطراف هذ الجهة اليها فتعطل اسباب الرزق من المزارع والمتاجر وغيرها .

ويقول علي مبارك : " نجد في الكتب وصف ابنية عجيبة ، واثار غريبة كانت بهذه المدينة وغيرها من مدن الوجه البحري " ، ويذكر لنا نقلا عن السلف ما شاهدوه وما علموه من امرها ، وكيف انقلب الدهر عليها على حسب الترتيب الزمني ليعلم الناس سلسلة تلك التقلبات وما حدث فيها ، ويضيف علي مبارك عن هذا الترتيب الزمني : (المدة الاولى) بقيت الديار المصرية رافلة في حلل سعدها وعزها قرونا عديدة والعلوم فيها زاهية زاهرة حين كانت الامم الاخرى سابحة في بحار الجهل وذلك كان قبل بناء الاسكندرية التي لم يظهر ذكرها الا بعد انحطاط درجة مدينة منف وخرابها ، واقوال المؤرخين مضطربة في تقدير مدة التقدم في هذا القطر ، الى ان دخل قمسياس هذه الديار وجعلها ضمن مملكة الفرس عام (٥٢٥ ق.م) فاخذت بالخراب من ذلك العهد وتهدمت ابنيتها ودمرت مدتها وامتدت يد الظلم والجور الى العلماء والمدرسين فتلاشى امر التقدم والعلم وانحط امر الامة المصرية " [١] .

اما (المدة الثانية) وهي عام (١٩٣ ق.م) ، التي بدأ استيلاء الفرس على هذه الديار الى دخول الاسكندرية وتغلبهم على مصر لم ير فيها غير فتن داخلية اضرت بالقطر وترتب عليها فقر الاهالي واهانة العلم واهله ولم يلتفت الى موضع الاسكندرية اصلا وبقيت قرية رقودة خامدة الذكر ، ومن النصر المتتابع للجيوش الرومية في محاربتها جيوش الفرس قويت شوكتهم وعظمت صولتهم واخذت شجرة العلم التي غرسها المصريون فيهم تتسع ، ولما حلت الاروام محل الفرس اقاموا زمنا طويلا منفردين بالحكم على باقي الامم [٢] .

وخلال عام ٣٠٢ ق.م بدأت المدة الثالثة وفيها زال ملك الاكاسرة من اسيا بالكلية ودخلت مصر ضمن فتوحات الاسكندر عام (٣٢٢ ق.م) بعد قمبساس بقرنين تقريبا ، وقد اسس مدينة الاسكندرية وسماها باسمه وجعلها مركزا للتجارات بدل مدينة صور التي هدمها وخربها ، فوردت اليها التجارة ، وعمرت في مدة يسيره وملأها الاغراب ولاسيما الاروام ، وبلغت في مدة قريبة درجة عظيمة من الثروة والعمار بسبب كونها مقر حكومة البطالة ، وانحط بها قدر منف بسبب تحلية الملوك البطالة لها بالمباني والمعابد والمدارس ، وصارت مدينة الاسكندرية مركز لجميع

---

[١] المصدر نفسه ، ص٢ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٧ ، ص٢ .

العالم [١] ، وفي عام ٣٩٣ ق.م بدأت المدة الرابعة التي فيها دخلت الديار المصرية في حيازة القياصرة بدون ادنى مشقة ومع ذلك كانت الفتن الداخلية باقية فتسبب عنها تخريب بعض مباني الاسكندرية ولاسيما دار الكتب ، فقد تلف منها مقدار عظيم بعضه بالحرق وبعضه بالنهب التي كان البطالة قد جمعوها في مدة سلطنتهم للديار المصرية ، ولحق العلم وامكنة تدرسيه من الاهانة ما لحق غيره ، وانحطت درجة مدرسة الاسكندرية ، وبقى الاضمحلال يزداد طوال المدة الرابعة الى عام (٣٦٤ ق.م) [٢] ، اما (المدة الخامسة) وهي عام (٢٧٧ ق.م) فكان فيها تقسيم الدولة الرومانية ، ونتج عن ذلك فوائد كثيرة للقطر المصري ولاسيما الاسكندرية ، منها اضمحلال الرومانية المغربية بقيام الامم المتبربرة ومنها اشتغال الاروام بالعلوم والتقدم فلم يمنعهم عنها تهاون القياصرة واعمالهم لها وتصديهم للمجادلات الدينية ومنها تسلطن المعارف البشرية في مملكة المشرق ، ومنها حفظ مدينة الاسكندرية لدرجة عظيمة في التقدم مشتهرة فيها بين المدن ، واما الديانة العيسوية فكانت اخذه بالانتشار في مملكتي المشرق والمغرب وعظم شانها بمدينة الاسكندرية وحصل جدال بين علماؤها وبين اضدادهم ادى الى هجرة الاسكندرية [٣] .

وتشهد عام ٣٢٩ ق.م بداية المرحلة السادسة وفي جميع المدد الماضية كانت الاسكندرية تحت ملك الديار المصرية وان كانت التقلبات الزمنية جلبت لها تغييرات كثيرة وصيرتها ميدانا للفتن لكنها مع ذلك كانت اول مدينة في القطر الى ان ظهرت الديانة المحمدية بأرض الحجاز واخذت تمتد حتى علا قدرها وطمست الديانة العيسوية بل زالت من جميع جهات المشرق ، ودخلت الديار المصرية تحت تصرف العرب فانتقل الفخر الذي كان للاسكندرية الى مدينة الفسطاط التي اسست على شاطئ النيل [٤] ، اما (المدة السابعة) وهي عام (٢٠٢ ق.م) من ذاك الزمن مدينة الفسطاط عن درجتها وانحط قدر مدينة الاسكندرية انحطاطا كليا وانفردت مدينة القاهرة بما كان لهاتين المدينتين من المزايا العلمية والسياسية ، وصارت تتزين بالمباني الفاخرة الى ان حصل حرب الصليب في منتصف القرن الحادي عشر من الميلاد بعدها اختلطت الاورباويون بالمشرقيين وظهر صلاح الدين عام (١٧١١م) [٥] .

---

[١] المصدر نفسه ، ص٣ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٨ .

[٣] المصدر نفسه ، ص٩ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ص١٢ .

[٥] المصدر نفسه ، ص٢٣ .

وبروز الدولة الايوبية خلال عام ٧٩هـ مثلت المدة الثامنة التي اعقبت الفاطميين ، وكان بإمكان الفاطميين ان يبقوا الاسباب الموجبة لاضمحلال ملك العباسيين ويجعلوا العدل اساس ملكهم ويسيروا على منهج الشرع لتتمكن حكومتهم في الارض ولكن لم يلتفتوا لذلك اصلا فكثر الظلم والزهو واشتغلوا بالمحاورات الدينية واشتركوا مع العلماء بالمجادلات المذهبية بقصد اكثار الرجال بمذهبهم [١] ، وتشهد (المدة التاسعة) احداثا كبرى ارتبطت بعز الدين ايبك الذي قاد حربا ضد الافرنجة في واقعة المنصورة وعلت كلمته عند شجرة الدر ورجال الحكومة ، وكان ذلك على غير مراد طوران شاه الذي تولى بعد موت ابيه فاجتهد في ازالة هذه الشهرة فيمن حضر معه من اصحابه من ديار بكر ، فكان محبا للهو واللعب فالتجأت شجرة الدر الى ايبك فقام بقتله واستولى على الملك واسس دولة قوية ، وفي عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) دخل السلطان سليم هذه الديار فتغيرت الحكومة ولم تتغير حالتها حتى دخل الفرنسيون ، وكانت في هذه المدة البلاد الاورباوية اخذه بالتقدم واتسعت دائرة التجارة فيها [٢] .

واما (المدة العاشرة) وهي عام (٢٩٩هـ) جاء بعد المماليك على مصر دولة العثمانيين ، ولم تخالف دولة المماليك ومن بدأ ظهورها في صحاري الجهة العليا من اسيا وهي تشن الغارات وتشعل نار الحرب ، واول شيء اغارت على ما بقي لدولة الرومانيين الشرقية في سواحل البحر الابيض المتوسط ، واستولت في اواخر القرن الثاني عشر ثم دخلت ارض اوربا في القرن التاسع عشر استولى السلطان محمد الفاتح على القسطنطينية وازال ملك الرومانيين بالكلية ثم بعد ذلك صارت مصر داخلة في حكم ال عثمان ، كما تطرق علي مبارك الى الاسكندرية عند مجيء محمد علي باشا الى الحكم وكيف [٣] .

وسعى محمد علي باشا إلى اصلاح الشؤون العامة فيها ففتح في عام ١٨٢٠م ترعة المحمودية ليوصل بين شواطئ الاسكندرية ودواخلها ، مما سهل حركة النقل فيها وبالتالي نشط اقتصادها وأصبحت من مناطق الجذب السكاني ، وكذلك انشأ فيها (دار لتصليح السفن) مما ادى ذلك إلى زيادة عدد السكان بشكل ملحوظ إلى ستين الف نسمة أواخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، ولم تختلف الاسكندرية في خططها عن مدينة القاهرة فهي ذات سور ولها خمسة ابواب ، وكذلك احتوت على منارة لإرشاد السفن نحو مراسيها ، كذلك تكونت المدينة من حارات

---

[١] المصدر نفسه ، ص٣٥ .

[٢] المصدر نفسه ، ص٣٦ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ص٣٦ – ٣٧ .

ارتبطت ببعضها بطرق ضيقة وتنتهي بشوارع رئيسة ، ولم تكن شوارعها مرصوفة ، إذ في فصل الشتاء تتحول إلى برك عند نزول الامطار ، فكانت تفتقر إلى شبكة لتصريف مياهها .

وامتهن اغلب سكان الاسكندرية بمهنة الملاحة البحرية ، وكذلك اعمال اصلاح السفن ، كما ارتبطت اعمالهم بالعتالة وتفريغ السفن ، كما عمل قسم منهم بالتجارة فضلا عن عمل آخر وهو نقل البضائع وتعبئتها وتفريغها [١] ، واشار علي مبارك إلى أن الاسكندرية تتكون من المسلمين بالدرجة الاولى ، إذ قُدر عدد المساجد في اوائل القرن التاسع عشر بثمان وثمانين مسجدا ، إلى جانب خليط من السكان الذين يسكنون الاسكندرية مثل اليهود والمسيحيون الاقباط بالإضافة إلى الاجانب [٢] .

٣. التاريخ الاقتصادي :

لم يأل علي مبارك جهدا في دراسة الجانب الاقتصادي بوصفه عاملا من عوامل حركة المجتمعات ، فكانت له دراسات شملت دراسة حول نهر النيل وما له من تأثير على اقتصاد البلد ، فقد اورد علي مبارك جزئيين يتحدث فيهما عن ترع مصر ورياحها ومنشئات الري فيها ، وفي الجزء الآخر يتحدث عن مقياس النيل منذ أقدم العصور إلى العصر الحديث .

ويتحدث علي مبارك في الجزء الثامن عشر عن مقاييس النيل ، واشكال المقاييس منذ اقدم العصور التي سبقت التاريخ الميلادي ، ومدى معرفة زيادة النيل ونقصانه من خلال تلك المقاييس ، وتحدث علي مبارك عن اقدم المقاييس في زمن الفرس إلى تاريخ تولي الدولة العثمانية الحكم ومدى اهتمامها بالنيل ومقاييسه بالنسبة لزيادة الثروة للبلاد ، ثم يورد حالة المقاييس ، ويذكر جدول بغاية الزيادة والنقصان بالنيل ومدى تأثيرها على اقتصاد البلاد [٣] ، في حين يتناول في الجزء التاسع عشر عن الترع والخلجان وتأثير الرياح فيها ، فيورد الترع والخلجان الموجودة في مصر بالتفصيل مبينا ما كان موجود في ذلك الوقت من خلجان وترع في البلاد المصرية [٤] .

اما في الجزء العشرين فتناول فيه تاريخ النقود وبيان اشكالها وما يتبع ذلك قديما وحديثا ، وقد انطلق في دراسته للنقود من حقيقة انها توضح الحالة السياسية للبلاد ، وقد استطاع الالمام بالجوانب التاريخية للنقود فيما يخص تطورها وتغير اشكالها ووزنها ، وادرك انه بدراسة النقود

---

[١] جيرار ، ب.س ، وصف مصر ، موسوعة الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر ، ترجمة زهير الشايب ، ج١ ، (القاهرة ، ١٩٧٨م) ، ص٢٩٤ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص١٥ – ١٧ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١٨ .

[٤] المصدر نفسه ، ج١٧ .

ستتجلى امور مبهمة من شأنها أن تفسر وقائع كثيرة [١] ، وكانت نقود الذهب المتعامل بها سواء كانت مضروبة او غير مضروبة تسمى قبل الاسلام (دينر) بغير حرف (ألف) ثم سميت (دينار) بزيادة الالف ولو مع اختلاف وزنه وحجمه ، واستمر ذلك مدة في الاسلام ثم مع تداول الايان وانتقال الحكم من ايدي العرب جعل لها اسماء غير اسم (الدينار) ، فلما فتح عمر بن العاص ديار مصر عام (٢٠هـ / ٦٤١م) ضرب الجزية على الاقباط بالدينار ، ويقول المقريزي : " ان نقد مصر كان الذهب فقط لان خراجها في قديم الدهر وحديثه تنما هو الذهب " [٢] .

ويقول علي مبارك : " واستمر الامر على التعامل بالدينار الى دخول صلاح الدين الايوبي فكانت اموال الخراج التي تجبى من النواحي تقدر بالدينار وكذا ثمن البضائع واجرة الاجير وغيرها ، وكانت ترد الى الديار المصرية دنانير من البلاد الاجنبية غير الدنانير التي كانت تضرب في دار ضربها فكان بها الدنانير الرومية نسبة الى مملكة الروم " [٣] ، وقد ضرب الامير (ابو العباس احمد بن طولون) عام (٢٤٥هـ / ٨٧٥م) بمصر دنانير سميت (بالاحمدية) نسبة اليه ، وهو اول من ضرب الدنانير بها استقلالا ، وفي عام (٣٥٨هـ / ٩٦٩م) في زمن المعز لدين الدولة ضرب القائد ابو الحسن جوهر الخطيب العقلي دنانير سميت (بالمعزية) نسبة لاسم الخليفة (المعز) ، ونقش على احد وجهيها ثلاثة اسطر اولها (عاد الامام المعز لتوحيد الصمد الاحد) ، وثانيها (المعز لدين الله امير المؤمنين) ، وثالثها (ضرب هذا الدينار بمصر عام ٣٥٣هـ) ، وفي الوجه الاخر (لا اله الا الله محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) [٤] .

ويتألف هذا الجزء كما يذكره علي مبارك من احدى وعشرون فصلا ، فصل الدينار والدرهم ، وفصل في بيان شكل النقود وهيآتها ، وفصل في اقطار النقود ، وفصل في الصور والكتابة التي كانت ترسم وتنقش بها على النقود الاسلامية ، وفصل فيما كان ينقش على النقود من الادعية ، وفصل فيما كان ينقش عليها من الاسماء الدالة على الرتب والوظائف ونحو ذلك ، وفصل فيما كان ينقش من اسماء الخلفاء ، وفصل فيما كان ينقش من اسماء الاماكن ، وفصل في تحرير وزن المثقال والدينار والدرهم ، وفصل في نقود الاندلس وافريقيا ، وفصل فيما يتعلق باوزان نقود مصر وعيار النقود ، وفصل في وحدة النقود وتقويمها ، وفصل في القيمة الحقيقية للنقود ، وفصل في

---

[١] المصدر نفسه ، ج٢٠ .

[٢] علاوي عباس عبد ، عبد الرحمن الجبرتي ، المصدر السابق ، ص٥٥ .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٢٠ ، ص٢ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ص٣ .

بيان النقود التي وجدتها الفرنساوية في مصر ، وفصل في بيان ثمن الذهب والفضة في مصر ، وفصل فيما كانت تربحه الحكومة من ضرب النقود في زمن الفرنساوية ، وفصل في مصاريف الضرب وما يضيع فيه وما يؤخذ اجرة الربح الباقي ، وفصل في مقدار ما ضرب في مدة الفرنساوية ، وفصل في فلوس التماس .

واعد علي مبارك جدولا يشتمل على اصناف العملة المضروبة ، ومواضع ضربها ، وبيان اوزانها وتواريخها ، ومن ضرب في عهده من الملوك من عهد عبد الملك بن مروان فمن بعده ، وفي نهاية هذا الجزء يبين اختلاف قيم النقود ، وبيان اثمانها ، والغلاء والرخاء على تعاقب السنين من عام (٨٧هـ) الى عام (١٢٩٦هـ) [١] .

وتوصل علي مبارك في دراسته للنقود إلى تاريخ تسمية الدرهم والدينار ، ثم جاء في بيان شكل النقود وهيأتها ووزنها ، كذلك فصّل في الصور والكتابة التي كانت ترسم وتنقش على النقود الإسلامية وغيرها من اول من ضرب النقود بالاسلام وفي كيفية نقش التاريخ ، وكذلك ما كان ينقش على النقود من أسماء الملوك والعمال والقابهم ونعوتهم ، كما فصّل في نسب النقود الذهب والفضة في مصر ، كما وضع جدول اشتمل فيه بيان اصناف العملة المضروبة ومواضع ضربها وبيان اوزانها وتواريخها كما بين اختلاف قيم النقود وغيرها وبيان اثمانها والغلاء والرخاء على تعاقب السنين من عام (٨٧هـ) إلى عام (١٢٩٦هـ) [٢] .

وتحدث في اجزاء كثيرة عن حال الزراعة آنذاك ، فهذا القطاع الحيوي كان يعاني من جملة من المشاكل ، كان في مقدمتها الانتاج ذا المحصول الاحادي في معظم الاراضي الزراعية ، وفي احسن المواسم الزراعية مثل الموسم الشتوي ، بينما تنخفض إنتاجية الأرض الزراعية في موسم الصيف بسبب قلة الاراضي المزروعة ، كما عانت الاراضي الزراعية من سوء عمليات الري ، فقد استخدمت الطرق البدائية في الري لاسيما في الاراضي الزراعية المرتفعة عن مستوى نهر النيل والاراضي البعيدة [٣] .

وانقسمت الاراضي الزراعية في اواخر القرن الثامن عشر إلى أربعة انواع رئيسة وهي : (اراضي الاحباس) السلطانية ، وهي ما يقصد به الاراضي التي أوقفت وارداتها للعناية بالحرمين الشريفين واعمال الخير ، إذ اوكل الاشراف عليها واداراتها إلى الاوقاف الدينية ، والنوع الثاني من

---

[١] المصدر نفسه ، ج٢٠ ، ص٢٠ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٢٠ .

[٣] ب.س جيرار ، وصف مصر ، الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر ، ترجمة زهير الشايب ، ج١ ، (القاهرة ، ١٩٧٨م) ، ص١٥٠ .

الاراضي هي (اراضي الاحباس الاهلية) ، اما النوع الثالث من الاراضي فهي (اراضي الملكيات الخاصة) ، إذ ترجع في عائدياتها إلى أصحاب السلطة من امراء ومتنفذي المماليك وحاشيتهم ، اما النوع الرابع وهو ما يسمى (اراضي الديوان) وتكون هذه الاراضي مسجلة في ديوان الخراج ، وترجع في عائدياتها لملاك الاراضي من أصحاب الملكيات الصغيرة أو الكبيرة ، وهذا النوع فقط يستحصل منه الضرائب ، اما الانواع الثلاثة الأنفة الذكر فقد أُعفيت من الضرائب [١] .

وكانت الضرائب تجبى عن طريق (اللزمة) ، ويكون الملتزم عادةً من اعيان البلد كأن يكون شيخ من شيوخ القبائل أو احد قادة الجيش ، أو احد متنفذي المماليك ، أو يتم اختياره من بين رجال الدين ، وقد استخدم هؤلاء الملتزمون القسوة والضرب ومصادرات الأراضي ضد الفلاحين ، الأمر الذي زاد من ضنك العيش وفقر الفلاح في الريف المصري [٢] ، وخلال مدة الاحتلال الفرنسي عام (١٧٩٨ – ١٨٠١م) لمست الحياة الاقتصادية تغييرات ملحوظة ، إذ اجرت القوات الفرنسية تعديلات كثيرة على انظمة الضرائب ، وقامت بإلغاء جميع الدواوين القديمة ، واستحدثت لجنة جديدة تسمى بـ (لجنة الاشراف) تأخذ على عاتقها مهمة جمع الضرائب ، وتتألف هذه اللجنة من خمسة اعضاء ، وألغيت جميع مستحقات المماليك من مستحصلات الملتزمين [٣] ، اما التجارة في مصر فلم تكن بأحسن من سابقتها الزراعة ، فقد تراجعت التجارة في اواخر القرن الثامن عشر ، واتسمت بالمحدودية والتراجع عن مستوياتها حتى ساد مبدأ المقايضة في عمليات التبادل التجاري بين المدن والقرى المصرية في السلع والمنتجات الزراعية ، وهذا ما انعكس سلبا على عمليات التبادل والبيع والشراء فأمست محدودة [٤] ، وكانت لمصر علاقات تجارية خارجية مع عدد من الدول الاوربية مثل ايطاليا التي كانت تصدّر اليها مصر الكثير من البضائع والسلع الاستهلاكية كالقمح والرز والقطن فضلا عن البضائع التي تستوردها مصر من الهند وشبة الجزيرة العربية وأقطار آسيا وأفريقيا ، كذلك كانت لمصر علاقات تجارية مع فرنسا [٥] .

٤. تاريخ المدن :

---

[١] محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ١٧٩٨ – ١٨٠١م ، مجلة القاهرة ، الجامعة المصرية ، المجلد الرابع ، ج١ ، ١٩٣٦ ، ص ٩ – ٢٥ .

[٢] علاوي عباس عبد ، عبد الرحمن الجبرتي ومنهجه في كتابة التاريخ ، المصدر السابق ، ص٢٦ .

[٣] لجنة الإشراف : تتألف من ثلاثة مصريين وهم الشيخ المهدي ، وحسين افندي ، والمعلم فلقاؤوس . للمزيد من التفاصيل ينظر : محمد محمود السروجي ، نظام الضرائب في مصر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، مجلة المؤرخ العربي ، بغداد ، العدد ٢ ، ١٩٧٥ ، ص٢٠٤ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٨ .

[٥] علي حيدر سلمان، تاريخ الحضارة الاوربية الحديثة، (بغداد: دار واسط للدراسات والنشر، ١٩٩٠م) ، ص٥٢ .

استأثرت المدينة المصرية باهتمام علي مبارك ، وادرك أن التاريخ نفسه لم يكن في اكثر جوانبه سوى تاريخ مدن – ومن ثم – فأن من غير الممكن دراسة تاريخ مصر ما لم تدرس مدنها ، وكانت المدينة موضوع كتابات مؤرخين سابقين مثل تقي الدين المقريزي في (الخطط المقريزية) ، كذلك عبد الرحمن الجبرتي في (عجائب الاثار في التراجم والأخبار) وغيرهم من المؤرخين ، إلا أن الجديد في منهج علي مبارك هو استيعابه لمختلف ما كان يجري في المدينة من نشاطات مختلفة ، اجتماعية ، واقتصادية ، وثقافية ، وغيرها ، فقد تناول بالبحث تاريخ مصر القاهرة منذ دخول الفاطميين إليها عام (شعبان ٣٥٧هـ) ، فيحدثنا عن الغرض الاصلي للكتابة عنها فيقول : " انها أم البلاد المصرية وتخت الحكومة الخديوية ومنبع العلم والصنعة والتجارة جعلت مبانيها الشهيرة كالمساجد والمدارس ونحوها مرتبة على ترتيب حروف الهجاء ، حتى أن من اراد الاطلاع على مسجد أو مدرسة مثلا يسهل له الوقوف على ما اراد ، ولم اقتصر في ذلك على شرح الحالة الراهنة بل اخذت ما وجدته في الخطط وغيرها من صفة الحال السالفة رغبة في جمع ما تشتت من أحوالها لوقوف الطالب على جميع صفاتها قديما وحديثا " [١] .

وعرض مراحل بنائها والكيفية التي تمت فيها ، وعمد لجعل بناء القاهرة نقطة تدوين في كتاباته التاريخية ، كذلك ترجم لعدد من العلماء والأدباء والفلاسفة الذين ينتسبون إلى القاهرة ، اضافة الى انه بحث في الجوانب الجغرافية للمنطقة متطرقا إلى حدودها ، فعرض مسألة الحدود باعتبارها من اخطر العوامل في العلاقات الدولية ولاسيما بينها وبين الدول المتجاورة [٢] ، ويبدو أن اهم ما توصل إليه علي مبارك عن حالة القاهرة ومستواها الثقافي والاقتصادي كان احد الاسباب بتبعية المنطقة لها ، ثم عرج على موضوع العقائد في المدينة، كذلك تناول المدينة بالتفصيل فذكر شوارعها، وحاراتها ، ودروبها ، وأسواقها ، وذكر الجوامع ، والزوايا ، والمدارس ، والاضرحة ، والاسبلة ، والكنائس ، والمكاتب ، والحمامات ، والوكائل ، والدور ، كما ذكر الخوانق والتكايا الموجودة فيها فتناول المدنية من جميع جهاتها [٣] .

وعرض بالتفصيل مدينة الاسكندرية ، وقد قسّم علي مبارك تاريخ الاسكندرية إلى عشرة مراحل ، فبدأ بالمرحلة أو المدة الاولى منذ (٥٢٥ ق.م) إلى دخول العثمانيين اليها عام

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، الجزء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٨٠ – ١٠٤ .

[٣] المصدر نفسه ، الجزء ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .

(١٥١٧م) ، وذكر عدد المساجد ، والشوارع ، والمدارس ، وعدد السفن القادمة اليها ، وذكر حالها عند دخول العثمانيين وما شهدت المدينة من تغييرات [١] .

وذكر علي مبارك بالتفصيل تاريخ المدن والقرى الموجودة في مصر ، مرتبة حسب أحرف الهجاء ، ليسهل على القارئ الوصول إلى مبتغاه ، فتبدأ بحرف الهمزة وانتهى بحرف الياء ، وكذلك ترجم لاشهر واعظم الرجال في تلك المدة ، وماذا جرى في عهدهم من تطورات استأثرت بها المدينة المصرية ، فقد اورد لها الاجزاء من الثامن إلى السابع عشر ، فكان ملما بجميع احوال المدينة المصرية ذاكرا لأخبار أهلها وما حدث بها آنذاك من حوادث وتغيرات [٢] .

المبحث الثالث : المصادر التي اعتمدها في كتابه

ان التعرف على المصادر التي استخدمها علي مبارك في كتابة الخطط التوفيقية واهمها : الوثائق الرسمية وشبه الرسمية التي لاشك اطلع عليها علي مبارك خلال عمله في نظارة الاشغال وفي نظارة المعارف وفي مصلحة السكك الحديد وفي ادارة الاوقاف وغيرها من الادارات ، وشهدت المدة السابقة على نشر الخطط التوفيقية نشر كتاب (الاحصاء العام) الذي عمله (فردريكواميش) ونشرته الحكومة المصرية في القاهرة باللغة العربية عام ١٨٧٩م تحت اسم (مبادئ فيما يتعلق بالديار المصرية من احصاء عام ١٨٧٧م) ، اذ يتضمن هذا الكتاب احصاء هذه السنوات من عام (١٨٧٣ – ١٨٧٧م) ، وقد يتضمن في بعض جوانبه عن تعداد السكان الذي عمل عام ١٨٤٦م بمعرفة سلطات محمد علي واتخذه (اميتيش) لإحصاء السكان عن عام ١٨٧٧م الذي تضمنه الكتاب [٣] .

---

[١] المصدر نفسه ، الجزء السابع .

[٢] المصدر نفسه ، الجزء ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧؛ عماد عبد السلام رؤوف ، محاضرات كتابة التاريخ العربي في العصر العثماني ، المصدر السابق ، ص٢٠ .

[٣] فردريكواميتش ، مبادئ فيما يتعلق بالديار المصرية من احصاء عام ١٨٧٧م ، مطبعة الجهادية ، (١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م) ، ص١٣ .

واتمت الحكومة في عام ١٨٨٢م اول تعداد سكاني حديث ونشر عام ١٨٨٤م ، ولاشك ان هذين المصدرين كانا متاحين لعل مبارك للاستفادة منها ، كما ان معرفة علي مبارك باللغة الفرنسية قد مكنه من الاطلاع على المصادر الفرنسية المكتوبة ومن بينها (وصف مصر) الذي يطلق عليه علي مبارك اسم (خطط الفرنساوية) [١] ، ويتبين مما كتبه علي مبارك في الخطط انها قد كتبت خلال المدة من عام ١٨٧٢م الى عام ١٨٨٨م ، فعلي مبارك يقول عند حديثه عن مدينة الاسكندرية : " والان اعني عام ١٨٧٢م ، وكما يذكر في نهاية ترجمته لحياته تاريخ تشكيل نظارة رياض الثانية عام ١٨٨٨م " ، ويقول ايضا : " فجعلت من رجال هذه النظارة مقلدا ايضا نظارة ديوان المعارف ، وها انا قائم بهذا الامر " ، ولا يذكر بعد ذلك تاريخا مما يرجح ان الخطب كتبت بين هذين التاريخين [٢] .

وقد سجلت المقدمة المصادر التي رجع اليها علي مبارك ، اذ جاء بها : " جامعا من كتب العجم والعرب ما يفضني تامله الى العجب مراجعا كتب العرب والافرنج الذين ساحوا في تلك الديار ورسومهم التي بينوا فيها حدود هذه الاقطار ، وكذا حجج الاوقاف والاملاك وما وجد مسطورا على الاحجار والجدران " [٣] .

نستنتج من ذلك ان المصادر التي اعتمد عليها علي مبارك تنقسم على اربعة انواع اعتمد على الخطط :

١. الوثائق والمصادر الاصلية :

وهذه المصادر متعددة ، اذ اتاحت له المناصب التي تولاها وهي كثيرة فرصة للاطلاع عليها ، وقد اشار علي مبارك الى بعض هذه المصادر صراحة في الخطط ، فعند كلامه عن مدينة القاهرة يعرض بعض الاحصائيات ويرجعها الى عام (١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م) ، ويقول عنها : " حسب ما هو وارد في سجلات البلدية " [٤] ، وفي حديث لعلي مبارك عن تعداد السكان لمدينة القاهرة يفهم منه انه اطلع على دفاتر تعداد السكان التي عملت عام ١٨٨٢م ، فهو يقول : " وعدد اهالي القاهرة حسب التعداد الذي صار في ١٥ جمادي الثانية عام ١٢٩٩م الموافق ٣ ايار عام ١٨٨٢م وهو (٣٧٤٨٣٨) نسمة " ، والرقم الذي اورده علي مبارك في الخطط يتفق مع ما ورد

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢ .

[٢] المصدر نفسه ، ج٧ ، ص٤٥ ؛ ج٩ ، ص٦١ .

[٣] المصدر نفسه ، المقدمة ، ص٢ .

[٤] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٩٥ .

بتعداد عام ١٨٨٢م عن مدينة القاهرة [١] ، ويتضح مما قد سبق ان علي مبارك قد اطلع على دفاتر التعداد على الاقل فيما يتعلق بتعداد السكان في مدينة القاهرة ، الامر الذي يجعل تشكيك الكاتب البريطاني (جبريل بيير) في ذلك امر غير صحيح [٢] .

واما عن كلامه عن مدينة الاسكندرية فيشير علي مبارك الى دفاتر طوائف الحرف بالمدينة فيقول : " وهناك اشخاص محترفون لم تندرج اسمائهم في دفاتر الطوائف ، وكذلك اطلع علي مبارك على بعض الوثائق والحجج المحفوظة لدى بعض العائلات ، وقد اشار الى ذلك عند حديثه عن عائلة (الشواربي) بقليوب ، اذ اشار في حديثه عن هذه العائلة انه اطلع على وثائق في حيازة هذه العائلة منها وثيقة ترجع الى عام ٨٩١هـ تحمل علامة قاضي مصر ، وثانية ترجع الى عام ١٠٦١هـ ، وثالثة يرجع تاريخها الى عام ١١٧٢هـ تحمل علامة قاضي ولاية الخانقاه ، بان درك تلك الجهات للحاج محمد الشواربي شيخ عرب مدينة قليوب وما معها [٣] ، وتحدث علي مبارك عن اطيان عائلة الشواربي ، اذ يقول : " ان هذه العائلة اعطيت نحو (١٧٠٠) فدان من اطيان العرب بنصف الضريبة " ، كما في تاريخ المساحة عام (١٢٢٨هـ) [٤] .

وتعد حجج الوثائق هي من اكثر استخداما عند علي مبارك ، فقد استخدمها في دراسة بعض العائلات العلماء والاشراف مثل عائلة البكري ، وفي النواحي الاقتصادية مثل دراسة الاسعار والنقد في القرن الثامن عشر [٥] ، وقد قام (بيير) بعمل حصر للوقفيات التي نشرها علي مبارك في الخطط كاملة او شبة كاملة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر [٦] .

٢. المصادر المطبوعة :

وهذا النوع من المصادر ينقسم على قسمين :

أ- المصادر العربية :

من الواضح ان علي مبارك قد تأثر في كتابه الخطط بالمقريزي ، اذ اشار الى ذلك في مقدمته ، كما انه اقتبس من الخطط في اكثر من موضع ، وكان يأخذ عن المقريزي نصوصا

---

[١] المصدر نفسه ، ج١ ، ص٩٨ .

[2] Bear, ali Mubarks khitat as asource for the history of Modren Egypt , Edited by : Holt , political and Social change in Modren Egypt , London , 1968,p 14 .

[٣] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٧ ، ص٧٥ ؛ ج١٤ ، ص١١٤ .

[٤] المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص١١٦ .

[٥] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص١٢١ ؛ ج٢٠ ، ص١٥٠ .

[6] Baer , op cit, p 15 .

كاملة ، ويشير الى ذلك في بعض الاحيان ، ولم تكن الخطط هي كل ما استعان به علي مبارك من اعمال المقريزي ، فقد رجع الى كتاب المقريزي (البيان والاعراب مما بارض مصر من الاعراب) ، اذ ذكر ذلك عند حديثه عن قرية جهينة ، فقد ذكر علي مبارك : " وفي رسالة المقريزي البيان والاعراب عمن بمصر من الاعراب ان جهينة من قبائل اليمن " [١] ، اما المصدر الثاني وهي الجبرتي وكتابه (عجائب الاثار) فقد اخذ عنه علي مبارك الكثير ولاسيما تراجم العلماء ، وهناك فقرات كثيرة على امتداد الخطط مقتبسة بالكامل من الجبرتي ليس فقط في تراجم العلماء وانما خلال حديث علي مبارك عن المدن والقرى فهو مثلا يشير الى الجبرتي عند حديثه عن مقاومة بني عدي للفرنسيين في حوادث عام ١٢١٣هـ [٢] ، واما عن اسباب تدهور مدينة حلوان في الحقبة السابقة على محمد علي يشير الى ان ابراهيم بك قد احرقها فيقول : " وفي تاريخ الجبرتي ان ابراهيم الملقب بشيخ البلد قد احرقها في عام ١٢٠٠هـ " [٣] .

ب- المصادر الاوربية :

مكنت معرفة علي مبارك باللغة الفرنسية من الاطلاع على المصادر الفرنسية ، ويحتل كتاب (وصف مصر) المكانة الاولى بين المصادر الاوربية التي رجع اليها علي مبارك وهو يشير اليه مره بانه (خطط الفرنساوية) ومرة اخرى بانه (خارطة الفرنساوية) ، وقد استخدمه علي مبارك في اكثر من موضع ولاسيما عن حالة القرى والمدن المصرية زمن الحملة الفرنسية ، فهو يقول مثلا عن مدينة منفلوط : " وفي كتب الفرنساوية ايضا انها كانت مركز للتجارة السودانية التي تحملها القوافل الواردة من دارفور ونحوها " [٤] .

ويشير علي مبارك ايضا الى انه اطلع على كتاب كلوت بك (لمحة عن مصر) ويرد ذلك عند حديثه عن مدينة السويس فهو يقول : " وكانت قبل ذلك عام ١٨٣٣م تحتوي على ١٥٠٠ نفس كما قال كلوت بك " [٥] ، ويفهم من كلام علي مبارك عن مدينة السويس ايضا انه

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١٠ ، ص٦٧ .

[٢] المصدر نفسه ، ج٩ ، ص٩٤ .

[٣] المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص٨٢ .

[٤] علي بركات ، رؤية علي مبارك لتاريخ مصر الاجتماعي ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ، مصر ، ١٩٨٢ ، ص٨٨ .

[٥] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص٧٥ .

اطلع على دائرة المعارف الفرنسية فهو يذكر عند حديثه عن السياح والمسافرين المارين بمدينة السويس انذاك (نقلا عن الانسكلوبيديا) [١] .

٣. مصادر التراث العربي الإسلامي :

عرف علي مبارك وبصورة ملموسة الكثير من مصادر التراث العربي الاسلامي الهامة ، فقد اوضح اهميتها وحجم مدوناتها في مقدمة الجزء الأول من كتابه (الخطط التوفيقية) ، ككتاب المقريزي المعنون بـ (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) والمعروف بـ (الخطط المقريزية) ، وكتاب (ابن زولاق) (خطط مصر) ، وغيرها من امهات كتب التراث العربي والاسلامي ، بيد أنه لم يعتمد على كثير من الذي ذكر في مؤلفاته إلا فيما تعلق في الوقوف على طبيعة تأليفه ، ومناهج كتاباته وطريقته في تصنيف المعلومات ومعالجتها [٢] .

واما تلك التي نهل منها معلوماته واستند اليها في مواضع كثيرة في كتاباته ولاسيما المتعلقة منها بالجزء الأول الخاص بحال مصر القاهرة منذ دخول الفاطميين حتى نهايات القرن التاسع عشر فهي كثيرة ، ومن المفيد هنا أن نعد جدولا خاصا بما صنفه علي مبارك من تلك التصانيف المهمة التي شكلت اسس المعرفة في حقل الكتابات التاريخية .

اهم مصادر التاريخ العربي الاسلامي عند علي مبارك

	اسم المؤلف	عام وفاته	اسم مصنفه
	ابن زولاق الحسن بن إبراهيم	٣٠٦-٣٨٧هـ/٩١٩-٩٩٧م	خطط مصر ، واخر فضائل مصر
	المسيحي ، محمد بن عبيد الله بن احمد بن اسماعيل	٣٦٦-٤٢٠هـ/٩٧٦-١٠٢٩م	اخبار مصر
	أبو الحسن،علي بن رضوان	٤٥٣هـ/١٠٦١م	دفع مضار الابدان في ارض مصر

---

[١] المصدر نفسه ، ج١٢ ، ص٧٣ .

[٢] المصدر نفسه ، ج١ ، المقدمة ، ص ٢ – ٣ .

	القضاعي ، محمد بن سلامه	٤٥٤هـ / ١٠٦٢م	تفسير القران
	القاضي الفاضل،عبد الرحيم عبد علي بن السعيد اللخمي	٥٢٩-٥٩٦هـ/١١٣٥-١٢٠٠م	فصوص الفصول وعقود العقول
	ابن مماتي،اسعد أبو المكارم بن مهذب	٥٤٤-٦٠٦هـ/١١٤٩-١٢٠٩م	قوانين الدواوين
	ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن جبير الكناني	٥٤٠-٦١٤هـ/١١٤٥-١٢١٧م	رحلة ابن جبير
٨.	ابن أبي طيء ، يحيى بن حميده بن ظافر	٦٣٠هـ/١٢٣٣م	المنتخب في شرح لامية العرب
٩.	السهروردي ، شهاب الدين عمر بن محمد	٥٣٩-٦٣٢هـ/١١٤٥-١٢٣٤م	عوارف المعارف
١٠.	ابن دحيه،عمر عبد الحسن بن علي	٥٤٤-٦٣٣هـ/١١٤٩-١٢٣٥م	علم النصر المبين في المفاضلة بين أهل
١١.	ابن ميسر ، محمد	٦٧٧هـ / ١٢٧٨م	المنتقى من اخبار مصر
١٢.	ناصر خسرو	١٠٠٣ - ١٠٦١م	سفر نامة
١٣.	ابن عبد الظاهر،علي بن محمد بن عبد الله	٦٧٦-٧١٧هـ/١٢٧٧-١٣١٧م	الروضة البهية الزاهرة في خطط المقريزي القاهرة
١٤.	ناصر الدين،شافع بن علي	٦٤٩-٧٣٠هـ/١٢٥٢-١٣٣٠م	تشريف الايام والعصور بسيرة الملك المنصور
١٥.	الذهبي،شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان	٦٧٣-٧٤٨هـ/١٢٧٤-١٣٤٨م	دولة الاسلام
١٦.	شهاب الدين أبي حجلة، احمد بن يحيى	٧٢٥-٧٧٦هـ/١٣٢٥-١٣٧٥م	
١٧.	ابن الملقن، عمر بن علي بن	٧٢٣-٨٠٤هـ/١٣٢٣-١٤٠١م	الاشباه والنظائر

	احمد الانصاري		
١٨.	ابـن الزيـات، شـمس الـدين أبـو عبد الله محمد	٨٠٥هـ / ١٤٠٢م	الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة
١٩.	المقريـزي ، تقـي الـدين احمـد بـن علي	٧٦٦-٨٤٥هـ/١٣٦٥-١٤٤١م	المـواعظ والاعتبـار بـذكر الخطـط والآثار
٢٠.	السخاوي، محمد بن عبد الرحمن	٨٣١-٩٠٢هـ/١٤٢٧-١٤٩٧م	الضـوء اللامـع فـي اعيـان القـرن التاسـع والاعـلان بـالتبويخ مـن ذم التاريخ
٢١.	ابن الناسخ،كمال الدين محمد	٩١٤هـ/١٥٠٨م	مصباح الدياجي ، التراجم أعلام الصوفية
٢٢.	ابن اياس ، محمد بن احمد	٨٨٩-٩٧٣هـ/١٤٩٣-١٥٦٥	
٢٣.	الشعراني، عبد الوهاب بن احمد	٨٩٨-٩٧٣هـ/١٤٩٣-١٥٦٥م	الانـوار القدسـية فـي معرفـة قواعـد الصوفية
٢٤.	ابن سنبل، احمد بن يوسف بن يعقوب الخلوتي	٩٨٩هـ/١٥٨١م	المنتخب من قرة العيون
٢٥.	المناوي،عبـد الـرؤوف بـن تـاج العارفين	٩٥٢-١٠٣١هـ/١٥٤٥-١٦٢١م	كنوز الحقائق ، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية
٢٦.	علي بن زيد العابدين		

٤. التراجم التي عملت بمعرفة اصحابها :

فقد ترجم علي مبارك للكثير من معاصريه ولاسيما اعضاء البعثات العلمية التي كانت لهم بهم معرفة وعندما لم يكن لدى علي مبارك معلومات كافية عن الشخصية التي يرغب الترجمة لها كان يطلب من صاحب الترجمة ان يكتب له ترجمة حياته بنفسه [١] ، والشيء نفسه تجده في ترجمة صالح مجدي ، ويقول علي مبارك : " وهو كما خبر عن نفسه محمد بن صالح ... " [٢] .

---

[١] جمال الدين الشيال ، التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر ، المصدر السابق ، ص١٠٧ .

[٢] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص٢٢ .

٥. الروايات الشفوية :

وهي كثيرة وقد اعتمد عليها علي مبارك في اكثر من موضع ، فقد ذكر عند حديثه عن مولد السيد البدوي في طنطا انه سمع ذلك من بعض المشايخ [١] ، وفي ترجمته لأحمد باشا طاهر عند حديثه عن مدينة منفلوط يذكر علي مبارك : " ولكن اخبرني من اثق به ان طاهر باشا ليس ابن اخت العزيز محمد علي وانما هو من بلدة من ناحية قوله " ، ويقول علي مبارك عند حديثه عن قرية القايات : " كما حدثني من اثق به " ، وعند حديثه عن اسرة الشواربي يقول علي مبارك : " وذكر لي الامير محمد بيك الشواربي مامور مالية الجيزة حاليا " [٢] ، ويقول ايضا عند حديثه عن قرية هورين : " وقد اخبرني بعض من يوثق به " [٣] .

٦. المشاهدات الشخصية :

استند علي مبارك في مواضع كثيرة على مشاهداته العينية ، ولاسيما تلك التي ادرك تطوراتها ، فسجل بثاقب بصيرته ما وقعت عليه عيناه من احداث عاصرها ، كتلك المتعلقة بأساليب حكم اسرة محمد علي باشا واجراءاتها في ادارة البلاد ، كذلك ظهور شخصية محمد علي باشا التي اثرت بعمق في تاريخ مصر الحديثة من (١٨٠٥ – ١٨٤٨م) الذي حكم مصر قرابة اربعة عقود سعى خلالها وفق رؤاه الخاصة الى تحديثها [٤] ، وقد بين علي مبارك وبوضوح ملموس في استعانته بمشاهداته العينية في تسجيل الاحداث وتتبع تطوراتها التي اتاحتها له وظائفه الكثيرة وتحركاته الكثيرة باعتباره تولى منصب ادارة السكك الحديد ، وادارة الاشغال وما ارتبط بالإدارة الاخيرة من اعمال وتحركات تتصل بالري .

يتضح مما سبق ان المصادر التي اعتمد عليها علي مبارك قد اشار الى بعضها اثناء كتابة الخطط ، وهناك قضية تتصل بهذا الموضوع اثارها البعض وهي ان علي مبارك قد استعان بمرؤوسيه في اعداد الخطط التوفيقية ، والحقيقة الظاهرة عن هذا الموضوع هي ان الخطط مكتوبة بأسلوب واحد وهو اسلوب علي مبارك ، واذا كان علي مبارك قد استعان بمرؤوسيه ومساعديه في جمع مادة الخطط وهو امر لا غبار عليه لان الاستعانة بصغار الباحثين في جمع المادة العلمية لا يقلل من قيمة الخطط كعمل فذ [٥] .

---

[١] المصدر نفسه ، ج١٣ ، ص٥٠ .

[٢] المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص٧٦ ، ٩٥ ، ١١٦ .

[٣] المصدر نفسه ، ج١٥ ، ص٧٣ .

[٤] المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢١٥ .

[٥] علي بركات ، رؤية علي مبارك لتاريخ مصر الاجتماعي ، المصدر السابق ، ص٨٩ .

وقد ذكر علي مبارك عند تناوله لتعداد مدينة القاهرة عام ١٨٨٢م انه اطلع على دفاتر التعداد التي عملت عام ١٨٨٢م الا انه لم يشر الى انه اطلع على هذا التعداد فيما يتعلق بالمدن الاخرى التي اوردها والتي جاءت بياناته عنها موضوع شك ، وقد ذكر ان تعداد مدينة الاسكندرية عام (١٢٩١هـ / ١٨٧٤م) يبلغ (٢٧٠٠٠٠) الف نسمة ، بينما تعدادها في احصاء عام ١٨٧٧م هو (١٦٥٧٥٢) الف نسمة ، كما انه لم يزد في تعداد عام ١٨٨٢م عن (٢٣١٤٩٦) الف نسمة [١] ، وتعداد مدينة اسيوط عام (١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م) يبلغ (٢٨) الف نسمة ، بينما جاء في احصاء عام ١٨٧٧م ان تعداد المدينة هو (٢٩٨١٢) الف نسمة ، وفي تعداد عام ١٨٨٢م يبلغ (٣١٥٧٥) الف نسمة [٢] ، جاء في احصاء عام ١٨٧٧م ان عدد سكان قنا (١٥٤٣٦) الف نسمة ، كما انها في تعداد عام ١٨٨٢م تبلغ (١٧٤٥٥) الف نسمة [٣] ، وفي مدينة سبين الكوم ذكر علي مبارك ان تعدادها (١٣٤٦٨) الف نسمة ، وجاء في احصاء عام ١٨٧٧م ان تعداد المدينة يبلغ (١٣٨٧٦) الف نسمة ، بينما كان يبلغ (١٦٣٣٧) الف نسمة في تعداد عام ١٨٨٢م [٤] .

تأسيسا على ما تقدم ان علي مبارك قد اعتمد على مصادر متنوعة في كتابة الخطط تأتي في مقدمتها الوثائق التي كان يدرك اهميتها العلمية في الكتابة التاريخية وقد احسن في توظيفها ، كذلك اعتمد على المصادر الاصلية والمصادر الاجنبية والمقابلات ، الامر الذي يجعل القارئ امام عمل تاريخي كبير كتب وفق منهجية علمية تاريخية .

---

[١] علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، المصدر السابق ، ج١٧ ، ص٥٠ .

[٢] المصدر نفسه ، ج١٢ ، ص١٠٥ .

[٣] المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص١٢١ .

[٤] المصدر نفسه ، ج١٢ ، ص١٤٨ .